محمود سعيد

تيهُ حميم

رواية

مام
للنشر والتوزيع

تيــه حميــم

روايـة

تأليف

محمود سعيد

مقام
للنشر والتوزيع

الكتاب: تيــهٌ حميــم

المؤلف: محمود سعيد

الناشر: مقام للنشر والتوزيع

التصنيف: قصص

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 8 - 70- 6570 - 977 - 978 ISBN

رقم الايداع: 2024/4000

Maqam for Publishing and distribution

القاهرة، جمهورية مصر العربية

هاتف: 00233839055

متحرك: 00201112750799

البريد الالكتروني: maqam.publisher@gmail.com

جميع الحقوق وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلف ولا يسمح باعادة اصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الاشكال، دون اذن خطي مسبق من الناشر.

«يا مُـنــكِــرًا فعلي
ذُب في الهوى مثلي
واتبع نِدا نفسك،
تفهم، وتشفع لي»

شعر/ ناصف سليم

-١-

قرية من قرى دلتا مصر
خريف ١٩٧٠

وقف الحاج «سليم» أمام مسجد القرية بعد أن فرغ من صلاة المغرب ليصافح المهنئين لمرة أخيرة قبل أن يغادر إلى بيته، ولم يفته – على ضوء الليل الأولي الشاحب – أن يلاحظ نظرات القلق في أعين أصحابه المقربين، والسخرية في أعين العديد من المهنئين.

كانت قد وصلته في الفترة الأخيرة تلك الأقاويل التي يتناقلها أبناء القرية عن علاقة زوجته الجديدة بالسحر، وعن أفراد أسرتها «العفاريت» الذين يسكنون قاع الترعة الكبيرة التي تمر من أمام القرية، هذا غير علمه السابق بعدم قبول أهل القرية لتلك الزيجة من الأساس. في الحقيقة هو لم يشعر بأي لوم تجاه من لم يستسغ قصة زواجه؛ فهو نفسه لم يكن قد استساغ بعد فكرة أنه قد تزوج ثانية، وفي هذه الظروف الغريبة المتلاحقة.

سار وحيدًا تجاه بيته وأحداث الشهر الأخير تمر في مخيلته وتثير دهشته. بدأ الأمر كله منذ شهر، عندما كان يجلس في «مندرة» داره مع بعض رجال القرية المتشاحنين لينهي الخلاف بينهم كما اعتاد ككبير للقرية، ومحل احترام كبيرها وصغيرها، عندما دخل أحد الصبية إلى المندرة وهمس له في أذنه بأن «نرجس» أرملة «أحمد ابو محيسن» تريده بالخارج.

استأذن الرجال الجالسين وخرج. كان يعرفها كواحدة من أهل القرية، ويعرف بمقتل زوجها الشاب بحادث منذ عدة أشهر، إلا أنه لم يكن يتذكر أي تفاصيل أخرى تخصها، ربما حتى لم يكن يتذكر شكلها على وجه التحديد؛ إذ لم يحدث بينهما أي تعامل معتبر من قبل.

وجدها تقف بجوار باب المندرة في أدب مطأطأة رأسها، فما إن رأته حتى أسرعت تقف أمامه وهي تمسك بطرف طرحتها التي تخفي بها أغلب ملامح وجهها وتنظر إلى الأرض.

– خير إن شاء الله..

– خير يا سيدي.. كنت جاية طمعانة فيك في طلب بعد إذنك وأمرك..

– خير.. اني سامعِك..

– الصراحة يا سيدي.. من ساعة ما «احمد» جوزي ربنا اختاره وظروفي بقت صعبة أوي.. اني قاعدة في عشة على أول البلد زي ما سيدي عارف.. ومليش شغلانة.. و«أحمد» مسابش وراه لا ابيض ولا اسود.. وحياة ربنا يا سيدي اني بافضل بالليالي من غير عشا..ده اني.. ده اني..

واختنق صوتها بالبكاء.

مد يده في جيب جلبابه وأخرج بعض الأوراق المالية ووضعها في يدها فجفلت وتراجعت للوراء فسقطت النقود على الأرض.

– لا يا سيدي اني مش بشحت.. اني عاوزة اشتغل.. اني جاية أطلب تشوفلي شغلانة..

مع حركتها أفلتت يدها طرف الطرحة ونظرت إلى «سليم» بوجه سافر، والدموع تبلل خديها.

يا ألطاف الله!.. ما أن نظر «سليم» إلى وجهها حتى ارتجف قلبه في صدره وهو يطالع طرف شعرها البني اللامع الذي يظهر من تحت طرحتها، وحاجبيها، وعينيها.. يا لعينيها!.. دوّامتان من عسلٍ مصفّى تسبحان في نهرين من حليب، وأنفها الرشيق وشفتيها

المستقيمتين وبشرتها النيلية ووجهها النبيل.

مرّت لحظات وهو لا يزال غير قادر على صرف بصره عن وجهها، بينما هي تنظر إلى عينيه مباشرة.

- هتشوف لي شغلانة يا سيدي؟..

تنحنح وقال لها بهدوء:

- طب خدي الفلوس يا «نرجس» وعدي عليا بعد جمعة.. وربنا يقدم اللي فيه الخير.

أخذت النقود من الأرض وشكرته ورحلت في هدوء، فوقف يتابعها بعينيه حتى ابتعدت، ثم تمالك نفسه وعاد إلى المندرة.

***

كان اللقاء الثاني بعد أسبوع كما اتفقا، كان هذه المرة بالمندرة بمفرده، يرتّب بعض الأوراق في مكتبة صغيرة. طرقت باب المندرة المفتوح في هدوء، فنظر إلى الباب والأوراق في يده وأذن لها بالدخول.

كانت ترتدي جلبابا زاهيا هذه المرة منقوشًا بورود كبيرة الحجم، وتربط رأسها بمنديل متناسق الألوان مع لون الجلباب.

وقفت جوار الباب مبتسمة، بينما راح هو ينظر إليها مبهورا.

– اقعدي يا «نرجس»..

جلست على طرف الأريكة المجاورة للباب في أدب وابتسامتها لم تفارق وجهها. بينما سار هو إلى أقرب الأرائك إليه وجلس وفي يديه بعض الأوراق.

كان محرجًا؛ إذ بائت جميع المحاولات التي حاولها طوال الأسبوع الماضي للبحث لها عن عمل بالفشل؛ فكل أسر القرية المقتدرين الذين فاتحهم في أمر عمل «نرجس» لديهم، رفضوا فورا. تعلل بعضهم بخوفه على أبنائه المراهقين من فتنتها، بينما كان البعض الآخر أكثر صراحة فأخبر الحاج «سليم» مباشرة بخوفه من أن تنشأ خلافات بينه وبين زوجته التي بالتأكيد ستغار من وجود «نرجس» بالمنزل لجمالها الأخاذ.

تظاهر بقراءة ما في يده من أوراق وهو يدقق النظر؛ إذ لم يكن على قدر كبير من إتقان القراءة.

بادرته «نرجس» قائلة:

– سيدي يحب أساعده في حاجة؟.. أني شاطرة و بعرف أقرأ..

نظر إليها مذهولا.

شابة فقيرة في القرية وتستطيع القراءة!.. كيف والغالبية من

بنات وأبناء عائلات القرية – حتى تلك العائلات التي تشتهر بالغنى وعراقة الأصل – لم يلتحقوا أبدًا بالمدارس؟.. لعدم وجود مدارس لا بالقرية ولا القرى المجاورة عندما كانوا أطفالًا، ولما تتطلبه الدراسة من مشقة سفر وإقامة بالمدن البعيدة ومصاريف معيشة.

– بتعرفي تقري إزاي؟..

– بعرف أقرأ يا سيدي.. جدي الله يرحمه هو اللي مربيني.. كان حافظ القرآن وبيكتب ويقرأ وعلمني.. ده كان عنده كتب ياما..

ناولها ورقة من الأوراق التي كانت في يده وهو ينظر إليها متشككًا، فتناولت من يده الورقة وتلتها عليه تلاوة واضحة صحيحة.

كان يستمع إليها بينما مجموعة مختلفة من المشاعر تعصف به. كان مبهورًا بجمالها وذكائها وقدرتها على القراءة الصحيحة، كما كان يشعر بالأسف لأنه كان يبحث لها عن عمل كخادمة في أحد البيوت، ظنًا منه أنها المهنة المناسبة لها.

قاطعها أثناء قراءتها قائلا:

– اني آسف يا «نرجس».. سامحيني..

نظرت إليه في دهشة.

- خير يا سيدي.. العفو.. حصل إيه؟..

- أصلي مكنتش أعرف انك شاطرة كده.. أني كنت بحاول اشوف بيت تخدمي فيه..

وسكت خجلًا ونظر إلى الأرض، فاتسعت ابتسامتها وهي تقول له:

- لا يا سيدي عندك حق.. أومال يعني هاشتغل ايه في البلد؟.. حكيمة؟!..

قامت و ناولته الورقة ثم عادت إلى مكانها وقالت بهدوء:

- طبعا محدش رضي يشغلني في بيته..

نظر إليها بدهشة أكبر، فابتسمت وقالت بإنكسار:

- اني سألت كتير يا سيدي قبل ما أقصدك.. مفيش ست في البلد هترضى تشغلني في بيتها..

ثم أشاحت بوجهها ونظرت بعيدًا وهي تقول بحزن:

- البنات بيحسدوني على جمالي.. يجوا يشوفوا خيبتي..

- معلش يا «نرجس».. عدي عليا كمان جمعة.. ربك كبير وبإذن الله هتتدبر..

نظرت إليه فجأة بجدية، وثبتت نظرها على وجهه لفترة دون أن

يرمش لها جفن، فبادلها النظر مبهور الأنفاس للحظات ثم تنحنح ونظر إلى الأرض وهو يسأل نفسه في خجل، ترى هل رأت انبهاره بها في عينيه؟

قامت من مكانها ببطء، وسارت بإتجاهه حتى وقفت أمامه وصارت قدماها في موضع بصره تماما وظلت في هذا الموضع لفترة.

رفع وجهه إليها وهو يجاهد ليداري لهفته إليها.

فابتسمت وقالت بهدوء:

- سيدي يؤمرني بحاجة؟..

- الأمر لله يا «نرجس»..

نظرت في عينيه مباشرة وابتسمت، ثم استدارت ورحلت، وتركته يلملم شتات نفسه بصعوبة بالغة.

***

من أين أتيتِ يا «نرجس»؟.. وكيف أحييتِ بحسنك الخلاب وعبيرك الأخاذ الأمل في قلب «سليم»؟.

ذلك الذي كانت الأيام تسير به دون أن يهتم، ودون أن يحسب لأحداثها حسابا، هو الأرمل منذ وفاة زوجته قبل سنواتٍ ثلاث، زوجته التي لم يعرف نساء قبلها ولا بعدها!..

وحيدًا بالمندرة بعد رحيل «نرجس»، عصفت به الأفكار والذكريات، حتى عاد إلى فترة بدايات شبابه، عندما كان لا يزال يعيش وحيدًا مع أمه، بعدما تزوج كل إخوته الذين يكبرونه.

يحيا معها بعد وفاة أبيه ليخدمها بنفسه، ويراعي الأرض. وأصدقاء طفولته وصباه يتزوجون الواحد تلو الآخر، حتى كان ذلك اليوم الذي كان يزور فيه صديقه «نجيب» نجل عمدة القرية الكبيرة التي تتبع لها قريته الصغيرة، عندما أخبره «نجيب» بأن والده العمدة يريده في أمر هام.

ارتبك «سليم» حينها خجلًا، وهو يسير مع «نجيب» إلى القاعة التي يجلس بها العمدة، حتى دخلا عليه فسلما عليه وقبّلا يده، وجلسا أمامه في أدب.

وبعد السلامات والأسئلة المعتادة عن الأهل والأحوال، تنحنح العمدة وأخبره وهو يبتسم في خجل، أن المثل يقول «اخطب لبنتك ولاتخطبش لابنك..».. وإنه بمعرفته بـه وبوالده المرحوم ووالدته «الله يبارك في عمرها» لن يجد أفضل منه زوجًا لابنته «فوزية».

ازداد ارتباك «سليم» إثر تلك المفاجأة حتى وصل إلى ذروته،

فأخذ يهمهم بهمهمات غير مفهومة محاولًا أن يجد جملة مناسبة ليرد بها على الرجل.

إلا أن العمدة أراحه من هذا الارتباك، وطلب منه أن يفكر ويستخير الله تعالى، ويستشير أمه، ويأخذ وقته كاملا ثم يرد عليه.

عندما أبلغ «سليم» أمه بذلك العرض الذي عرضه عليه العمدة، رفضت على الفور؛ فـ«فوزية» تكبره بعدة أعوام، كما أنها غير جميلة الشكل، بينما «سليم» هو زينة شباب القرية. كما أنهم - كأسرة - لا ينقصهم شيئا حتى يضطر هو للزواج بتلك الفتاة العانس على حد وصفها.

استقبل «سليم» ثورة أمه بهدوئه المعتاد، وأنهى الحديث قائلا:

- اللي فيه الخير يقدمه ربنا..

في اليوم التالي وبعد أن تناولا طعام الغداء، ورأى «سليم» من أمه قابلية للنقاش، أخبرها في هدوء أنه سيشعر بالحرج من العمدة ومن صديقه «نجيب» إذا رفض الزواج بـ«فوزية»، ثم إنه أي أسرة تتمنى أن تناسب العمدة، كما أنه عاجلا أو آجلا سيتزوج، وأنه لا يجد «فوزية» غير جميلة الشكل لهذه الدرجة، وإنما هي مقبولة بالنسبة له.

رفضت أمه ثانية، فحاول معها عدة مرات، حتى وافقت على مضض.

تمت التجهيزات سريعا، وأقيمت الأفـراح لعدة ليالٍ في القريتين، وكانت ليالٍ لم يشهدها أهل القريتين ولا القرى المجاورة من قبل، أراد بها «العمدة» أن يدخل السرور على قلب ابنته التي تأخر زواجها، ويكيد الشامتين.

تأكد لـ «سليم» – منذ بداية حياته مع «فوزية» – حسن اختياره؛ فعلى الرغم من أن «فوزية» لم تكن الأجمل شكلا، إلا أنها كانت الأرق والألطف والأجمل خـُـلقًا.

فقد كانت حيية مهذبة، رقيقة المشاعر، تحب «سليم» وتسعى لإرضائه بكل الطرق، فتسهر على راحته، وتتودد إلى أمه، ولا تترك مجالا لخلاف ينشأ بينها وبين زوجها أبدًا.

كذلك فقد أغدق عليه حموه «العمدة» من محبته ورعايته. حتى جعل منه مستشاره الأقرب، وذراعه اليمنى، خاصة بعدما تأكد له حكمة «سليم» وحنكته في إدارة الأمور.

حتى أمه التي كانت رافضة لفكرة زواجه من «فوزية» بدأت تلين من ناحيتها مع الأيام والمواقف، وتبادلها ودًا بود.

إلا أنه على الرغم من تلك السعادة الكبيرة التي عاشتها الأسرة الصغيرة، فقد ظهر بعد فترة ما كاد يعكر صفو تلك العلاقة، إذ لم يرزق الزوجان الشابان بالأطفال، ولم تجدِ كل محاولات العائلة نفعًا، بداية من استشارة الدايات، حتى زيارة «الشيوخ المبروكين» الذين يظن بهم الناس معرفتهم بالأمور الظاهرة والباطنة، وبما يُرضي الإنس والجان.

حتى بدأت العائلتان – بمرور الوقت – تيئسان من فرصة إنجاب «فوزية».

أصاب لذلك حزن طبيعي قلب «سليم»، بينما كان قلب «فوزية» يتفطّر حزنًا، فبالإضافة لحاجتها إلى أن تصبح أمًا – ككل الفتيات – فقد كانت تأمل أن تقر عين «سليم» بأطفالٍ كُثُر، يملئون البيت بالسعادة، والقلوب بالأمل.

بدأت أم «سليم» تلح عليه في الزواج ثانية، إلا أنه – في كل مرة – كان يرجوها أن تنصرف عن هذا الحديث نهائيا، ويخبرها بأنه لم ينقطع رجاؤه بعد في الإنجاب من «فوزية».

وبمرور السنوات، وبعد وفاة والدته بفترة، بدأت «فوزية» نفسها في الإلحاح على «سليم» بالزواج ثانية، حتى صارت تضغط عليه

في سبيل قبول ذلك، فأخبرته أنها لا تريد أن تظلمه معها، وأخبرته بأن أولاده سيكونون أولادها، وأن فرحته ستسعدها.

إلا أن رد «سليم» لم يكن يتغيّر، فقد كان يرفض ذلك رفضا قاطعا، ليس فقط حتى لا يكسر قلب «فوزية» التي لم يرَ منها إلا كل خير، وإنما أيضا لأنه كان يؤمن بالقدر إيمانا لا يتزحزح، جعله يخشى الإقدام على خطوة كتلك.

فكان يحدث نفسه بأنه إذا كان مقدورا له أن يرزق بالأولاد، فسيرزق من «فوزية»، حتى ولو كانت عقيمًا؛ فإرادة الله تغلب كل مستحيل. كما كان يرى في زواجه ثانية – بحثا عن الذرية – اعتراضا على قدر الله الذي كتبه له، ونكرانًا لنعمة الله عليه، بالأهل والغنى والزوجة الطيبة الصالحة، وطمعا فيما ليس له.

ظل الزوجان يعيشان في رضا، والسنوات تمر بهما، حتى تخطى «سليم» الأربعين من عمره ببضع سنين، حين ماتت «فوزية» فجأة، هكذا دون مرضٍ أو رقاد. ظُهر ذلك اليوم الذي رأى «سليم» في صبيحته في المنام أن يمامة بيضاء طارت من بيته خارجة نحو الأفق البعيد بعدما حلقت لبعض الوقت في صحن الدار.

ماتت «فوزية» حيث كانت تجلس على أريكة عالية، تداعب

الفتيات العاملات في إعداد الخبز وأعمال الطبخ، وضحكاتهن جميعا تصدح في الدار عالية، مستغلات خلو البيت من «سليم»، حين وضعت «فوزية» يدها على صدرها فجأة وشهقت، ثم سقطت على جنبها فوق الأريكة.

***

في الأسبوع الذي تلى زيارة «نرجس» الثانية لـ«سليم»، أصاب «سليم» الارتباك فيما يخص بحثه عن عملٍ لـ«نرجس». فبعدما كان يبحث لها عن فرصة للعمل كخادمة في بيت من بيوت أسر الأكابر بالقرية، أصبح يشفق عليها من هذا المصير، بعدما أدرك مدى ذكائها ونباهتها وقدرتها على القراءة.

بينما كان يعرف في الوقت نفسه أنه يتعذر وجود فرصة عمل أخرى لها في نطاق القرية، فهي إما أن تعمل في الأرض في فترات مواسم الحصاد وهو عمل موسمي لا يدر دخلا ثابتا، أو خادمة في أحد البيوت.

إلا أن هذا لم يمنعه من سؤال أحد الأعيان – عندما التقاه في أحد مجالس الصلح – إن كان في مقدوره توفير عمل ل «نرجس» في بيته، وظل يمتدح ذكاءها وأخلاقها للرجل، إلا أن الرجل رفض

أيضا في أدب.

حتى قال أحد الحاضرين وهو يبتسم في خبث:

– طب مادام عاجباك كده يا حج «سليم» ما تشغلها انت عندك في البيت.. وأهو البيت يبقى فيه نفَس حُرمة، ودي مش أي حُرمة!

قال تلك الجملة وضحك بسماجة وهو يرقّص كتفيه، فرماه «سليم» بنظرة نارية ولم يرد.

صباح اليوم الذي يسبق زيارة «نرجس» الثالثة لـ «سليم» حسب ما اتفقا عليه، استيقظ «سليم» متأخرا عن عادته. كان قد صلى الفجر في المسجد كالعادة، وعاد فنام.

ظل راقدا في سريره ينظر إلى سقف الحجرة، وبين عقله وقلبه تدور حرب طاحنة.

كان عقله يتسائل متعجبًا، هل تحب «نرجس» بالفعل يا «سليم»؟!!.. فقدت عقلك يا شيخ البلد؟.. تعشق فتاة في عمر أولادك إن كان لك أولاد؟.. تعشق فتاة فقيرة لا أصل لها ولا أهل؟.. فتاة تعيش في «عشة» على أطراف البلدة؟.. أنت العاقل الرشيد ابن الأكابر نسيب العمدة؟.

أنت من زهدت النساء – غير «فوزية» – وأنت في عز شبابك،

وزهدتهن بعد وفاتها.. تعشق «نرجس»؟..

عرضوا عليك أن تقبلها كخادمة في بيتك، فتعشقها وتتمنى لو تتزوجها؟..

كيف تغامر بعلاقتك الطيبة بـ«نجيب» صديق عمرك واخوته؟.. اخوة «فوزية».. وأخوهم الأكبر الذي صار العمدة بعد وفاة أبيه؟..

فيقطع قلبه حديث عقله قائلا.. ولماذا لا تعشق «نرجس» وكل ما فيها يستحق العشق؟.. تلك الجميلة الشابة التي تسر العين والروح. ثم إنها أرملة وليست بكرًا ليتهمك الناس بعشق الصغيرات. ثم إنك موفور الصحة، ميسور الحال، لا زالت تتمنى أي أسرة أن تحظى بنسبك.

هؤلاء إخوتك وأصدقاؤك ومعارفك لا يزالون يلحون عليك لتتزوج من جديد، خصوصا بعد وفاة «فوزية»، فمالك لا تختار من تُرضي قلبك وتملأ عينيك وحياتك بالسعادة والسرور؟.

نهض من سريره متثاقلًا، وبدأ يومه ونفسه تموج بالصراع.

***

في اليوم التالي، يوم اللقاء الثالث، لم يستطع «سليم» النوم بعد صلاة الفجر؛ إذ ظل مستيقظا في السرير يحدق في السقف.

يتلهف لقاء «نرجس» أحيانا، ثم يعود ويؤنب نفسه بعد ذلك، قائلا لنفسه «ماذا تركت للمراهقين من الشباب!». ظل كذلك لفترة ثم قام وتناول بضع لقيمات على سبيل الإفطار ثم خرج.

ذهب إلى أرضه فباشر عمل المزارعين، ثم اختلى بنفسه في بقعة نائية من الحقل.

يا الله يا خالق السماوات والأرض.. والماء والخضر واليابس.. هل كُتب لقلبي أن ينال السعادة في الدار الدنيا، ويعرف طعم الحياة مع امرأة يعشقها؟.. هل تكون تلك الجميلة النضرة النابضة بالحياة مكافأة لعبدك القانع على سنوات الصبر؟.

هل أتزوجها؟ وإن تزوجتها، هل أرزق منها بالولد؟.. بعد هذا العمر وفي هذه السن؟.. أرزق بالولد من المرأة التي شغفتني حبًا؟.. سبحانك لا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، يا من يقول للأمر كن فيكون.

غاص «سليم» في تأملاته حتى أُذّن لصلاة الظهر فقام سريعا إلى المسجد وقلبه يمتلئ بالأمل.

***

بعد الظهر بساعة أو أكثر، وبينما كان في المندرة يتلهف لقاءها

ويتظاهر بترتيب الأوراق في المكتبة، أتت.

كانت ترتدي جلبابا زاهيا ومنديلا على رأسها، وتحمل في يدها منديلا آخر ملفوفًا حول طبق. بينما تبتسم في خجل. طرقت الباب في هدوء وخطت إلى الداخل، ثم ظلت تنظر إلى «سليم» وهو مبهور الأنفاس وابتسامتها الواثقة من سطوتها عليه لا تفارق وجهها.

- إزيك يا سيدي.. أخبارك إيه؟..

- بخير يا «نرجس».. تعالي أقعدي..

جلست على الأريكة المقابلة للباب، و«سليم» لا يزال مرتبكًا، ينظر لها للحظات ثم يصرف بصره إلى الأوراق التي في يده.

تمالك نفسك يا «شيخ البلد»!.. يا الله.. أي سحرٍ تحمله هذه الفتاة؟.. حتى في ظروفها الصعبة وملابسها البسيطة تبدو زاهية تشع جمالا وحياة، ماذا إذا ارتدت أفخر الثياب وتزينت بالحلي؟.. هل تنير الكون نيابة عن الشمس؟.

- أخبارك ايه يا نرجس؟..

- أني بخير طول ما سيدي بخير..

- تعالي ليكي عندي شغلانة حلوة.. عاوزك تساعديني أرتب الورق اللي في المكتبة.. هنحط العقودات والحِجج في يمّة..

والجوابات والمراسيل في يمّة.. وورق الحكومة في يمّة..

– يا لهوي يا سيدي.. ده انا اخدمك بعنيا.. بس الأول مش تكسفني.. اني عاملة لك حاجة حلوة تستاهل حنكك..

قامت من مكانها وجلست بجواره وفتحت المنديل الذي كانت تحمله في يدها، وأخرجت منه طبقًا به بعض الحلوى المصنوعة بالمنزل، امسكت قطعة من الحلوى بأناملها ووضعتها في فمه وهي تنظر في عينيه مباشرة.

كان يظن – قبل ذلك – أنه قد ذاق خلال عمره أطيب الطعام، إلا أن قطعة الحلوى البسيطة تلك كان لها في فمه مذاقًا أحلى من كل ما ذاق. أحس بنفسه يطير بعيدا إلى عوالم لم يعرفها من قبل بينما كانت الحلوى تذوب في فمه، دنيا أخرى غير تلك الدنيا، كل ما فيها يعبق بعبير «نرجس».

***

قضيا معا عدة ساعات، يرتبان الأوراق ويتحدثان. حكت له الكثير عن نفسها، وشكت له وحدتها، وخوفها، في الليل من اللصوص والمجرمين، وفي النهار من نظرات الناس. تباسط معها هو الآخر فحكى لها كثيرا مما مرّ به خلال حياته.

تشجعت أخيرا وقالت:

– بس اعذرني يا سيدي.. إنت عيشتك صعبة أوي.. ليه تقفل على نفسك وتعيش وحيد.. وإنت تتمناك ست الستات؟.. أني صحيح عيشتي صعبة برضه.. بس مش في ايدي غير كده..

– ست الستات مين اللي تتمناني؟.. اني راجل عجوز..

ردت بلهفة:

– يالهوي يا سيدي.. عجوز ايه ده انت في عز شبابك..

ظل ينظر إليها مبتسمًا لفترة، ثم قال لها في هدوء:

– تتجوزيني يا «نرجس»؟..

قامت من مكانها فزعة وغطت وجهها بيدها وهي تضحك بخجل.

– يا لهوي يا سيدي.. هو اكمنّي بقولك تتجوز تقوم تتمسخر بيا كده؟..

– اني مش بتمسخر يا «نرجس».. اني حقيقي عايز اتجوزك..

نظرت إليه بجدية وقالت:

– حقيقي ايه يا سيدي؟.. تتجوزني اني؟..

– ايوة.. اتجوزك انتي..

ظلت تنظر إليه لفترة ثم نظرت إلى الأرض وظلت تدور في

المندرة وهي مطرقة وعيناه تتابعانها.

– لا يا سيدي.. لأ.. اني مرضاش..

نظر إليها مصدومًا، فاستكملت قائلة:

– مرضاش يا سيدي ابقى سبب نهش الناس فيك. انت أسرتني بأدبك وعطفك وحنانك.. بس اني خدامتك.. انت شيخ البلد.. نسيب العمدة.. الناس تقول ايه؟..

– اني مش يهمني حد غيرك يا «نرجس».

قالها، ثم ارتعش صوته وهو يقول:

– اني بحبك.

أطرقت ثانية للحظات ثم نظرت إليه والدموع تسيل من عينيها، وهتفت قائلة:

– مقدرش يا سيدي مقدرش.. اللي بتقوله ده أكبر مني.. اني مقدرش..

قالتها وخرجت من المندرة مسرعة، فتبعها حتى ناصية الشارع، ورآها تجري مبتعدة وهي تبكي، فظل واقفا في مكانه عاجزًا عن الإتيان بأي فعل.

***

مرّ ما بقي من اليوم بـ«سليم» وهو شارد الذهن، يعصف به ذهول عارم بسبب رفض «نرجس» غير المتوقع للزواج منه. حتى أسدل الليل أستاره على الكون وغطت بيوت القرية في نوم عميق، وهو لا يزال وحيدًا يجوب صحن بيته جيئة وذهابا وقد جفاه النوم تماما. وبعد فترة من التفكير والحركة، شعر بروحه تهتاج، وجسده يفور.

ثم فجأة وكأنما قد ذهب عقله تماما، فتح باب منزله وخرج. سار في الطرقات الخالية وحيدًا يقصد بيت «نرجس». لا يفكر فيما سيقوله لها عندما يراها، ولا فيما قد يقوله الناس إذا رأوه متوجهًا في مثل هذا الوقت المتأخر إلى بيتها.

«مش يهمني الناس يا «نرجس» انتي الناس.. انتي كل الناس»..

قالها في نفسه وهو يجد السير.

وصل إلى دارها البسيطة فوقف للحظة، ثم طرق الباب بلهفة. حتى أتاه صوتها من خلف الباب خافتا:

- مين؟..

- أني «سليم» يا «نرجس».. «سليم»..

واربت الباب وأطلت منه. كان شعرها الناعم منسابا على كتفيها وعلى رأسها طرحة بيضاء منسدلة تحاول أن تداري بها شعرها.

رأته واقفا محتقن الوجه يتنفس بصعوبة ولا يدري ما يقول، فشخصت ببصرها إلى وجهه وعلى شفتيها ابتسامة انتصار.

– أني بحبك يا «نرجس».. بحبك..

قالها بصعوبة واستند على الحائط المجاور للباب وساقاه تكادان تتخليان عنه، وتتركانه ليسقط راكعًا أمامها.

أمسكت يده المرتجفة بيدها الدافئة، وقادته إلى الداخل، ثم أغلقت الباب.

سارت به حتى أجلسته على كرسي بسيط واستدارت تصب سائلا من زجاجة في كوب.

ظل ينظر حوله في كل شبر من المنزل البسيط وكأنه صار في دنيا غير الدنيا. كان البيت مضاءً بلون برتقالي هادئ يخرج من «لمبة جاز»، والجو يعبق برائحة غريبة. غريبة لكنها ساحرة، حملت روحه وطارت بها في الآفاق.

قربت الكوب من فمه وسقته، كان ماءً له رائحة عطرة ومذاق مميز.

– ماورد..

قالتها بهدوء وهي تنظر إليه وهو لا يزال مبهور الأنفاس.

– نتجوز يا «نرجس».. اني مش عايز من الدنيا غيرك..

جلست أمامه على ركبتيها وقبّلت يديه بحنان، ثم قالت في هدوء:

– نتجوز يا سيدي.. نتجوز يا نور عيني.

***

في اليوم التالي، في المسجد وبعدما انتهى الإمام من صلاة العصر مباشرة، انتقل الحاج «سليم» من مكانه في الصف الأول خلف الإمام وجلس إلى جواره، فصارت صفوف المصلين في مواجهته. أخذ نفسا عميقا، ثم ألقى قنبلته في وجوه الحاضرين. أخبرهم بهدوئه المعتاد وابتسامته الودود أنه قرر أن يتزوج.. «نرجس»، ليس هذا فحسب وإنما هناك حفل زفاف بسيط بمندرة داره بعد أسبوعين من الآن، والدعوة عامة وعلى الجميع الحضور.

خيّم الصمت التام على الجميع.

الحاج «سليم»!!.. شيخ البلد.. نسيب العمدة.. سيتزوج من «نرجس»؟!!. «نرجس» التي ظهرت في القرية ذات يوم مع جدها وهي لا تزال طفلة لا يعرف أحد عنهما شيئًا!.. «نرجس» أرملة «أحمد أبو محيسن» الشاب الفاسد الذي قُتل في حادث وتعيش

وحدها في «عشة» على أطراف القرية؟.

ألا يخشى غضبة العمدة أخو زوجته المتوفاة؟.. ألا يخشى على مكانته عند الناس؟.. هو الحليم الرشيد الذي يحبه ويحترمه الصغير والكبير؟

هل ماتت نساء وبنات العائلات الكبيرة بالقرية والقرى المجاورة ليتزوج تلك البائسة التي لا حسب لها ولا نسب؟.. ماذا أصاب عقلك الراجح يا حاج «سليم»؟!

«سحرت له».

انتشرت الكلمة كالنار في الهشيم بين بيوت القرية؛ إذ ليس من منطق آخر في الآمر. لابد أن الحاج «سليم» مسحور. «نرجس» تلك الشيطانة ذهبت لشخص يسخّر الجان وصنعت للحاج «سليم» عملًا سفليًا يجعله يحبها، بل ويطلب منها الزواج. هي مجرد شيطانة طامعة في أملاك الحاج «سليم» ووجاهته.

حتى أن بعضًا من كبار القرية اجتمعوا، وأرسلوا في طلب شيخ كبير معروف بقدرته على فك الأعمال السحرية، وأرسلوه مع الحاج «منصور» أحد أصدقاء الحاج «سليم» المقربين. فقابلا الحاج «سليم» في داره واحتال عليه صديقه «منصور» فأقنعه بأن

هذا الذي يرافقه هو شيخ مبارك يقرأ في البيوت القرآن والرقية الشرعية. فرحب «سليم» في بادئ الأمر، ولكنه ما إن فهم مبتغى الدجال ورآه يتمتم بتعاويذه وكلماته الغريبة، حتى ثار وطرده وطرد معه «منصور» شر طردة، فازداد اقتناع الناس بأنه مسحور بعمل سحري «باتع» لا فكاك منه!.

أما صديقه «نجيب»، أخو «فوزية» وأخو العمدة الحالي، فقد زاره أيضا. وتحدث معه كثيرا، فألان له الكلام مرة. وهدده مرة. ثم ذكّره بـ«فوزية» وصداقة العمر مرات، إلا أن رد «سليم» كان واحدا لا يتغير، هو اختار «نرجس»، وعلى من يحبه أن يحترم اختياراته.

وظلا على تلك الحال لعدة ساعات حتى غادره «نجيب» غاضبًا، وفي نفسه ما يشي بقطيعة تطول بينهما.

أما عن «نرجس» فقد كانت تطير هذه الأيام سعادة. كانت مع صديقاتها القليلات يشترين كل ما يلزم الزفاف وتجهيز الدار واحتياجات العروس، من ملابس فخمة وأدوات للزينة ومشغولات ذهبية وقمصان حريرية وغير ذلك. كن يشترين الأغلى والأجمل من كل شيء مستظلات بالميزانية المفتوحة التي كفلها الحاج «سليم» لها.

وأمام إصرار الحاج «سليم» حضر بعض من أهل القرية حفل الزفاف، بينما قاطعه أغلب أبناء العائلات الكبيرة بالقرية؛ أولئك الذين اعتبروا ما فعله «سليم» جنونا صريحا وضربا لكل أعراف القرية بالحائط، وتقليلًا لمكانة العائلات الكبيرة بين البسطاء من أهالي القرية.

أقام الحاج «سليم» يومها الولائم وأطعم الحاضرين، وأرسل للمحتاجين والفقراء – الذين منعهم تعففهم عن الحضور – الطعام حتى أبواب بيوتهم كما اعتاد. وزُفّت «نرجس» إليه في موكب فخم كما أصر، وظهرت بين النساء كأميرة من أميرات الأحلام بجمالها وحضورها وما زادته عليها ملابس الزفاف الفخمة والحلي الذهبية والزينة من بهاء.

بدأ المدعوّن في الانصراف قبيل غروب الشمس بنحو ساعة، ولم يتبقَ مع الحاج «سليم» سوى عدد من أصحابه القليلين الذين حضروا الزفاف بعد أن غلبت لديهم مكانة «سليم» على رضا أبناء العائلات الكبيرة بالقرية. فذهبوا جميعا للمسجد و صلّوا المغرب ثم وقف معهم أمام المسجد عدة دقائق ثم انصرف عنهم قاصدًا بيته.

«فليغضب من يغضب يا «نرجس».. وليقاطعني من يقاطعني.. فأنا لم أشتهِ في هذه الدنيا سواكِ».

***

-٢-

دخل الحاج «سليم» إلى بيته وأغلق الباب ثم استدار، فظن أنه دخل دارًا غير داره. كانت الزينات تملأ الدار ولمبات الجاز ذات الزجاج النقي المطلي بالألوان تضيء البيت بلون سماوي، ورائحة البخور والمعطرات تفوح في مزيجٍ يحمل الروح إلى سماوات بعيدة.

خطى الحاج «سليم» إلى صحن الدار خطوتين فانفتح باب حجرة النوم وعبرت منه «نرجس» خارجة، حتى وقفت أمامه وهي تبتسم ابتسامة واسعة.

كانت في أوج زينتها وبهائها، ترتدي قميصا حريريا فضيّ اللون، وشعرها ينسدل على كتفيها، وعلى رأسها تاج فضيّ رقيق، وفي قدميها خف بنفس لون القميص والتاج، والمشغولات الذهبية تزينها من رأسها حتى قدميها، وتعكس الضوء في عيني «سليم» الذي وقف مبهورًا، لا يجد من الكلام ما يناسب الموقف.

أي سعادة تلك التي كُتبت لقلبك بعد هذا العمر من الصبر يا

«سليم»؟ من أين أتت هذه الفتاة الجميلة كالحوريات؟.. وكيف – في شهر واحد – صارت حلالك، بعد أن كنت قد زهدت النساء، والدنيا؟.

اقتربت منه وأمسكت بيده فقبّلتها، ثم قادته إلى أريكة تحتل صحن الدار. وضعت راحتيها على كتفيه ودفعته بدلال حتى أجلسته، ثم استدارت وغابت للحظات ثم عادت وهي تحمل صينية كبيرة مغطاة بمفرش أبيض.

وضعت الصينية على المنضدة المقابلة للأريكة، ورفعت المفرش الأبيض فظهرت صحون وصوانٍ عديدة تحمل العديد والعديد من أشهى صنوف الطعام. أخذت تروح وتجيء وفي كل مرة تجلب معها عددا من الأطباق العامرة.

بعد أن انتهت من رصّ الأطباق، جلست على الأرض واستندت برأسها على الأريكة بجواره وهي تنظر إليه بحنان بالغ.

مدّ يده إليها وأخذ بيدها فأنهضها، ثم أفسح لها بجواره مكانا وأجلسها.

ظل يضع لها الطعام في فمها مرة ويأكل مرة حتى شبعا. فقامت من مجلسها وبدأت في نقل الأطباق إلى الداخل. ثم عادت بإناء وإبريق به ماءً معطّرًا فصبّت الماء عليه ليغسل يديه بعد الأكل، ثم

أعادت الإناء والإبريق إلى الداخل.

كان يتابعها بعينيه صامتًا في غدوها ورواحها مبهور الأنفاس، ورائحة عطرها مع روائح البخور والمعطرات التي يعبق بها جو المنزل تصنع في نفسه عبيرًا لم يعرفه من قبل. كان يشعر بأنه يختبر حلمًا جميلًا. فمن الصعب أن يكون ذلك كله حقيقيًا.

عادت إليه وهو جالس على الأريكة، فركعت على ركبتيها أمامه وقبّلت يديه، ثم قامت ووقفت أمامه وظلت لفترة تنظر في عينيه مباشرة دون أن يرمش لها جفن وعلى وجهها ابتسامة واسعة، وهي تتابع صدره الذي يعلو ويهبط بأنفاسه المبهورة، وعينيه التائهتين في ملكوت وجهها الفتّان.

مدّت يدها إليه وأمسكت بيديه فانهضته. حرّكته وتحركت حتى تبادلا الأماكن، فصارت الأريكة خلفها هي.

وضعت يديها على كتفيه ودفعته برفق إلى الأسفل، حتى صار راكعًا تمامًا أمامها، وهي لا تزال تنظر في عينيه بنفس الابتسامة بينما هو غائب في عبيرها كالمنوّم.

جلست على الأريكة وهو لا يزال راكعًا أمامها، ثم ببطء، مدت ظهر كفها أمام وجهه وهي تنظر إليه. كانت تدعوه صامتة لتقبيل

يدها كما فعلت معه.

كأنما استفاق فجأة من حلم جميل، شعر فجأة بالصدمة. ماذا تريد هذه الفتاة؟.. هل تريد تلك المخبولة عديمة الأدب أن يركع «شيخ البلد» أمامها ويقبّل يديها؟.. ارتج وجدانه بكل ما يحمل من موروثات وعادات وتقاليد تربى عليها، فانتفض من ركوعه واقفًا وفي عينيه نظرة نارية وصفعها على خدها.

انتفضت من مجلسها هي الأخرى وهي تضع يدها على خدها في موضع الصفعة، ونظرت إليه وقد انقلبت أنهار العسل في عينيها إلى وديانٍ من الجحيم، ثم استدارت صامتة ودخلت إلى حجرة النوم مندفعة وصفقت خلفها الباب.

ظل غاضبًا لفترة ثم عاد إلى هدوئه المعتاد، فاستغفر الله بصوت خفيض ثم جلس على الأريكة. ظل لبعض الوقت جالسًا يفكر فيما حدث. لم يندم على صفعها، وإنما حزن لما وصلت إليه الأمور بينهما بهذه السرعة، وافتقد الشعور الجميل الذي كان يشعر به منذ قليل قبل أن يحدث ما حدث.

استغفر الله في سره، ثم سار إلى باب حجرة النوم وهو ينوي أن يصالحها، ويشرح لها خطأها. مد يده وحاول فتح الباب فوجده

مغلقا من الداخل، طرق الباب كثيرا فلم ترد.

عاد إلى الأريكة خائبًا فجلس، ثم نام في مكانه.

***

استيقظ الحاج «سليم» على صوت أذان الفجر، فجلس في مكانه على الأريكة للحظات يستعيد أحداث الليلة الماضية، ثم قام فتوضأ وخرج إلى الصلاة.

عندما عاد من الصلاة توجه ناحية غرفة النوم فوجد بابها مفتوحًا. دخل فاستقبلته رائحة عطور «نرجس»، إلا أن صاحبة العطور لم تكن في الحجرة. بحث عنها في أرجاء المنزل، حتى وصل إلى الحجرة المخصصة لنوم الضيوف والتي يطلقون عليها «أوضة المسافرين» فوجد بابها مغلقا من الداخل. طرق بابها كثيرا إلا أن «نرجس» لم تفتح الباب ولم ترد.

ذهب إلى غرفة النوم وتمدد على السرير الذي لم يفقد دفأه بعد، فاستنشق عبيرها الذي لا يزال في الغرفة ونام متدثرًا بأحلامه.

عندما استيقظ في الصباح، نهض من السرير وخرج من الغرفة إلى صحن الدار. أتاه أصوات نساء زائرات يتحدثن مع «نرجس» في الغرفة المخصصة لاستقبال الضيوف من النساء؛ حيث كان

الحاج «سليم» يستقبل الضيوف من الرجال بالمندرة الملحقة بالمنزل ولها باب مستقل من الخارج.

سار الحاج «سليم» حتى صار بالقرب من باب الحجرة ووقف حيث لا يرى الجالسات بالداخل، ثم صفق بكفيه وتنحنح بصوتٍ عال فأتاه صوت «نرجس» ترد بلهفة:

- أيوة يا حاج لحظة واحدة..

خرجت إليه بسرعة. كانت في أوج زينتها وبهائها كملكة متوجة.

ما إن وقفت أمامه حتى تبدلت ملامحها ونظرت إليه بعتاب وتحدٍ دون أن تتكلم. سحبها من يدها بعيدًا وأراد أن يتكلم، فوضعت إصبعها على فمها في حزم ليسكت وقالت بصوت خفيض:

- شششش.. بعدين..

ثم عادت سريعًا إلى زائراتها المهنئات.

بدّل ثيابه وخرج إلى المندرة ليستقبل المهنئين من الرجال. قضيا اليوم على تلك الحال، هو يستقبل المهنئين من الرجال وهي تستقبل المهنئات من النساء. أمام الناس تعامله بمنتهى الأدب، وكلما اختلى بها هربت منه وجفته.

في المساء، عندما عاد من صلاة العشاء، وجدها قد عادت إلى حجرة نوم المسافرين وأغلقت الباب من الداخل. طرق الباب كثيرًا وتحدث إليها من خلف الباب بالشدة مرة و باللين مرات، إلا أنها لم تفتح الباب ولم تستجب.

دار في صحن البيت بخطى وئيدة فوجدها قد تركت له صينية العشاء على المنضدة بجوار الأريكة، مغطاة بمفرش أبيض، فتناول لقيمات ثم دخل إلى غرفة النوم ونام.

ظلا على هذا الحال لسبع ليال. أمام الناس هي زوجته المطيعة المهذبة رهن إشارته، حتى إذا ما اختلى بها لا يجد منها سوى معاملة جافة وكلمات مقتضبة ونظرات نارية وهجران في الفراش، وهو ما جعله يتعجب من قسوتها وقدرتها على الهجر والتحول المفاجئ من منتهى التودد إلى منتهى الجفاء.

وفي الليلة السابعة لزفافهما، وبعدما عاد من صلاة العشاء وبحث عنها فوجدها كالعادة متحصنة بغرفة نوم المسافرين، ذهب إلى الأريكة وجلس يتناول عشاءه، ثم دخل إلى غرفة نومه وتمدد على السرير مهمومًا، حتى غلبه النوم فنام.

استفاق من نومه بعد فترة قلقًا. لم يكن يدري كم الساعة حينها

على وجه التحديد، كان يعرف فقط أنه لم يُرفع أذان الفجر بعد؛ لأنه لو كان قد رُفع لسمعه واستيقظ. أتاه من خارج الحجرة صوت موسيقى منخفض، واشتمّ أنفه رائحة بخور مميزة مختلطة برائحة أخرى غريبة كأنها رائحة دم، ومن باب الحجرة المفتوح لمح ضوءً سماويا قادمًا من صحن الدار محملًا بخيوط رفيعة من الدخان.

نهض من السرير بحذر وسار تجاه صحن الدار وهو يتسمّع ما يدور هناك، ثم خرج إلى صحن الدار بخطى حذرة فرأى ما احتاج لفترة حتى أستوعبه. كان الضوء السماوي ينبعث من لمبات الجاز ذات الزجاج الملوّن، والموسيقى تنبعث من الراديو القابع على منضدته العالية بركن الدار، وفي عمق صحن الدار تحت السلم الذي يصعد إلى الدور الثاني من البيت والسطح، كانت هناك مبخرتان كبيرتان يخرج منهما دخان معبّق برائحة خليط من أنواع البخور، وعلى الأرض حول المبخرتين كان هناك العديد من الدجاجات كبيرات الحجم، مذبوحات ينزفن دماءهن ويرفرفن بأجنحتهن في الرمق الأخير، وبين المبخرتين والدجاجات المذبوحات، كانت «نرجس» ترتدي قميص نوم حريري قصير ملطخ بالدم ترقص حافية القدمين ببطء وتناغم مع الموسيقى.

ظل «سليم» متسمرًا في مكانه يتابع ما يجري مسحورًا شاخص البصر لا يفهم ما يجري أمامه.

الموسيقى الهادئة، ورائحة البخور والدم، وصوت رفرفة أجنحة الدجاجات في الرمق الأخير، ورقص «نرجس».

قال بصوت خفيض سمعه هو نفسه بصعوبة:

- يا ألطاف الله!

لم يدرِ كم مرّ عليه من الوقت وهو يتابع ما يراه، لم يكن متأكدا من الأساس هل هذا الذي يراه حقيقيًا وواقعيا أم أنه لا زال نائمًا يحلم. امتدت يده بحركة تلقائية وهرشت ساقه ليتأكد من أنه لا يحلم، فشعر بالحكة وتيقن من حضور وعيه. ظل لفترة يحاول أن يتكلم، إلا أن صوته لم يخرج من حلقه، فظل واقفًا مكانه لا يحرك ساكنًا.

استطاع بعد فترة أن ينتزع الكلمات من حلقه الجاف انتزاعًا فهتف بإسمها.

إلا أنها لم ترد؛ كانت تبدو كأنها في عالم آخر تمامًا لا تشعر بما تفعله ولا بما يدور حولها.

استجمع شجاعته واقترب منها مترددًا، حتى اقترب منها واقتربت منه وهي ترقص. نظر إلى وجهها، كانت عيناها مغمضتين

وعلى ملامحها تعبير جامد كالنائمة.

ناداها ثانية فلم ترد، فأمسك بها فجأة وهزها بعنف وهو يهتف بإسمها، ففتحت عينيها فجأة ونظرت إليه بفزع. كانت عيناها حمراوين بلون الدم، ثم فقدت الوعي بين ذراعيه.

حمل جسدها البضّ بصعوبة حتى الأريكة الكبيرة بصحن الدار وساقاه تكادان تتخليان عنه من فرط الإنفعال والفزع.

مدد جسدها على الأريكة وركض فأغلق الراديو وهو يبسمل ويحوقل، ثم أحضر «قلة» الماء، فنضح الماء في وجهها، إلا أنها لم تستفق. بلل يديه وركع بجوارها وأخذ يدلّك جبهتها وخديها ويهتف باسمها.

فتحت عينيها بعد فترة بصعوبة، ثم نظرت إليه بفزع و انتفضت جالسة منكمشة حول نفسها وهي تدور بعينيها في صحن الدار، ثم لطمت وجهها برعب وهي تهتف:

- يا لهوي.. يا لهوي..

كان ذلك كله أكبر من قدرة الشيخ الوقور على الاحتمال، فقال لها وهو يكاد يبكي من فرط الإنفعال:

- فيه ايه يا «نرجس»؟.. ايه اللى جرى؟..

– مش انا يا اخويا والنبي.. ده همّا يا اخويا.. همّا..

– همّا مين يا بِت؟..

– أسيادنا يا اخويا أسيادنا..

– أسياد مين يا مهفوفة انتي؟..

– لهوييي.. بسم الله الرحمن الرحيييم.. مش عايزين يفوتوني في حالييي..

قالتها، ثم انخرطت في البكاء والعويل.

استنشق «سليم» الهواء بصعوبة ثم قام وجلس بجوارها واحتضنها وظل يهدأ من روعها حتى هدأت قليلا.

– احكيلي يا «نرجس».. فيه ايه؟

مسحت دموعها بكفيها وقالت وهي لا تزال متكورة على نفسها بين ذراعيه:

– أنا خايفة يا سيدي..

– مش تخافي يا «نرجس».. احكي لي.. ليه عملتي كده؟..

– مش بخاطري.. غصب عني..

– طب احكي لي.. ازاي غصب عنك؟..

نظرت إليه باستجداء.

– ما انا لو حكيتلك هترميني في الشارع.. واني بحبك.

– ارميكي ايه يا بت؟.. انا مش اقدر اعيش من غيرك.. احكي ومش تخافي..

نظرت إليه في شك، ثم بدأت تتكلم بصوت خفيض مرتجف.

حكت له انها في فترة طفولتها، كانت تعيش طفولة سعيدة في كنف أبيها وأمها وجدها لأمها حين انقلب حال أسرتها فجأة؛ عندما بدأت نوبات غريبة تصيب أمها، إذ صارت تضحك فجأة، وتبكي فجأة، وتقوم من نومها فزعة تصرخ؛ كانت ترى كوابيس كثيرة يزورها فيها شابٌ غريب المظهر لا تعرفه يخبرها أنها له، ويهددها إذا لم تستجب.

تطورت الأمور بعد ذلك حتى صارت أمها تفقد الوعي بلا سبب ظاهر، فتدخل في نوبات إغماء، تزوم خلالها وتتكلم بصوت غريب بكلمات غير مفهومة.

ذهبت إلى أحد الشيوخ «المبروكين» فتمتم كثيرًا، وأحرق الكثير من البخور، ثم أخبرها أن هناك «جنيّا» يعشقها.

ارتدت أمها الأحجبة التي صنعها الشيخ من أجلها، و انخرطت في مراسم «الزار»، و شربت منقوع العديد من الأزهار الغريبة،

وأكلت ثمرات نيئة مكتوبًا عليها تعاويذ ورموزًا، إلا أن حالتها لم تتحسن، بل ساءت.

بعد ذلك مرض أبو «نرجس» الشاب فجأة، ثم مات بعد أسبوعين دون مرض معروف أو ظاهر. بوفاة أبيها ساءت حالة أمها أكثر.

حكت «نرجس» أنها لا زالت تتذكر تلك التغيرات التي طرأت على امها في منزلهم الريفي البسيط في قريتهم البعيدة. نظراتها التي صارت تائهة أحيانًا ومرعبة أحيانًا أخرى. ضمورها وانعزالها. رائحة بيتهم الذي صار مهملًا. وصوت جدها العاجز عن المساعدة وهو يتلو القرآن ويدعو.

حتى كانت تلك الليلة التي استيقظت فيها أمها مساءً تصرخ صراخًا مريعًا، فهرع إليها الجد وحاول تهدئتها. فلما هدأت قليلًا حكت له بنرات متقطعة أن هذا الشاب الذي يزورها في المنام زارها بهيئته الحقيقية في صورة جنّي، وتوعدها أنها لن تهنأ أبدًا لأنها من داخلها ترفضه، وتوعدها كذلك بأن ترث ابنتها الوحيدة اضطرابها وعذابها من بعدها.

صباح اليوم التالي لهذا الكابوس، اختفت أمها. اختفت تمامًا

كأنها قد ذابت. أصطحب الجد «نرجس» فسأل الجيران عن أمها، وطرق أبواب القرية والقرى المجاورة، إلا أنه لم يبدُ لأمها أي أثر.

ظلا على هذه الحال لشهور حتى يأس الجد من العثور على ابنته، فانكفأ على حزنه لعدة أيام، ثم أيقظ «نرجس» من نومها في إحدى الليالي وخرج بها من البيت في جنح الظلام. كانت هناك عربة «كارو» تنتظر بالخارج حاملةً بعضًا من أثاث بيتهم البسيط، وبعضًا من ملابسهما وكتب الجد.

أجلسها جدها على العربة وركب جوار السائق، وعندما سألته عن وجهتهما، أخبرها أنهما سيتركان القرية للأبد.

كره جدها المنزل القديم، وذكرياته فيه، ونظرات الجيران المتهمة. وخاف على مصير «نرجس» التي يوما ما ستصير عروسًا، يهرب الشبان منها لسيرة أمها الغامضة.

سارت العربة بهما لفترة حتى وصلت إلى تلك القرية، قرية الحاج «سليم»، فأقاما في العشة التي على أطراف البلدة، بينما اجتهد جدها قدر استطاعته في أي عمل يتاح له؛ حتى يضمن لنفسه وحفيدته لقيمات يومية تقيم أودهما، وصار يقضي ما تبقى من يومه في تعليم «نرجس» والقراءة لها من كتبه.

عندما صارت «نرجس» فتاة بالغة، بدأت تزورها نوبات غريبة هي الأخرى، تشبه تلك التي كانت تزور أمها، فلم يستطع جدها أن يتحمل رؤيتها تقاسي نفس مصير أمها المجهول، فأصابه المرض، واضطر لتزويجها لأول شاب يطلبها؛ حتى يطمئن أنها في معيّة رجل. ولم يكد يمر إلا زمن قليل منذ زواجها من ذلك الشاب «أحمد أبو محيسن»، حتى توفى جدها.

عند هذا الحد من الحكاية، صمتت «نرجس» قليلًا ثم اعتدلت في جلستها ونظرت إليه باستعطاف.

– شوفت بقى يا سيدي انه كان غصب عني؟

كان رأس «سليم» يرتج ككرة في يد طفل يلعب بها و يرجرجها. حكاية «نرجس» العجيبة، صوتها الخافت وثوبها القصير الملطخ بدم الدجاجات، رائحة عطرها النفّاذ، وروائح البخور والدم، والضوء السماوي.

شعر «سليم» بجسده يفور.

نظر إليها فوجدها تنظر إليه بعينيها الواسعتين دون أن يرمش لها جفن تترقب ردة فعله. كان يشعر بخوف منها، بينما يشتهيها بشدة في الوقت ذاته. مزيج غريب من الأحاسيس كان يعصف به.

قامت من مكانها فجأة وجذبته ليقف وهي تقول في لهفة:

– يعني مثلا انت تصدق يا سيدي.. اني اعمل حاجة تزعلك؟.. تصدق اني اعمل كده؟.. هاه تصدق؟..

كانت تقول ذلك وهي تدفعه بقوة من كتفيه للأسفل حتى صار راكعًا أمامها.

– تصدق إني أعمل كده؟..

قالتها ومدت يدها أمام وجهه ليقبلها.

ظل في مكانه للحظات وظهر كفها أمام وجهه. رفع وجهه فالتقت عيناه بعينيها الآسرتين.

«نرجس» أمامك يا «سليم»، «نرجس» بين يديك، تلك الجميلة البهية الشهية التي أغضبت الجميع لتنال رضاها، «نرجس»!..

أدرك أنه قد صار تحت تأثيرها تماما، فأمسك بكلتا يديها بلهفة وأخذ يقبلهما بنهم، ثم قام من ركوعه واحتضنها.

أبعدته عنها برقة، ونظرت في عينيه وهي تبتسم وتمسح بكفها المفتوحة على رأسه، ثم سحبته من يده ودخلت به إلى حجرة النوم وأغلقت الباب. وما حدث بعد ذلك داخل الحجرة جعله يتأكد من كونها مسحورة، ويدرك أنه سيظل أسيرًا لهذا السحر إلى الأبد.

-٣-

«مبروك يا حج.. الست حِبلى»..

قالت «الداية» تلك الجملة لـ «سليم» الواقف بصحن الدار قلقًا يبتغي الإطمئنان على «نرجس» التي ظهرت عليها أعراض الحمل مؤخرًا، ثم أطلقت زغرودة عالية، تبعتها عدة زغاريد من الفتيات والخادمات بالمنزل.

ظل «سليم» ينظر إلى الداية لفترة مأخوذًا بما قالت.

- حِبلى؟..

- أيوة يا حج.. ربنا يتمم لها على خير.

ابتسم «سليم» ابتسامة واسعة ومد يده في جيبه فنفحها مبلغًا محترمًا من المال، ثم نادى على إحدى الخادمات وأمرها أن تأخذ «الداية» إلى داخل المنزل لتأخذ ما شاءت من الطعام والمؤن.

- ده كتير والله يا حج.. خيرك سابق..

- مش في حاجة كتير على الخبر الحلو ده يا وش السعد..

فما أن استدارت «الداية» مع الخادمة باتجاه المطبخ وغرفة

الكرار، حتى هرع «سليم» إلى غرفة النوم حيث كانت «نرجس» تتمدد على السرير وحولها بعض الخادمات والجارات. فما أن دخل «سليم» حتى انسحبت الخادمات وظلت الجارات لفترة يهنئن «سليم» و«نرجس» قبل أن ينسحبن هن الأخريات. فلما خلت عليهما الحجرة، هرع إلى باب الحجرة فأغلقه، ثم عاد إليها.

كانت تنظر إليه وتبتسم ابتسامة واسعة. جلس جوارها على السرير واحتضنها وقبل يديها بنهم، فمسحت على رأسه بكفها المفتوحة.

- مبسوط يا حج؟..

- إلا مبسوط.. ده اني هموت مـ الفرحة.. ألف بركة يا نور عيني..

اتسعت ابتسامتها و ربتت على رأسه ثانية.

كان «سليم» خلال تلك الفترة القصيرة التي امتدت لثلاثة أشهر منذ زواجه من «نرجس»، قد أدرك - تمام الإدراك - أن لشخصية زوجته بعدًا آخر لم يدركه من قبل؛ فهي ليست تلك الفتاة الخجول مهيضة الجناح طوال الوقت، وإنما لديها من القوة الشخصية والثبات النفسي ما يجعلها تفرض إرادتها، بل وتتجاهل مشاعرها نفسها لو كانت ستتسبب في خضوعها لأحد حتى لو كان زوجها

نفسه. اعتاد كذلك نوباتها الغريبة، وتقلبها المفاجئ من الفرح إلى الحزن والعكس، وحديثها أثناء استغراقها التام في النوم بأصوات خشنة، و ضحكها المفاجئ وبكائها، وغير ذلك من أعراض سيطرة «الأسياد» عليها.

أما من طرفها، فقد استغلت «نرجس» تعاطف «سليم» معها المختلط بالخوف منها أفضل استغلال، فبسطت سيطرتها عليه رويدًا رويدًا، حتى تملكت قلبه وعقله تمامًا، فصار لا يتخذ قرارًا حتى يشاورها، ولا يرتاح باله حتى يرى نظرة الرضا في عينيها.

استغلّـت فيما تلى ذلك أيضا فرحته بحملها، وانتظاره ليرى عوض الله له بأطفاله منها، لتحكم سيطرتها على حياته أكثر فأكثر، وساعدها على ذلك زهده الكبير فيما في الحياة سواها، فصارت سيدة حياته، وعلّمته أن يخلع عنه كبرياءه على عتبتها.

من ناحية أخرى، فقد تأكدت – مع الوقت – عند أهل القرية فكرة تعامل «نرجس» بالسحر، بل ذهب بعضهم إلى أنها إبنة «عفاريت». فمن ظهورها وهي طفلة مع جدها فجأة في القرية ذات صباح، إلى سلبها لعقل الحاج «سليم» في أيام ودفعه للزواج منها وتحدى الجميع من أجلها، إلى سيطرتها التامة عليه والتي سرعان

ما صارت واضحة للجميع، فكيف إذًا لفتاة فقيرة مجهولة أن تصل إلى كل هذا إن لم تستخدم السحر، أو أن تكون «إبنة عفاريت»؟.

حتى أن كثيرًا من فتيات القرية أصبحن يأبين العمل ببيت «سليم» خوفًا من «نرجس» و غرابة أطوارها، وتقلباتها الغريبة؛ فقد كانت تغدق عليهن مرات، وتطردهن مرات، تضحك وتبش لهن في بعض الأوقات، ثم تغضب وتثور وتوبخهن فجأة. تأمرهن بالأمر ثم تنسى تماما وتوبخهن على تنفيذه. كانت تعاملهن بطريقة متقلبة جدًا، حتى أن بعضهن أقسمن أن حتى ملامحها تتغير، ما بين أوقات الفرح والغضب، فمن حورية جميلة عند الرضا، إلى شيطان مريد عند الغضب؛ كما أن غضبتها لا تبقي ولا تذر، ولا يستطيع حتى أشجع الشجعان أن يواجهها.

الغريب أن «سليم» نفسه، الذي يعيش معها ويعرف سرها، ويعرف تماما صحة كل تلك الأقاويل التي تربط بين «نرجس» و«الأسياد»، كان لا يزداد في علاقته بها إلا حبًا لها وتعلقًا بها. إذ سرعان ما خلع عنه خوفه وتردده في الإستمرار معها، وانغمس في تفاصيلها تمامًا، خصوصا بعد نبأ حملها، فصار أكثر تفاؤلًا وإقبالًا على الحياة، وأكثر تأقلمًا مع حياة «نرجس» غريبة الأطوار تلك،

حتى صار يدور في فلكها، ويمتلئ بها تمامًا.

وفي ليلة هادئة من الشهر التاسع لحمل «نرجس»، وبعد أن رأى «سليم» خلال فترة حملها العجب العجاب من نوباتها التي كانت تزداد تكرارا وغرابة، وبعد أن أخلد كل من «سليم» و«نرجس» إلى النوم، استيقظ «سليم» من نومه قلقًا على صوت أنين «نرجس» و زومها. اعتقد في بادئ الأمر أنها نوبة من نوباتها، إلا أن أنينها ازداد وتشبثت فجأة بذراعه وصرخت:

- بايني باولد يا سلييييم..

انتفض «سليم» من الفراش ووقف للحظات ينظر إليها ويتلفت حوله لا يدري ما ينبغي عليه فعله، فصرخت فيه ثانية، فجرى خارجا من المنزل، يدق الأبواب ويطلب المعونة.

سرعان ما احتشدت الجارات، وأُحضرت «الداية» على وجه السرعة، وتجمع الجيران من الرجال حول «سليم» بالمنزل، وساد البيت الهرج، واستبد بـ «سليم» القلق، حتى سمع صوت بكاء الطفل. ثم خرجت احدى الفتيات من داخل حجرة النوم مسرعة وهي تهتف:

- ولد يا سيدي «سليم».. ولد.

شخصت عينا «سليم» بنظرات زائغة للحظات، ثم انهمر الدمع من عينيه وخرّ ساجدًا شاكرًا لله على نعمته.

ساعده الرجال على القيام ثم احتضنوه مهنئين، وانفطرت الدموع من عيون بعض الحاضرين، خصوصا المقربين من «سليم» أولئك الذين شهدوا صبره لسنين طويلة حتى جاءه عوض الله.

تمالك «سليم» نفسه لبعض الوقت، ثم دخل إلى حجرة النوم حيث وضعت «نرجس» الطفل. كانت الفوضى تعم المكان، و«نرجس» مرهقة تمامًا، زائغة البصر. قبّل جبينها المغسول بالعرق، ثم ناولته إحدى الحاضرات الطفل ملفوفًا بعناية في عدة لفائف قماشية.

نظر «سليم» طويلًا في وجه طفله، ودموعه لا تزال تسيل على وجنتيه. كان يشعر بأنه يحتضن قطعة من قلبه، حتى أن قلبه كان يؤلمه كأنهم قد اقتطعوا الطفل من قلبه للتوّ. ظل كذلك لفترة، ثم همس للطفل قائلا:

– نوّرت الدنيا يا «ناصف».. يا اللي ربنا نصفني بيك وراضاني بعد صبر السنين.

***

بقدوم «ناصف» إلى الدنيا، أفرد له أبوه جزءً من يومه لا يتركه فيه مهما كانت الأسباب. رغم ضيق وقته مقارنة بوقت «نرجس» التي تظل مع «ناصف» طوال اليوم. كان «سليم» في تلك الفترة من اليوم يجلس متربعًا على الأريكة بصحن الدار محتضنًا «ناصف» الرضيع بين ذراعيه المتشابكتين فيظل ينظر إلى وجهه بالساعات، وعلى وجهه ابتسامة رضا.

كان يرقيه، ويقرأ له القرآن، ويتحدث إليه كثيرًا. فيحكي له ما مرّ به من حياته، وما يشغله من الأمور الحالية، والرضيع في لفائفه لا يفهم مما يحدثه به أبوه شيئًا، إذ يكتفي بالتمطّي وفتح عينيه وإغلاقهما، والتثاؤب والنوم أحيانًا. إلا أن هذه الحركات الصغيرة كانت ترضي «سليم» تمامًا؛ إذ كان يرى كل حركة طبيعية بسيطة من طفله وكأنها اكتشاف جديد.

بمرور الوقت بدأ «ناصف» في النمو. فباتت ملامحه الوسيمة التي ورثها عن أبيه واضحة، كذلك عيني أمه عسلية اللون ذات النظرات القوية. بدأ في الزحف، ثم المشي رويدا رويدا، ثم بدأ في نطق بعض الكلمات. إلا أنه كان قليل الكلام، زاهدًا في محاولة نطق الكلمات من الأساس؛ مما أقلق والديه في البداية على قدرته

المستقبلية على الكلام بشكل سليم. إلا أنهما بمرور الوقت بدءا يطمئنان عليه ويقتنعان بأن قلة كلامه ناتجة عن طبعه الهادئ الصموت، لا عجزًا عن الكلام.

كان «ناصف» هادئًا، يميل للسلام والعزلة، يقضي الكثير من الوقت منعزلًا في أحد أركان الدار، مستغرقًا تمامًا في ميله الكبير للإستكشاف؛ إذ كان يحاول استكشاف كنه كل ما يدور حوله، فيتحسس الحوائط والأبواب، ويتابع الدجاجات أثناء تجولها في الدار، ويقضي في ذلك الكثير من الوقت دون ملل.

طبعه الهادئ المسالم هذا أوعز للجميع بأن «ناصف» لم يرث من والده ملامحه فقط، وإنما ورث معها طباعه الهادئة الزاهدة المحبة للسلام والتأمل، وكان هذا يطرب قلب «سليم» جدًا، بينما لا يعجب «نرجس» في الوقت ذاته.

فبينما كانت هي تحب طاعة «ناصف» لها وتعلقه بها كما يتعلق بها أبوه نفسه، إلا أنها لم تكن تحب طبعه المسالم هذا؛ إذ كانت تريده أن يشب قويًا مسيطرًا يملك قلبه في يده. لا يتحرك وفقًا لعاطفته كأبيه. فقررت في نفسها أنها لن تتركه يشب على حاله تلك، وانتظرت فقط حتى يكبر قليلا ويبدأ في استيعاب الأمور.

بحكم انشغال والده وتواجده خارج المنزل معظم أوقات اليوم، كان «ناصف» يقضي أغلب اليوم مع أمه غريبة الأطوار، تلك التي كان يحبها جدًا ويخشاها ويصعب عليه فهمها في الوقت ذاته. إذ كانت تهدهده وتغدق عليه من حنانها عندما يطيعها، وتتجهم في وجهه وتعنفّه أحيانا، قبل حتى أن يفهم أسباب تعنيفها له.

مع مرور الوقت واستوائه كصبي يدرك ويفهم ويتحرك ويتكلم بصورة طيبة، بدأت أمه مخططها. فصارت دائمة التهكم على طيبته. تسخر أمامه من ميله للاستسلام وتدفعه للتصرف بشراسة أكبر. حتى أنها طلبت منه - ذات مرة - أن يحضر مراسم ذبح الطيور، ففزع وارتجف عندما رأى الدماء تتفجر وأجساد الطيور ترفرف بلا حيلة، فترك المكان جريًا، تشيعه شتائم أمه واتهاماتها له بالجبن والميوعة.

لذلك فعلى الرغم من حبه الجارف لأمه وتعلقه بها كان «ناصف» يرتاح أكثر للتعامل مع أبيه ويفضل الوقت الذي يقضيه معه على الوقت الذي يقضيه مع أمه؛ إذ كان يشعر معه بالاطمئنان. حتى الحكايات، كان يحب حكايات أبيه التي يحكيها له عن صحابة النبي، وعن الزاهدين، وحكايات الخير والمحبة، أكثر

من الحكايات التي تحكيها له أمه، عن الفرسان المغاوير، وأرباب السيوف وحكايات الإنتقام، والجن والعفاريت!!.

فارق السن الكبير كذلك بين «ناصف» وأبيه، جعل من أبيه أبًا له و جدًا في نفس الوقت. أبًا حنونًا لا يسأم و جدًا يغدق بغير حساب. كذلك فاحساس «سليم» الكبير بالخوف من الموت وترك طفله يتيمًا وحيدًا كان يدفعه للإفراط في تدليله، وعدم الحزم معه، ذلك الحزم الذي كانت تعامله به أمه ولا تقصر فيه أبدًا، بل تتطرف فيه كثيرًا.

مع الوقت أيضًا وعلى الرغم من استمرار حبه الكبير لـ «نرجس»، تعلم «سليم» أن يعاملها بطريقة بها بعض الوسطية، فبدلًا من الولاء الكامل لآرائها وبحثه الدؤوب عما يرضيها، بدأ يفعل ما يراه صوابًا مع إيهامها بأنها المسيطرة والمتحكمة في الأمور. تعلم أيضًا أن يتجنبها في لحظات جنونها وتسلط «الأسياد» عليها. إلا أنه وعلى الرغم من هذه المعاملة لم يضمن لنفسه السلامة الكاملة من الإصابة ببعض شظايا غضبها وتقلباتها العاصفة كل فترة.

***

اقتصر تعامل «ناصف» مع البشر منذ ولادته وحتى بداية صباه

على دائرة المعارف الضيقة جدا، من العاملات بالمنزل والزوار والأقـارب وقليل من الجيران، فعلى الرغم من دائرة معارف «سليم» الواسعة، إلا أن أغلب الأقارب والجيران كانوا يتحاشون التعامل مع «نرجس» لغرابة أطوارها وصعوبة طباعها.

حتى بعد خروج «ناصف» لـ «كُتاب» القرية لحفظ القرآن، وبعد التحاقه بالمدرسة الابتدائية بالقرية القريبة من قريتهم، كان يقتصر خروجه على ما خرج إليه، فلا يختلط ولا يتعامل مع أحد، يخرج في ميعاده، وما أن ينهي ما خرج له حتى يعود أدراجه للبيت سريعًا، دون حتى أن يتلفت.

إلا أنه بعد فترة من الشد والجذب نجح «سليم» في انتزاع «ناصف» من سيطرة أمه الدائمة واقنعها بتركه ليلعب مع أقرانه من أبناء الجيران بالساحات القريبة من المنزل بالقرية.

لم يكن خروج «ناصف» للعب مع أقرانه من التجارب المحببة إليه، فأغلب الصبيان بالقرية كانوا شديدي الشراسة، يميلون للصخب والضوضاء والمشاغبة، بينما هو وديع يميل للسلام والهدوء، وما زاد الأمور تعقيدًا أن الكثير من الصبية كانوا يتحاشونه، خوفًا من سيرة أمه الساحرة «ابنة العفاريت» كما كان

يتردد في القرية.

إلا أن كل ذلك لم يمنع من وجود صديقين مقربين لـ «ناصف» من أبناء القرية، كانا يميلان للتهذيب والوداعة مثله، مثّل هذان الصديقان حلقة وصل بين «ناصف» وعالم الصبيان الأشقياء الآخرين بالقرية.

وكما صار لـ «ناصف» صديقين ودودين، صار له عدوًا لدودًا. شيطان مريد على هيئة طفل يسمى «فرحات». كان «فرحات» هذا أشد أطفال القرية شراسة وحبًا للمشاغبة. لا يكف عن الصخب والأذى منذ طلوع الشمس وحتى غروبها. فدائما ما يتواجد في شوارع القرية حاف القدمين، متسخ الثياب، يضع طرف جلبابه بين أسنانه ويعيث في الأرض فسادًا.

وجد «فرحات» في «ناصف» فريسة سهلة لاستعراض طاقته من الشيطنة، «ناصف» الهادئ الوديع الذي تظهر عليه معالم النعمة وتفوح منه رائحة النظافة؛ على النقيض منه.

فكان يدبر لـ «ناصف» المقلب تلو المقلب، فمرة يضربه ويتعمد تلويث ثيابه النظيفة بالقاذورات، ومرة يخيفه بالدبابير والضفادع والحشرات التي يصطادها. وكلما فزع «ناصف» أو

بكى ازداد هو فرحة وانتشاء.

لدرجة أنه كان يثير الخوف في نفوس الأطفال الآخرين من «ناصف» ليصرفهم من حوله. فيشيع بينهم ما يعرفه من كلام الكبار عن سيرة «نرجس» وعلاقتها بالسحر، ويضيف على ذلك من خياله الطفولي، فيخبرهم أن أم «ناصف» شيطانة تتمثل شكل إمرأة، وأن أقاربها من العفاريت يزورونها باستمرار في بيتها، فيقيمون الحفلات الماجنة الراقصة. كما أنها تذهب إليهم في بلادهم الموجودة تحت قاع «الترعة الكبيرة» التي تمر من أمام القرية فتقيم معهم لفترات. بل إنه شطح بخياله حتى أنه صار يخبرهم بأن «ناصف» نفسه ما هو إلا عفريت صغير يتشبه في صورة طفل، حتى انفض الأطفال أكثر من حول «ناصف» وازدادوا عنه ابتعادًا.

حتى صديقيه الودودين صارا يخافانه ويتجنبانه من بعد ما سمعوه عنه من «فرحات». مما آلم «ناصف» أشد الألم وجعله يزداد زهدًا في الخروج للعب.

وصلت العداوة بين «ناصف» و«فرحات» للذروة، في ذلك اليوم الذي تخطّى فيه «فرحات» كل حد، عندما كمن لـ «ناصف» في طريق عودته للدار، حتى صار «ناصف» على بعد خطوات من

باب الدار، فانقض عليه «فرحات» وصفعه صفعة عاتية على قفاه، ثم وقف أمامه يضحك ساخرًا وهو يتراقص ويدور حول نفسه. تصادف ذلك مع وقوف «نرجس» أمام باب البيت فشاهدت ما حدث.

قام «ناصف» الذي سقط على الأرض من وقع المفاجأة، وارتبك بشدة عندما تلاقت عيناه بعيني أمه الغاضبتين، مشت أمه تجاهه و أمسكته من يده وصرخت فيه:

- اضربه يا وله زي ما ضربك..

و«فرحات» يرقص ويستفز «ناصف» أكثر وأكثر.

زادت صرخات أم «ناصف»، وبدأت تسبه هي الأخرى لتدفعه لرد اعتباره، مما زاد من ضحكات «فرحات».

- هاقول ايه للناس؟.. ابني اللي طلعت بيه مـ الدنيا طلع (***)؟!!.. اضربه يا وله زي ما ضربك..

تحت ضغط صرخات أمه ونهرها له واستفزاز «فرحات»، حمل «ناصف» حجرًا من على الأرض وباغت «فرحات» وهو يدور حول نفسه وضربه بالحجر على رأسه، ثم وقف ذاهلًا يرتجف، فلما رأى الدماء تتفجر من رأس «فرحات»، والفزع يكسو وجهه،

ألقى الحجر من يده، وسقط مغشيًا عليه.

***

لمّا أفاق «ناصف» وجد نفسه في حضن أمه على الأريكة بصحن الدار، وهي تمسح بالماء وجهه، وما هي إلا دقائق حتى دفع أبوه الباب الخارجي ودخل إلى الدار وإمارات الغضب الشديد تظهر على وجهه.

وقف أبوه أمامهما وأشار بطرف عصاه تجاه أمه موجهًا حديثه إليها في غضب:

– بقى اسمعي يا ست،.. أني كبير البلد دي لا بكـُتر مال ولا كـُتر طين، أني كبير البلد دي بالأصول والأدب، مرة تانية يتكرر منك أو من ابنك الكلام الفارغ ده والناس تنضر من تحت راسكم، مش هيحصلك طيب.

ثم وجه حديثه إلى «ناصف» غاضبًا:

– تعالى يا «ناصف».. أني عاوزك.

نظر «ناصف» إلى أبيه فزعًا وازداد التصاقا بأمه التي كانت لا تزال مذهولة هي الأخرى لغضبة أبيه العاتية، فكرر أبوه النداء بصوت أعلى وأكثر غضبا:

- تعالى يا وله مش تخاف قُلت.

قام «ناصف» من جوار أمه مترنحًا وأقترب من ابيه، فأمسك أبوه بكفه وخرج به من الدار.

***

أثناء سير «ناصف» مع أبيه، لم يدر بينهما أي حديث، حتى وصلا إلى الحقل، فمر أبوه مصطحبًا إياه على الفلاحين، واطمئن على سير العمل، ثم انفرد به أبوه بمنطقة هادئة من الحقل وجلسا.

بدأ أبوه الكلام بهدوء يشوبه الغضب.

- ضربت «فرحات» وعورته ليه يا «ناصف»؟..

- ضربني بالقفا..

- ضربك ليه؟..

- هو دايما كده مستقصدني..

نظر أبوه إلى الأفق وتنهد ثم قال:

- مش في حاجة في الدنيا دي تستاهل العداوة يا «ناصف».. والضرب والخبط والتنطيط أخرتهم وحشة..

- ده ضربني بالقفا يابا.. ودي مش أول مرة يترصد لي، بيقعد لي في كل حتة ويرازيني..

- طب هو بيعمل كده ليه؟..

- هو وحِش..

ثم ارتجف صوت «ناصف» وهو يقول:

- أني بخاف منه..

ابتسم أبوه وضمه إليه وقال:

- مش في حاجة في الدنيا دي تخوف يا «ناصف».. الدنيا دي كلها بكل ما فيها من أرض وسما وإنس وجن بين إيدين ربنا.. فاللي مع ربنا مش يخاف أبدا..

اسمع مني.. مش في حد كله شر، كل واحد مننا فيه الخير وفيه الشر.. لازم تتعلم تشوف الخير في الناس، الجاهل يا بني بيشوف الناس بعينيه، لكن أهل الله بيشوفوا الناس بقلوبهم.

اتعلم تشوف الناس بقلبك وعاملهم بالخير، لو كانوا من أهل الخير يبقى خير وبركة، لو مكانوش من أهل الخير خليك انت من أهل الخير، أهل الخير حبايب الرحمن يا وَلَه.

تلعثم «ناصف» ثم قال خجلان:

- أني مش فاهم حاجة يابا..

- يعني مثلا.. مثلا.. «فرحات» ده انت شايفه شرّاني و مش

بتحبه.. علشان انت شايفه بعينيك.. بس لو دققت في حاله.. هتلاقيه عيّل غلبان. أبوه حداه «أورطة» عيال، وحالتهم ضنك.. الواد بيشوفك متنعـّم الشيطان بيوزّه.. قوم انت بقى تعوم على عومه وترضي الشيطان، و الا تبقى انت الكبير العاقل وتخزي الشيطان؟

القوة يبني مش في الضرب والخبط، القوة في الصبر، وإنك تكون مع ربنا وتملك نفسك..

قال أبوه ذلك، ثم ابتسم واستطرد قائلا:

- وبعدين هو ضربك قفا، إضربه يا سيدي قفا ما دام دمك حامي أوي كده، إنما تفتح له رأسه وتسيّح دمه؟!.. قوم بينا نروح ناخد بخاطره هو وأبوه.

ارتجف «ناصف» عندما قال أبوه تلك العبارة الأخيرة، وظل جالسًا في مكانه لا يتحرك. فشجعه أبوه وأمسك بيده وهو يقول:

- قوم يا وله مش تخاف.. أني معاك..

عندما وصل «ناصف» مع أبيه إلى بيت «فرحات»، وقف أبوه بجوار الباب ثم صفق بيديه وقال:

- يارب يا ساتر..

خرج أبو «فرحات» من الدار مستطلعًا الأمر، فلما رأى الحاج «سليم» بالباب تهلل وبشّ.

– يا أهلًا بحضرة شيخ البلد.. يا ألف أهلًا.. دي خطوة عزيزة والله يا حج.. ده احنا زارنا النبى النهارده.

– جايين يا سيدي نشرب معاكم الشاي.. ونِصلح سي «فرحات»..

– العفو يا حج.. «فرحات» أبنك وخدّامك.. والعيال اخوات..

أفسح أبو «فرحات» الباب للحاج «سليم» و«ناصف» وقادهما إلى داخل البيت المتواضع وهو يحاول في حرج ترتيب مجلسًا يليق بشيخ البلد وولده، إلا أن الحاج «سليم» سارع بالجلوس على حصير بسيط مفروش على الأرض وأسند ظهره إلى الحائط الرطب وأجلس «ناصف» إلى جواره.

– مش ينفع والله يا حج.. اتفضل جوه ع الكنبة..

– اني مرتاح كده... مش تشتغل بالك..

جلس أبو «فرحات» بجوارهما ونادى «فرحات» وأمر أهل بيته بإعداد الشاي.

خرج «فرحات» من الحجرة الوحيدة بالمنزل هادئا يتصنع الأدب، ورأسه ملفوف بخرقة قماشية متسخة كضمادة للجرح.

سلم على الحاج «سليم» ثم سلم على «ناصف» وتعمد الضغط على كفه ليوجعه. أجفل «ناصف» لجزء من الثانية ثم بادله بضغطة قوية على كفه هو الآخر ونظر إليه بتحفز.

ابتسم حينها «فرحات» ابتسامة واسعة كاشفًا عن صفّي أسنان مضحكين تساقط منهما أغلب الأسنان وفتك التسوس بما تبقى منهم، ثم جلس بجوار «ناصف» هادئًا.

تلك الإبتسامة – وأجواء البيت المتواضعة – جعلت «ناصف» يعتقد أن أباه كان محقًا؛ ربما لم يكن «فرحات» بهذا السوء الذي كان يعتقده. ربما كان مسكينًا يستحق الشفقة.

بعد خروجهما من بيت «فرحات» وأثناء عودتهما إلى الدار، كان «سليم» يفكر في أنه يجب أن يُبقي «ناصف» معه لفترات أطول، بدلًا من مكوثه طوال الوقت مع أمه المخبولة «نرجس»!..

فضغط برفق على كف الصغير التي يضمها بيده، وقال:

– ايه رأيك يا «ناصف»، تحب تخرج معايا نسهر الليلة دي؟..

– ياريت يابا.. هنخرج فين؟..

– هخرجك خروجة ملوكي، مش هتنساها أبدًا..

تحمس «ناصف» جدًا، وأسرع الخطى بيد أبيه.

عندما وصل «ناصف» مع أبيه إلى المنزل قبل غروب الشمس بساعة، ودخلا حجرة نوم أبيه وأمه، رأيا مشهدًا فاجئهما، مشهدًا ترسّخ في ذهن «ناصف» للأبد. كانت الغرفة شبه مظلمة، إلا من شعاع شمس واهن يدخل من شباك الغرفة الموارب، بينما أمه تجلس على الأرض وشعرها منسدل على كتفيها وعلى شعرها شال أبيض يغطى وجهها، وأمامها إناء من الفخار يحترق فيه البخور، وتتصاعد منه رائحة جذابة وغريبة في نفس الوقت، بينما تتمتم بصوت أجش بعبارات لم يتبيّنها.

وقف «ناصف» و«سليم» مبهوتين للحظات، حتى حاول «ناصف» أن يتكلم فصدرت عنه همهمة لا معنى لها.

رفعت «نرجس» الشال الأبيض قليلًا من على وجهها ونظرت إليهما. كانت ملامحها متغيرة تماما وعيناها حمراوان. أجفل «ناصف» قليلًا وارتجف إلا أنه ظل واقفا مبهورًا بما يرى، بينما كان أبوه – الذي اعتاد نوبات أمه – هو الأسرع في رد الفعل، فضغط على كتفيه بيديه فأفاق من شروده، ثم قاده بإتجاه باب الحجرة حتى خرجا وأغلق أبوه الباب.

قال «ناصف» مبهوتًا بفعل حضوره لأول نوبة صريحة من نوبات أمه:

– أمي مالها يابا؟..

– مالها؟.. تلاقيها بتجرب ريحة البخور الجديد.. مش تشغل بالك إنت.. روح انت اوضتك ريّح شوية، علشان بعد صلاة المغرب هنخرج ونسهر بره..

ذهب «ناصف» إلى حجرته متثاقلًا وحجة تجربة البخور تلك لم تدخل رأسه.

***

بعد صلاة المغرب، خرج «ناصف» مع أبيه من مسجد القرية. كان يرتدي جلبابًا أنيقًا تزينه نقوش حول الرقبة وعلى الجيب، و«طاقية» مزخرفة من نفس لون الجلباب. ما أن خرجا من المسجد حتى وجدا عم «حارس» سائق الحنطور بانتظارهما، فركبا بصالون الحنطور، وأنطلق عم «حارس» باتجاه القرية التي سيسهران فيها.

في الطريق الذي يضيئه القمر و تصطف الأشجار الكبيرة على أحد جانبيه، بينما تجرى «الترعة الكبيرة» على الجانب الآخر منه، سأل «ناصف» أباه عن وجهتهما، فأخبره بأنهما ذاهبان إلى إحدى القرى المجاورة، حيث يحلان ضيفين على بعض من «أحباب» والده ويسهران معهم.

مع أذان العشاء، وصل «ناصف» مع أبيه إلى القرية التي سيسهران فيها فدخلا المسجد الكبير بالقرية. كان المسجد مزدحمًا بالكثير من الرجال الذين رحبوا بحفاوة كبيرة بالحاج «سليم» و «ناصف». انبرى الحاج «سليم» في تعريف «ناصف» بكل شخص يقابله. الحاج فلان.. عمّك علّان.. جدك ترتان، حتى اختلطت الأسماء على «ناصف» ولم يعد يتذكر منهم سوى أقل القليل.

بعد الصلاة اجتمعوا في مضيفة فسيحة تتراص الأرائك على كل جانب منها، فجلس «سليم» على إحدى الأرائك وأجلس «ناصف» إلى جواره وأحاطه بذراعه. بينما في القلب من القاعة جلس شيخ معمم على كرسي عالٍ مميز وبدأ في تلاوة القرآن الكريم بصوت شجيّ. اندمج الجالسون مع القارئ، وعلق البعض بتعليقات الإعجاب، كـ «اللهم صلي على كامل النور».. « الله يفتح عليك يا شيخ».

بعدما أتمّ الشيخ التلاوة، قام شباب من أهل البيت، فبدأوا في رص «الطبالي» على الأرض على مسافات متساوية، ثم بدأوا في وضع الطعام. صواني «الفتّة» وآنية المرق وقطع اللحم، ثم دعوا الجميع للأكل، فهبط الحاضرون جميعا و تشكلوا حول «الطبالي» في حلقات وبدأوا الأكل.

كان الملل قد استبد بـ «ناصف» وبدأ النعاس يداعب جفنيه،

بينما خبا حماسه الشديد للسهرة؛ بعد أن علم أن الأمر لا يتعدى عشاءً، وتلاوة للقرآن كتلك التي يسمعها في «الراديو».

بعد الأكل صعد الحاضرون ثانية ليتخذوا أماكنهم على الأرائك. فما أن استقر «ناصف» بجوار أبيه حتى مال على أُذنه وهمس قائلا:

– احنا هنروّح امتى يابا.. اني زهقت..

ابتسم أبوه وربت على كتفه وهمس:

– السهرة لسه هتبدأ.. هتنبسط أوي..

تململ «ناصف» في جلسته وهو يراقب الشباب وهم يدورون بالمشروبات الدافئة على الحاضرين.

فجأة دخل إلى القاعة شاب معمم تهلل له الحاضرون وهتفوا بعبارات الترحيب لدى رؤيته. توقع «ناصف» أن يجلس الشاب على الكرسي المميز بصدر القاعة ويقرأ القرآن هو الآخر، إلا أن الشاب وقف أمام الكرسي وحيّا الحاضرين، ثم بدأ إنشادًا دينيًا عذبًا شجيًا، يبدأ بحمد الله والثناء على النبي وصحابته وآل بيته الكرام.

ما أن بدأ الشاب الإنشاد حتى سكنت القاعة تماما، وبدا على الحاضرين الانسجام الشديد، بما فيهم «سليم» نفسه، حتى أن

«ناصف» كان كلما نظر إليه وجده مغمض العينين مبتسمًا يتمايل رأسه مع الصوت الشجيّ للمنشد الشاب.

كان «ناصف» على صغر سنه، محبًا للشعر والكلام المنظوم المقفّى، حتى أنه لم يكن يجد أي صعوبة في حفظه، فانبهر كثيرًا بالشاب وإنشاده، وتمنى لو يستطيع أن يكون منشدًا مثله.

اندمج «ناصف» هو الآخر مع الإنشاد، و التصقت بذاكرته أبيات أحب موسيقاها ووقعها على الأذن وإن لم يفهم على وجه التحديد معناها. كانت الأبيات تقول:

«ولقد خلوت مع الحبيبِ وبيننا

سرٌ أرقُ من النسيمِ إذا سرى

وأبــاحَ طـرفي نظرةً آملتُها

فغدوتَ معروفًا وكنت منكرا

فدهشتُ بين جماله وجلاله

وغدا لسان الحالِ عني مخبرا

فأدر لحاظك في محاسن وجهه

تلقى جميعَ الحسنِ فيه مصورا»(*)

(*) أبيات لـ «ابن الفارض».

اجتمع على «ناصف» – رغم انبهاره بالإنشاد – ارهاق اليوم الطويل، ورغبته في النعاس، فثقل جفناه، وبدأ النوم يداعبهما. فصار يغمض عينيه حينًا ويفتحهما حينًا آخر. واختلط عليه الواقع بالحلم، فصار يحلم أحلامًا خاطفة يعمل فيها الإنشاد عمل المؤثرات الصوتية. فحلم أنه يركض في طرقات قريته ليلًا وصوت المنشد يتردد في الأرجاء. يجري ويقفز عاليًا.. عاليًا جدًا.. حتى يطير فوق الدور والحقول والطرق والترعة الكبيرة ويهبط دون أن يمسه سوء. يقفز فوق الشجر ويلفح الهواء البارد وجهه ثم يهبط.. ويقفز ويهبط.. ويركض فوق الماء دون حتى أن يبتل.

زادت روعة الإنشاد، وازداد اندماج الحاضرين فقاموا من أماكنهم وانبروا في الذكر بصوتٍ واحدٍ متناغم. كان «ناصف» يراهم بين الحلم واليقظة، مغمضي العيون، مندمجين تماما في الذكر، حتى أن أباه كان يطوّح رأسه ذات اليمين وذات الشمال ولسانه يلهج بالذكر.

تشرنق «ناصف» حول نفسه في مكانه على الأريكة وغلبه نعاس متقطع. فلم يدرِ كم مر من الوقت، حتى أحس بأبيه يحمله ويدثره معه داخل العباءة ويغادر القاعة التي صارت شبه مظلمة

بعد أن سلم على مضيفيهما، ثم يصعد به إلى الحنطور الذي انطلق في طريق العودة إلى الدار.

ظل «ناصف» يغفو ويفيق فيشعر باهتزازات الحنطور، ويسمع صوت سنابك الفرس الذي يجر الحنطور وهي تطوي الأرض، وصوت أبيه وهو يتبادل الحديث مع عم «حارس» بصوت خفيض حتى لا يقلقا منامه، حتى وصلوا إلى الدار، فحمله أبوه إلى غرفته ومدده على السرير وفرد عليه الأغطية، ثم وقف على باب الحجرة للحظة اطمئن فيها على استغراقه في النوم، ثم أغلق الباب من الخارج وذهب لينام في حجرته هو الآخر، وما هي إلا لحظات حتى غاب «ناصف» أخيرًا في نوم هادئ متصل.

فلما استيقظ في اليوم التالي كانت ذكريات يوم أمس وليلته الحافلة لازالت تمر برأسه الثقيل، وصوت المنشد يتردد في وجدانه قائلًا:

«إن الغرامَ هو الحياة فمُتْ بهِ

صبًا فحقك أن تموت وتعذرا»(*)

***

(*) شعر لـ «ابن الفارض».

-٤-

مرّ «ناصف» بمراهقة هادئة، أحاطت به خلالها رعاية أبيه من كل جانب. إذ اتخذه أبوه صديقًا ورفيقًا وسندًا في الحياة. حتى لم يكن يمر يوم على «ناصف» دون أن يصطحبه أبوه معه لقضاء شأن من شئونه حتى ولو لزيارة الحقل القريب ومتابعة المزارعين. هذا غير اصطحابه له في مجالس الصلح بين المتشاحنين بالإضافة إلى جلسات الإنشاد والذكر، تلك التي وقع «ناصف» في هواها منذ عرفها على يد أبيه في ذلك اليوم البعيد، حتى أنه لم يفته أي جلسة تالية من تلك الجلسات إلا نادرًا.

حفظ «ناصف» أغلب ما يُنشد في تلك الجلسات من أشعار وأناشيد على الرغم من حداثة سنه، وحفظ أيضا أغلب الحكايات المنظومة المقفّاة التي كان ينشدها الحكّائون أحيانا عن «أبي زيد الهلالي»، وحكايات «ابن عروس». إلا أنه كان كلما حاول أن يحقق حلم الطفولة وينشد بينه وبين نفسه ما حفظ من أشعار، كان يصدمه صوته العالي النشاز؛ حتى اقتنع مع تقدمه في العمر انه لن

يكون منشدًا أبدًا.

وكما توطدت علاقته بأبيه، توطدت أيضا علاقته بأمه غريبة الأطوار، على الرغم من اختلاف طبيعة علاقة «ناصف» بكل منهما؛ فبينما كانت علاقة «ناصف» بأبيه تقوم في الأساس على الصداقة والإطمئنان، كانت علاقته بأمه تقوم على مزيج غريب من التعلق والحب الشديد والخوف والرهبة بل والاتهام بخفة العقل أحيانا، ذلك الإتهام الذي كان الشاب يخفيه في نفسه ولا يعلنه أبدًا.

فعلى الرغم من حضور «ناصف» للعديد من نوبات أمه الممسوسة، إلا أنه ظل يرى في قرارة نفسه أن أمه خفيفة العقل حتى في حالاتها الطبيعية. وكان يعزي ذلك ربما لسيطرة الأسياد عليها، ولحياتها الغريبة التي لابد أنها قد أصابت عقلها بالتلف. إلا أنه على الرغم من ذلك كله فقد ظلت هناك منطقة غامضة جدا في شخصية أمه تجعله يهابها ويخشاها، بل ويطيعها في أغلب الأمر. فكان يعامل أمه باستخفاف أغلب الوقت، بينما تقبل هي ذلك بإرادتها، حتى إذا ما حدث بينهما ما يحتاج للصرامة، لم تكن تحتاج سوى أن تعامله بجديّة وتجهّم، فكان يطيعها فورا دون نقاش.

ذلك التباين الشديد بين شخصية أبيه وشخصية أمه وطريقة كل

منهما في تربيته، جعل منه شخصًا ذا نوبات هو الآخر؛ إلا أنها كانت نوبات غضب، لا نوبات مَسّ.

فبينما شبّ «ناصف» هادئا طوال الوقت، يميل للسلام وحب الضحك والتفكّه، إلا أنه أيضا صار له غضبة لا تبقي ولا تذر. فكان إذا استثار غضبه أمرٌ، خرج عن سيطرة نفسه وأطلق لجسده القوي العنان لطمًا ولكمًا وركلًا، دون تمييز أو حساب لعواقب أفعاله. كان يفقد السيطرة على نفسه تماما، لدرجة أنه كان إذا ذكّره أحدهم بما فعل أثناء غضبه لم يكن يتذكر.

ولأنه لا يوجد ما يمكن أن يغضبه كل هذا الغضب فيما بينه وبين أبيه وأمه، ظلت نوبات غضبه تلك سرًا بينه وبين نفسه، لا يعلم عنها أبواه شيئًا حتى كان ذلك اليوم الذي عاد فيه من المدرسة الثانوية التي يدرس فيها في المركز الذي تتبعه قريته، مبعثر الثياب متربّها، به خدوش وكدمات غير ظاهرة إلا أنها كانت لا تزال تؤلمه، إثر مشاجرة عنيفة شبّت بينه وبين عدد من زملائه بالمدرسة.

كان «ناصف» قد تغلب منذ فترة على خجل الطفولة وصار اجتماعيًا ذا دائرة أصدقاء كبيرة. يساعده على ذلك كرمه الشديد مع زملائه وروحه المرحة المحبة للضحك، وتديّنه و اتقاد ذهنه.

مما خلق له عداوات – أيضا – كأثر جانبي لتميزه وشعبيته بين زملائه. كان من بين تلك العداوات ما أضمره له ثلة من الزملاء الأشقياء كانوا يحقدون عليه ويكرهون التفاف الطلاب من حوله، فكادوا له أكثر من مرة، إلا أنه كان يرد كيدهم بلطف في كل مرة ويعاملهم بالخير كما علمه أبوه. حتى حدث في ذلك اليوم – يوم المشاجرة – ما أثار حفيظته من اعتداء هؤلاء الطلاب الأشقياء على أحد أصدقائه الضعفاء؛ قاصدين بذلك توريط «ناصف» في مشاجرة يكون هو الطرف الأضعف فيها؛ إذ كانوا قد حشدوا حشودهم وخططوا للفتك بـه.

ذهب «ناصف» إليهم في فترة الراحة ولامهم على إيذاء صديقه، فكالوا له السباب وأتوا بما لم يستطع معه صبرًا؛ فدارت المشاجرة الطاحنة، وانقسم طلاب المدرسة إلى فريقين كبيرين يتعاركان. حتى أن المدرسين والإداريين بالمدرسة لم يستطيعوا الفصل بين الطلبة المتشاحنين إلا بعدما فتك الطرفان ببعضهما البعض، وظهر تفوق كبير للفريق الذي انحاز إلى «ناصف»، ذلك الذي فتك وحده بما يزيد عن الثلاثين تلميذًا؛ حيث كانت قبضته اليمنى تلكم في اتجاه، وكفه اليسرى تصفع في اتجاه آخر، وساقاه تركلان

ذات اليمين وذات اليسار، وذراعاه تحملان الطلبة المعادين حملًا فتلقي بهم على عدد من زملائهم في فريقهم المعادي.

حتى ندم الطلبة المعادون له على إثارة حفيظته، وإيقاظ هذا الوحش النائم بداخله. أما عنه هو نفسه، فلم يدرِ بما فعله سوى وهو مكبّل بأذرع العديد من المدرسين والإداريين بالمدرسة وهم يحاولون جاهدين السيطرة على جسده القوي الذي فتك بما يقرب من نصف طلاب المدرسة ويجرونه جرًا إلى مكتب الأستاذ المدير، ذلك الذي تفاجأ بشدة مما بدر عن «ناصف» الهادئ النابه نجل صديقه الحبيب الحاج «سليم».

تفوق «ناصف» الدراسي والتزامه فيما قبل المشاجرة، بالإضافة إلى الصداقة القوية التي كانت تجمع مدير المدرسة بالحاج «سليم» حالوا جميعا بين مدير المدرسة وتوقيع عقوبة إدارية شديدة على «ناصف» كالفصل المؤقت من المدرسة مثلًا. إلا أنه بعدما عاد «ناصف» في ذلك اليوم إلى بيته مسرعًا بعد الدوام الدراسي، وبعدما بدّل ملابسه وتحمم ليخفي آثار المشاجرة، وتناول طعامه واستراح لبعض الوقت، وبينما وصل لصلاة المغرب بمسجد قريته، وجد الأستاذ مدير المدرسة يجلس بالمسجد بجوار أبيه

يتحدثان، ففهم على الفور سبب زيارة الأستاذ المدير المفاجئة لأبيه، وعلم أن الأستاذ لابد قد أخبر أباه بما حدث منه بالمدرسة، فخجل أن يريهما نفسه، وانعزل في أحد أركان المسجد حتى أقيمت الصلاة، فصلى وهرب إلى المنزل مسرعًا.

أما عن الحاج «سليم» فقد كان مندهشًا مما يسمع من مدير المدرسة كأشد ما تكون الدهشة، فلم يستطع قول أي شيء سوى التساؤل بترديد اسم ابنه بذهول بعد كل جملة يحكي بها الأستاذ له ما بدر من «ناصف» بالمدرسة في ذلك اليوم. فكانت المحادثة عبارة عن بعض كلمات يقولها مدير المدرسة، فيتساءل بعدها الحاج «سليم» مذهولًا.. «ناصف»؟!!.. متعجبًا لاقدام ولده على فعل تلك الأمور وهذه الشيطنة.

حتى انتهى مدير المدرسة من حكايته و شكايته للحاج «سليم» من «ناصف»، ولولا معرفة الحاج «سليم» الوثيقة بمدير المدرسة لظن به الظنون، إلا أنه في النهاية لم يجد بدًا من تصديق ما يحكيه الأستاذ المدير ثم يعتذر له أشد الاعتذار مع وعود كثيرة بعدم تكرار الأمر من «ناصف» أبدًا.

بعد صلاة العشاء انصرف «ناصف» من المسجد مسرعا كما

فعل بعد صلاة المغرب، رغم تأكده من انصراف الأستاذ مدير المدرسة، إلا أنه خجل أن يقابل أباه بالمسجد، وفضّل أن يكون نقاشهما بالبيت، فعاد إلى البيت مسرعًا ودخل حجرته وأوصد الباب على نفسه، وتظاهر باستذكار دروسه. كان متوترًا يخشى ردة فعل أبيه فلم يستطع التركيز فيما يدرس. كان يعلم أن أباه لن يضربه مثلًا أو حتى يعاقبه بأي شكل إلا أن أشد ما كان يخشاه هو أن تهتز ثقة أبيه فيه، أو أن يغير ما بدر منه نظرة أبيه إليه؛ فيعتبره شابًا طائشًا لا يرقى لصحبته ومعاملة الأصدقاء التي يعامله بها.

سمع من مكانه بالحجرة صوت انغلاق باب الدار الخارجي، فعلم أن أباه قد عاد من الخارج، وارتجف قلبه في صدره. لم يطرق أبوه باب الحجرة هذه المرة كعادته قبل الدخول عليه، بل دفع الباب بعنف ودخل إلى الحجرة فالتفت إليه «ناصف» متوترًا. كان أبوه لا يزال مذهولًا مما سمعه من مدير المدرسة.

– فيه إيه يا «ناصف»؟.. ايه اللي نابك يا وله؟.. صحيح اللي الأستاذ المدير بيحكيه لي ده؟..

لم يجرؤ «ناصف» على الرد، فاكتفى بأن أطرق إلى الأرض خجلان.

– ضربت يجي أربعين واحد من زملاتك؟.. ليه يا «ناصف»؟.. هتبقى فتوة؟.. جرى إيه يا وله رد عليا؟..ايه اللي جرالك؟..

رد «ناصف» بصوت ضعيف:

– والله يابا ما دريت بنفسي. ضربوا الواد «حسين» زميلي، روحت أعاتبهم قلوا أدبهم ومدوا أيديهم، مش دريت بنفسي غير وانا في مكتب الأستاذ المدير.

– ولو يا «ناصف».. ولو.. افرض عوروك والا كسروك!.. فيه ايه يا «ناصف» ده انت العاقل الموزون. اسمع.. النوبة دي عدت على خير.. انا خدت بخاطر الأستاذ وتأسفت له، بس لو حصل منك حاجة تاني اني اللي قولت له يفصلك. احنا مش بتوع خناق وضرب وخبط.. ان كنت ناوي ع الشقاوة، بلاها علام من أساسه، والغيط يساع من الحبايب ألف.. تعالى شوف أرضنا وأحوالنا أحسن.

رد «ناصف» بسرعة:

– لا يابا.. والله ما هاعملها تاني..

– اوعى يا «ناصف».. ربنا يهديك يبني..

قالها «سليم» والتفت خارجًا من الحجرة، تاركًا «ناصف» وراءه وهو يلملم شتات نفسه ويهنئها بالنجاة في تلك المرة. إلا

أن «سليم» كان لا يزال مندهشًا. كان يفكر كيف يصدر من ولده العاقل الهادئ الذي يضرب به الناس المثل في الأدب والالتزام كل تلك الشقاوة والفتونة؟

دخل حجرة نومه حيث كانت «نرجس» تجلس على حافة السرير وقد ثنت إحدى ساقيها تحتها بينما ساقها الأخرى تتأرجح في الهواء بين السرير المرتفع والأرض وقد تعلقت بأطراف أصابع قدمها الحرّة فردة خفٍ مذهّب. أغلق «سليم» الباب من ورائه ووقف حائرًا يبادلها النظر للحظات، ثم انفجر في الضحك وهو يضرب كفًا بكف، فنظرت له مستغربة وقالت:

– فيه ايه يا حج، ما تضحكني معاك..

جلس إلى جوارها ثم قال بعجب:

– الواد طلع فتوّة.. ضرب نص عيال المدرسة في خناقة..

نظرت إليه مستغربة ثم سألته:

– واد مين؟..

– «ناصف» يا بِت واحنا حدانا غيره؟..

– «ناصف» ابني؟.. ايه اللي جرى؟..

حكى لها ما رواه له الأستاذ مدير المدرسة، بينما تقمصت هي

دوره – عند سماعه القصة للمرة الأولى – هذه المرة، فصارت تضرب صدرها بكفها المفتوحة وتتساءل مستغربة بعد كل جملة يقولها.. «ناصف»؟!! حتى انتهى من حكايته، فابتسمت ولمعت عيناها وهي تقول بانتصار:

– جدع.. ابن «نرجس»..

أحاطها «سليم» بذراعه وضربها برأسه في جبهتها بلطف وهو يبتسم ويقول:

– ابن «سليم» يا بِت. بقولك ايه ما تقومي تحضري لنا العشا، علشان ناكل لقمة ونشوف مالِك مانتيش راضية تبطلي تحلوي ليه.

ضحكت بصوت عالٍ فأسكتها بلطف وقال:

– لا وبعدين!.. احنا المفروض زعلانين من الواد.. والواد متكدر علشان مش يكررها تاني.

ثم استطرد وهو يضحك:

– الله يجازي عفاريتك باينها لحست مخ الواد.

قامت من جواره جريًا وهي تضحك وتتفل في صدرها وتقول:

– لهوييبي يجعل كلامنا خفيف عليهم، مصيبة ليحضروا ويعكننوا علينا!

غادرت الغرفة وخرجت باتجاه المكان المخصص للطبخ بالدار وتركته في انتظارها بالحجرة على أحر من الجمر.

❊❊❊

حملت «نرجس» من «سليم» مرتان بعد ولادة «ناصف»، إلا أنه في المرتين لم يتم الحمل، فكان الجنين لا يستقر في رحمها. بدد ذلك حلمها بولادة العديد من الأطفال؛ إلا أن رضا «سليم» بالأمر وتهوينه عليها جعلها تتقبل فكرة أنها لم تلد سوى «ناصف».

كان «سليم» كعادته مخلصًا في تسليم أمره إلى الله، يسعد بالعطاء، ويشكر في المنع، ويصبر على كل حال. كأنه يفرح بالبلاء كما يفرح بالعطاء.

صحيح أن «نرجس» استطاعت أن تقلل - مع الوقت - من زهده وكرمه البالغ مع الجميع، وإنفاقه في الخير بغير حساب؛ فكانت تتعمد أن ترهقه بالكثير من الطلبات التعجيزية لعله ينشغل باحتياجاتها واحتياجات الولد عن الإنفاق في الخير، وكانت تدخر الأموال دون علمه كي لا تطالها يده فينفقها في نوبة كرم من نوباته العديدة، إلا أنه ظل كريمًا مع الجميع على كل حال، منفقًا في الخير وإن قل هذا الإنفاق عن الفترة التي كان يعيش

فيها أرملًا، أو في فترة حياته مع «فوزية» التي كانت تماثله في كرم النفس والطباع.

كان كل ما يربط «سليم» بهذه الدنيا هو عشقه لـ «نرجس» وهيامه بها في كل حالاتها، حتى جاء «ناصف» فاحتل هو الآخر جزءًا عزيزًا من نفسه. إلا أن «سليم» – في غير حبه لهما وتعلقه بهما – ظل يزهد في كل ما يخص هذه الدنيا.

أما عن «ناصف» الشاب فربما لم يكن يعيبه سوى نوبات الغضب والهياج التي كانت تدفعه للخروج عن السيطرة إذا حلّت. أما فيما عدا ذلك فقد كان له العديد من المميزات الشكلية والشخصية؛ فكان وسيمًا، فارع الطول، قوي البنية، له ابتسامة دائمة لا تفارقه حتى لو كان وحيدًا أو لو لم يكن هناك ما يدعو للابتسام من الأساس. كريمًا، حييًا، مهذبًا، يحسبه من يراه أو يعامله أكبر من سنه الحقيقي لرزانته.

كما كان متدينًا، يصلي الفروض ويقرأ القرآن ويحفظه، هذا بالطبع غير ولعه الشديد بالشِعر والأناشيد. حتى تلك الانحرافات التي يرتكبها أغلب الشباب بدافع الطيش، نجا هو من أغلبها؛ فقد كانت مرافقته لأبيه على الدوام لا تترك له فراغًا لتمر منه تلك

الانحرافات إليه، كما أن اعتياده لحضور جلسات الصلح ولقاءات كبار القرى وعمدها ومشايخها مع أبيه، منحته طابعًا حكيمًا مترفعًا عن نزوات المراهقة.

إلا أنه على الرغم من شخصيته الناضجة في الكثير من النواحي تلك، ظل شابًا مراهقًا أيضًا ككل الشباب، يعشق الضحك والنكات، والجري واللعب واستعراض القوة. حتى أنه لم يترك رياضة بدنية ضمن الأنشطة الرياضية بالمدرسة إلا ومارسها. كما كان يحب العراك مع زملائه في فترة الراحة على سبيل اللعب، فكانوا يقسمون أنفسهم إلى فريقين متضادين ثم يقضون فترة الراحة في منتصف الدوام الدراسي في تبادل الركلات واللكمات، وألاعيب الكرّ والفرّ، حتى إذا ما انتهت فترة الراحة عادوا زملاء متحابين على وعد باستكمال الركل والصفع في اليوم التالي أو في نفس اليوم بعد انتهاء الدوام الدراسي، حتى أنهم لم يجدوا إسما مناسبا لهذه اللعبة أكثر من كلمة «ضَرْب».

فكان الأمر يبدأ باقتراح من أحدهم، «تيجوا نلعب ضَرْب؟».. فيوافق الجميع في حماس، ثم يقسمون أنفسهم إلى فريقين، فما أن تبدأ فترة الراحة حتى تبدأ المعركة التي لا يكفون خلالها عن

الجري وتسديد اللكمات والركلات والضحك حتى التعب.

أما عن مغازلة الفتيات وتبادل الصور والمجلات الإباحية كما كان يفعل الشباب من أقرانه، فلم يكن له في هذا الأمر باعًا أبدًا. على الرغم من قوته الجسدية وفحولته المبكرة ورغبته الجنسية المتقدة بفورة الشباب، وحبه الشديد لشِعر الحب والغزل، وتوقه لتجربة هذا الشعور الساحر المسمى بالحب، إلا أن تدينه كان يردعه عن مجاراة هواه في تلك الأمور، فكان يسير في الشوارع غاضًا للبصر، لا يتلفّت، يهرب من الكلام في الإباحيات مع أقرانه بالضحك، ويكتفي بخيالاته الشخصية عن تلك التي ستسرق قلبه يومًا ما.

تبدلّت صورة فتاة الأحلام في مخيلة «ناصف» عدة مرات خلال مراهقته وشبابه، فكانت تظل لفترة صورة شبيهة لإحدى قريباته اللاتي يكبرنه في العمر، وأحيانًا أخرى لفتاة جميلة لمحها صدفة في شوارع المركز الذي تقع به المدرسة التي يدرس بها، أو أثناء مرافقته لأبيه للمدينة التي تتبعها قريتهم، عندما يذهبان معا لقضاء بعض شئون الأسرة.

ظل على هذه الحال حتى أتاه الهيام والوجد من حيث لا

يحتسب، يوم أن كان يطالع إحدى المجلات التي اشتراها من محطة القطار مع الجرائد التي اعتاد أن يتسلى بقراءتها على أبيه في القطار لتزجية الوقت خلال الرحلة.

كانت مجلة ملونة، جذبت «ناصف» الألوان على غلافها وعناوينها البراقة، مجلة ذات مواضيع منوّعة تضم العديد والعديد من الموضوعات، ما بين أدب ورياضة واجتماعيات ودين.

طالع «ناصف» المجلة في المساء بعدما عاد مع أبيه من رحلتهما للمدينة القريبة. كان قد جفاه النوم بسبب الحر، وبسبب اعتياده السهر بعدما أنهى امتحانات الشهادة الثانوية وأصبح في انتظار إعلان نتيجة الإمتحانات.

وحيدًا بغرفته ليلًا ظل يتصفّح المجلة، حتى استوقفه موضوع صحفي ضمن المواضيع الدينية بالمجلة. كان الموضوع المعنون بـ «المسلمون في الإتحاد السوفيتي» يتحدث عن تعداد المسلمين بالإتحاد السوفيتي، والولايات التي ينتشر بها المسلمون، وأسلوب حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفي الصفحة الأولى من الموضوع الذي أفردت له المجلة عدة صفحات، كانت هناك صورة كبيرة لفتاةٍ محجبّة ذات بشرة رقيقة بيضاء يشوبها حمرة، ووجه مستدير

وملامح دقيقة متناسقة، وعينين ساحرتين لهما لون مميز يتأرجح بين الأخضر الفاتح والرمادي.

لم يكد «ناصف» يلمح من الموضوع سوى العنوان، حتى استوقفته صورة الفتاة وشدت انتباهه بشدة. إذ ارتج فؤاده في صدره كأنما اكتشف كائنًا جديدًا غير كل البشر. كائنا شفافًا نزل للتوّ من السماء، أو خرج من عالم الحكايات.

ظل ينظر إلى صورة الفتاة لوقت طويل ربما امتد لساعات، حتى حفظ ملامحها، بل وتخيل ما لم تبدهِ الصورة من تفاصيلها؛ كطولها مثلا فتخيلها معتدلة الطول تميل للقِصر كما يحب، ممتلئة القوام في غير سمنة منفرّة، لها شعر ذهبي بلون حاجبيها، وكفّان صغيران، وقدمان جميلتان ذاتا أظافر ورديّة.

ذاب في خيالاته حول الفتاة، حتى كاد يشعر بطيفها يطوف حوله بلطف، وكاد يشم رائحتها العطرة تعبق بجو الغرفة.

احتضن «ناصف» المجلة واستلقى على سريره وسرح ببصره في السقف، وتخيل الكثير من السيناريوهات التي تجمعه بفتاة المجلة. فمرة يتخيل نفسه شابًا يافعًا تخرج من الجامعة بتفوق وأُبتعث للخارج في مهام قومية. ومرة يتخيل نفسه تاجرًا كبيرًا

سيطر على الأسواق المحلية وبدأ في غزو الأسواق العالمية، المهم أنه أثناء كل سيناريو من هذه السيناريوهات التي كان يتخيلها، كان يقابل الفتاة ويجمعهما الحب، فالزواج، فالسعادة الأبدية.

ظل هائمًا في تخيلاته لفترة، حتى شعر برأسه يفور، وذهنه يتقد، فانتفض مغادرًا سريره، وجلس إلى مكتبه وفتح إحدى الكراسات وبدأ في نظم قصيدة رومانسية في حب فتاة المجلة.

ومنذ تلك اللحظة، صارت فتاة المجلة هي حبيبته وفتاة أحلامه وملهمته الوحيدة التي يكتب من أجلها كل قصائده البدائية الركيكة.

***

استيقظ «ناصف» من نومه قرب صلاة الظهر، وهو ما لم يكن يعتاده أقرانه من شباب القرية أبدًا؛ إذ كان «ناصف» يتمتع بأسلوب حياة مختلف عنهم تمامًا؛ فلم يكن يخرج إلى الحقل - مثلا - إلا للزيارة لا للعمل حتى في إجازة الصيف. وكان السبب في ذلك هو إصرار أبويه على إعداده لإستكمال الدراسة حتى أبعد مدى ممكن، مما جعل أسلوب حياته أشبه بحياة الشباب في المدن لا في القرى.

ذهب إلى المسجد ليصلي الظهر وعندما عاد، وجد العاملات

بالمنزل قد أعدوا له طعامًا فتناوله، ثم بحث عن أمه فوجدها تجوب غرف المنزل حاملة مبخرة تفوح منها رائحة نفاذة، وهي تتمتم بكلمات مبهمة بصوت خفيض. فسار وراءها وهو يكتم ضحكاته مستغربًا اصرارها على إشعال البخور، وتبخير كل غرف المنزل يوميًا. حتى استقرت أخيرًا في غرفة إستقبال الضيوف، فطافت بأرجاء الغرفة ونشرت دخان البخور المتصاعد من المبخرة، وتمتمت بتعاويذها، ثم التفتت إليه فنظرت إليه بجدية، ثم وضعت يدها على كتفه دون أن تتحدث فدفعته للجلوس على إحدى الأرائك، ثم أخذت تحرك المبخرة فوق رأسه في حركة دائرية وهي تتمتم بجدية، بينما هو لايزال مبتسمًا يكتم ضحكاته، حتى فرغت، فوضعت المبخرة على منضدة بمنتصف الحجرة وجلست.

ظلت تنظر إليه بجدية للحظات وهو مبتسم كعادته، حتى هتفت فيه سائلة:

- بتضحك على إيه يا ولَه؟..

- مفيش..

- أبوك بيقول سمع إن النتيجة هتتذاع النهارده في الراديو..

- امتى؟..

- بيقولوا بالليل..

- ربنا يسهل الأمور يا أم «ناصف»..

- هتبقى دكتور..

ابتسم ثم تنحنح وقال:

- كلية الطب عاوزة مجموع كبير أوي، وأنا غاوي أدرس لغة عربية ودين وعلوم إنسانية..

قالت أمه بنفاد صبر:

- هتتعلم إيه تاني في الدين؟.. ما انت حافظ القرآن.. والإنسانية دي مش هي الطب؟..

- لا يا أمي العلوم الإنسانية زي المنطق والفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ..

- و هتشتغل ايه بقى ان شاء الله لما تتخرج؟..

- ممكن حاجات كتير.. مجال الشغل في اللغات مثلا واسع، وممكن كمان أتفوق و اتعين معيد في الجامعة..

- قصر الكلام.. لما النتيجة تتذاع نبقى نشوف هنعمل ايه..

- ماشي يا أم «ناصف».. مش قولتيلي برضه إيه لازمة البخور بتاع كل يوم ده..

ظلت تنظر إليه بتحفز لفترة وهو يكتم ضحكاته، ثم قامت من مكانها وسارت بإتجاه باب الغرفة حتى ظن أنها ستغادر، إلا أنها وقفت عند عتبة الباب والتفتت إليه فجأة وسألته:

– لو في ناس مترصدين ليك.. وإنت مش قدهم.. تعاديهم والا تراضيهم؟..

– ناس مين بس؟.. انا عمري ما شوفت حاجة من اللي انتي بتقولي عليها دي..

نظرت إليه نظرة طويلة ثم تركته جالسًا وحده بالغرفة وخرجت.

بعد صلاة العصر تناولت الأسرة طعام الغداء معًا، ثم دخل «ناصف» إلى غرفته، فاستلقى على السرير لبعض الوقت حتى غلبه النوم. فحلم أنه يسير مع أشخاص غير مرئيين في مكان ناءٍ، يسير مضطرًا بين جدران متهدمة، ثم مادت به الأرض فجأة وظل يغوص ويغوص.

حتى وجد نفسه في غرفة ضيقة وحيدًا مع فتاة غريبة الشكل، لها شعر مجعّد، وهو يحاول تمشيط شعرها، بينما شعرها لا يستجيب له، حتى نفد صبره وجذب المشط المشتبك مع شعرها المتجعد بقوة، فصرخت الفتاة صرخة عالية بصوت رفيع مفزع، فانتفض

من نومه فزعًا، والعرق يغمر جسده.

***

نجح «ناصف» بمجموع جيد، لم يسمح له بالالتحاق بكليات القمة، لكنه في الوقت نفسه منحه حق الإختيار بين العديد من الكليات، مما سهل عليه أن يقنع أباه وأمه بأن يلتحق بإحدى الكليات التي تمكنه من دراسة العلوم الإنسانية التي يحب.

فما أن استقروا جميعًا على اختيار الكلية التي سيدرس بها، حتى صار عليه أن يسافر عدة مرات إلى المدينة الكبيرة التي تقع بها الكلية؛ ليقدم أوراقه و يستكمل إجراءات التحاقه بها.

نظرًا لبُعد المسافة بين قرية «ناصف» والمدينة التي تقع بها الكلية، صار من المحتّم عليه أن يقيم بالمدينة طوال فترة الدراسة ولا يعود إلى القرية سوى في الإجازات الأسبوعية، فاختار أن يقيم بالمدينة مع زميله «عماد»، ذلك الذي تعرف عليه أثناء فترة استكمال إجراءات التحاقه بالكلية، وشعر براحة تجاهه فور أن تعرف عليه؛ لما يبدو عليه من خفة الروح والالتزام الديني والأخلاقي.

كان «عماد» قد أخبره بأنه سيقيم بشقة قريبة من الجامعة يستأجرها أحد أقربائه ممن يدرسون بنفس الجامعة، وعرض عليه

أن يشاركه السكن، إذ كانت الشقة تتألف من غرف ثلاث، فيستطيع كل منهم أن يستقل بإحدى غرف الشقة، على أن يتقاسموا جميعا دفع مبلغ إيجار الشقة الشهري.

بهذا صار كل شيء ممهدًا أمام «ناصف» ليبدأ حياته كطالب جامعيّ في تلك المدينة الكبيرة الصاخبة، وصار عليه أن يخوض غمار التجربة وحيدًا، ولأول مرة بعيدًا عن كنف أبيه وأمه.

❋❋❋

-٥-

في اليوم الذي كان على «ناصف» أن يرحل فيه إلى المدينة ليستقر هناك ويبدأ دراسته، أحضر أبوه سيارة من تلك المعدة لنقل الأغراض، واستقدم كذلك بعض العاملين لديه ليساعدوا في نقل الأغراض التي سيأخذها «ناصف» معه. بدأ العاملون في نقل الأغراض بالفعل حتى أتموا نقلها إلى السيارة تحت أعين الحاج «سليم» الذي كان يقف أمام باب البيت مستندًا على عصاه متظاهرًا بالاشراف على العمال، إلا أنه – في الحقيقة – كان يتظاهر بذلك ليبقى خارج المنزل؛ في محاولة منه لإخفاء لوعته لفراق ولده الذي بات وشيكًا.

تجهّز «ناصف» وارتدى ملابسه التي سيسافر فيها، ثم خرج من حجرته يحمل حقيبة صغيرة بها بعض دفاتره وكتبه التي يحبها، والمجلة التي صارت لا تفارقه في حلٍ وترحال.

كانت أمه تقف في صحن الدار أمام غرفته، فلما رآها وضع الحقيبة التي كانت في يده على الأرض ونظر إليها. كانت تنظر

إليه بحنان بالغ، وتتأمل ملامح وجهه كأنها تختزنها في ذاكرتها لتستحضرها في أيام البُعد.

اقترب منها ووقف أمامها وهو لا يجد في نفسه قدرة على الكلام؛ إذ كان مضطربًا وجلًا، رغم تعطشه لخوض غمار تلك الفترة الجديدة من حياته.

جذبته أمه إليها واحتضنته بقوة بين ذراعيها، وتشبثت بكفيها بملابسه، ثم أبعدته عنها للحظات تأملت فيها وجهه ثانية وهي تمسك برأسه بين يديها وتمرر أصابعها بين خصلات شعره، ثم احتضنته ثانية.

دمعت عيناه وشعر كأنه قد عاد جنينًا في بطن أمه، التي همست في أذنه قائلة:

- خلي بالك من نفسك يا وَله..

فأجابها بصوت متهدج:

- حاضر يا أمه.. إدعي لي..

أبعدته عنها وربتت على رأسه، فقبّل يدها ومسّ ظهر كفها بجبهته، ثم نظر إليها نظرة أخيرة قبل أن يغادر. رآها من بين دموعه تبتسم له. لم تكن تبكي رغم فيض الحنان الذي غمرته به. إلتفت

تجاه الباب ليخرج فجذبته من ذراعه ببعض الشدة وهمست له:

- إمسح دموعك.. مش تطلع للناس كده..

فوقف لثوانٍ مسح دموعه في كفّيه ثم نظر إليها نظرة أخيرة، ليملأ روحه من ابتسامتها، ثم خرج.

إلتقاه أبوه لدى الباب، فأعطى ذراعه لأبيه ليستند عليه، وسارا معًا إلى كابينة السيارة، فعاون «ناصف» أباه على الدخول إلى كابينة السيارة أولًا، ثم جلس إلى جواره وأغلق الباب، فأدار السائق محرك السيارة وتحرك مبتعدًا. ألتفت «ناصف» ناظرًا إلى البيت فرأى أمه أمام باب البيت تلوح له بيدها وهي تبتسم، فظل ينظر إليها حتى انعطف السائق في طريقه، وغاب البيت وأمه عن عينيه.

***

طوال الرحلة إلى المدينة، لم يكفّ السائق عن الكلام بصوتٍ عالٍ، إذ أراد لصوته أن يعلو على هدير محرك السيارة العالي. بينما اكتفى «سليم» و«ناصف» في ردهما عليه ببعض الهمهمات لعله يصمت؛ إذ كان كل منهما غارقًا في خواطره الخاصة وقلقه حيال الفراق الأول بينه وبين الآخر.

وصلت السيارة أخيرًا إلى المدينة واتخذت طريقها بين

شوارعها حتى وصلت إلى المنطقة الشعبية التي تقع بها الشقة التي سيقيم بها «ناصف»، حتى وقفت أمام إحدى المنازل المتواضعة وأخبر السائق الحاج «سليم» و«ناصف» بأنهم قد وصلوا إلى العنوان الذي أملاه «ناصف» للسائق نقلًا عن «عماد».

هبط «ناصف» من السيارة وعاون أبيه على النزول، ثم نادى بصوتٍ عالٍ على «عماد».

خرج إليهم «عماد» متهللًا فسلّم على الحاج «سليم» بأدب، ثم سلّم على «ناصف» واحتضنه، ثم قادهما إلى داخل المنزل. كان مدخل البيت مظلمًا رطبًا له رائحة غير محببة، والشقة كذلك، كانت شاحبة الإضاءة، لها جدران مطلية بدهان قديم حال لونه، وزحفت الرطوبة على أغلب حوائطها والسقف.

لم تكن الغرفة التي يفترض أن يقيم بها «ناصف» بأفضل حالًا، إذ كانت غرفة كالحة كئيبة، خالية إلا من سرير قديم فتك السوس بخشبه تعلوه حشية متسخة. كانت هناك أيضًا منضدة خشبية ضعيفة، وكرسي خشبي يهتز بالجالس عليه.

اشترك «عماد» مع السائق و«ناصف» في نقل أغراض «ناصف» إلى داخل الشقة، بينما جلس الحاج «سليم» على أريكة متهالكة

بردهة الشقة، حتى إذا ما انتهوا من نقل كافة الأغراض، سمعوا أذان المغرب، فذهبوا جميعًا للصلاة، حتى إذا ما أتموها، خرجوا جميعا فوقفوا أمام المسجد. اختلى «سليم» بولده ثم سأله إن كان يحتاج إلى أي شيء، وأخبره بأنه إذا لم يجد راحته في تلك الشقة، فليبحث عن أي سكن آخر ولا يحمل للتكلفة المادية همًا.

أخبره «ناصف» أنه سيجرب الإقامة بالشقة قبل أن يحكم عليها، خصوصًا أنه يفضل الإقامة مع «عماد»؛ ليس لمجرد أنه شاب مهذب خفيف الروح، إلا أنه أيضا زميله في نفس الكلية، مما سيجعل إقامتهما معا مفيدة لكليهما في الدراسة والمذاكرة.

ودع «سليم» «ناصف» للمرة الأخيرة واحتضنه بشدة وقبّل رأسه، فقبّل «ناصف» يده وسأله أن يدعو الله له بالتوفيق، ثم ركب الحاج «سليم» السيارة مع السائق وغادر.

***

لم تكن الليلة الأولى لـ «ناصف» بالشقة على مستوى أحلامه أبدا؛ فعلى الرغم من أن «عماد» أخذ في تسليته وإشغاله بالحديث في شتى الأمور، إلا أن «ناصف» ظل يشتاق لوالديه، والقرية، وحجرته المريحة، ودارهم الواسعة. خلّف هذا الإشتياق شعورًا

بالانقباض وعدم الراحة لديه، أخذ هذا الشعور في الإزدياد كلما وقعت عيناه على أي شيء بالشقة وعاين ما به من قذارة.

في المساء انفتح باب الشقة، ودخل منه شاب يحمل حقيبة مهترئة يبدو عليها القدم، فما أن رآه «عماد» حتى تهلل له – كعادته مع الجميع – وقام إليه مرحبًا ثم قدمه إلى «ناصف» بإسم «الشيخ سيد»، ثم أخبر «ناصف» أن «سيد» هذا هو قريبه الذي يسكن الشقة معهما.

نظر «ناصف» إلى «سيد» وتفحصه. فوجده ذا بشرة كالحة وعينين وقحتين لئيمتين، ولحية غير مهذبة، وجسد يميل للامتلاء. وكان شكله ومظهره العام يعطيان من يراه انطباعًا بأنه يزيد عن عمره الحقيقي بعشر سنوات أو أكثر.

رحب «سيد» بـ «ناصف» بفتور لم يكن ينتظره «ناصف» لينفر منه، فالحقيقة أن «ناصف» لم يحبه بالفعل منذ الوهلة الأولى.

قام «عماد» إلى المطبخ و أعد طعامًا للعشاء من طعامه البسيط الذي جلبه معه من قريته، ودعا «ناصف» و«سيد» لتناول الطعام معه، فقام «ناصف» إلى المطبخ وأحضر هو الآخر بعضًا من الأكل الكثير الذي أعدته له أمه والعاملات بالمنزل، بينما اكتفى «سيد»

بالمشاركة في هذا العشاء بالمجهود؛ حيث لم يكد «ناصف» و«عماد» يبدأن الأكل على استحياء، حتى كان «سيد» قد فتك بالطعام فتكًا، كأنه لم يرَ في حياته طعامًا قط.

حاول «عماد» أثناء العشاء أن يلطف الجو ويسري عن «ناصف»، فأخذ في الكلام والضحك وإلقاء النكات، إلا أن «ناصف» لم يكن لديه استعدادًا للضحك؛ فاكتفى بالابتسام بين الحين والآخر.

بعد العشاء قام «سيد» إلى حجرته، فخلع الجلباب الذي كان يرتديه ونام بثيابه الداخلية الممزقة في غير موضع، وما هي إلا لحظات حتى علا صوت شخيره، وصار مسموعًا في كل غرف الشقة.

***

لمّا اختلى «ناصف» بنفسه في حجرته المظلمة، زاد شعوره بالوحشة والغربة وجفاه النوم، فجلس على الأرض مستندًا بظهره إلى الحائط. مرّ بخياله طيف أمه وأبيه، وجه أمه الجميل وملامحها الأنيقة، ووجه أبيه الطيب ذي اللحية البيضاء المنمقة، وابتسامته العطوف، فطفرت من عينيه الدموع.

تذكر كلام أبيه له ذات مرة عندما كانا في طريق عودتهما من

إحدى حلقات الذكر. كان أبوه يومها مرتاح النفس منتشيًا، فقال لـ «ناصف» وهو مغمض العينين والابتسامة لا تفارقه:

– البني آدم يا «ناصف» روح وجسم، الجسم محكوم بالمكان والزمان، لكن الروح خفيفة، مش بتوقفها حدود، ولا يحبسها مكان. أهل الله يا «ناصف» خفاف الـروح، حتى لو تباعدوا بتجمعهم المحبة، تلاقي الواحد منهم قاعد في مكانه، وروحه طوّافة، بتحوم حوالين حبايبه.

بثت تلك الذكرى في روح «ناصف» بعض الراحة، فحاول أن يتجلّد ويفكر في أي شيء غير الغربة، فسرح بخياله في مواضيع عديدة، كيف سيكون شكل يومه في الجامعة؟.. و كيف ستكون حياته في المدينة؟.. ماذا عن الفتيات؟.. الفتيات اللاتي يملأن شوارع المدينة ليل نهار، هل يقابل منهن من تشبه فتاة أحلامه، تلك التي تسكن المجلة التي جلبها معه في الحقيبة؟

هل يوجد بالمدينة «حلقات ذكر وإنشاد» كالتي يحبها؟.. كان قد حضر عدة حلقات ذكر مع أبيه بعدة مدن، إلا أن تلك المدينة الكبيرة لم تكن من بينهن.

شعر «ناصف» بروحه تهدأ، وقرر أن يكتب قصيدة جديدة،

يكون موضوعها هو «الزهد». قام فأضاء المصباح الشاحب، وفتح درج المكتب المتهالك ليحضر كراسًا يكتب فيه القصيدة، ففاجئه صرصور كبير يجري فوق الكراسات التي وضعها بالدرج منذ بضع ساعات، ففزع وأغلق الدرج بسرعة.

***

مع أذان فجر اليوم التالي، استيقظ «ناصف» الذي لم يكد يغفو إلا ساعة أو بعض ساعة على صوت طرقات خفيفة على باب حجرته، فقام محمر العينين مشوّش الفِكر مكدود الجسد من إرهاق يوم أمس. فتح الباب، فوجد «عماد» مبتسمًا نشيطًا كعادته يدعوه لصلاة الفجر بالمسجد، و بدء يومهما الطويل.

بعد الصلاة عادا إلى السكن فأعد كل واحد منهما عدته للخروج ثم خرجا يقصدان الكلية. كان الطقس لطيفًا به نسمة هواء باردة أنعشت «ناصف» و أزالت عنه إرهاق يوم أمس وتعب السهر.

كان «عماد» قد سبق «ناصف» للإقامة بالشقة منذ ما يقارب الشهر نظرًا لبُعد قريته الكبير عن المدينة التي تقع بها الكلية؛ مما أجبره على الإقامة بالمدينة حتى في فترة تقديم أوراق الإلتحاق بالكلية، لذلك فقد كان يعرف الطريق جيدًا، و أنواع المواصلات

المختلفة التي يمكن أن يستقلاها.

بمعرفته بطريق الكلية أيضًا ومعالمه البارزة، دعا «عماد» «ناصف» لتناول طعام الإفطار سويا في الطريق، ووعده بأنه سيكون فطورًا لن ينساه، وكم كان «عماد» محقًا في وعده.

كان هذا الفطور المنتظر، أمام عربة تقدم الأطعمة الشعبية، التف حولها جمع من الناس يتناولون إفطارهم وقوفًا. كان الفطور عبارة عن عدد من الأرغفة البلدية المعتادة، وطبق فول بالزيت لكل شاب من الشابين وبعض الفلافل و الباذنجان.

مهارة صانع الطعام والأجواء المحيطة شجعت «ناصف» على الأكل بشهيّة، على الرغم من أنها كانت المرة الأولى في حياته التي يتناول فيها طعامًا بهذا الشكل. وما أن وصل إلى الكلية مع «عماد» إلا وكان الطعام قد عبّر بأكثر الطرق وقاحة عن مستوى نظافته؛ إذ شعر «ناصف» بألم في معدته وحاجة ملحة لقضاء الحاجة، فسأل عن مكان المرحاض متلهفًا، وقضى هناك أغلب يومه.

بعد الظهر بساعة أو ساعتين، كان «ناصف» قد غلبه الإرهاق والتعب، وصار جفناه ثقيلان جدًا، وشعر برغبة شديدة في أخذ قسط من الراحة، فوصف له «عماد» أسرع طريقة للعودة للسكن،

بينما بقي هو في الكلية ليحضر باقي الدروس والمحاضرات.

خرج «ناصف» من الكلية مرهقًا ثقيل الرأس، فهاله الزحام الشديد بالشوارع في وقت الذروة من اليوم، ظل يحاول الظفر بمكان في أي حافلة من الحافلات التي تمر في طريقها بالسكن، إلا أنه مع قدوم كل حافلة كان الجمع الغفير من الواقفين حوله يتدافعون ويتزاحمون على باب الحافلة، حتى تمتلأ الحافلة بالركاب وتغادر دون أن يظفر بمقعد فيها.

ظل على هذه الحال حتى استطاع أخيرًا أن يظفر بمقعد في إحدى الحافلات بجوار امرأة متشككة، فما أن جلس على المقعد، وتحركت الحافلة، حتى بدأ النوم يداعب جفنيه، فظل يغفو للحظات ثم يفيق، ثم يغفو ويفيق، حتى غفا للحظة طالت، ثم أفاق فزعًا على صوت صراخ المرأة التي تجلس بجانبه. كان قد غلبه النوم والتعب فمال بجسده تجاهها وكاد رأسه أن يسقط على كتفها. وجد المرأة تصرخ فيه متهمة إياه بالتحرش بها، فظل يهمهم بعبارات غير مفهومة وهو لا يعرف ما يقول ولا كيف يدافع عن نفسه، واستعد ركاب الحافلة للفتك به، لولا أن دافع عنه رجل كبير في السن، وشهد بأنه غلبه النوم فمال رأسه تجاه السيدة دون

تعمد منه.

هدأت الأجواء في الحافلة، إلا أن «ناصف» ظل يشعر بظلم كبير؛ خصوصا مع ما ناله من إهانات وشتائم من المرأة والركاب، فطلب من السائق – وهو على وشك البكاء – أن يوقف الحافلة ليهبط منها.

كان قد اقترب بالفعل من الشقة التي يسكن فيها، فسار في طريقه – بعدما نزل من الحافلة – حزينا مكسور الخاطر يقاوم غصة في حلقة ورغبة شديدة في البكاء، وشعر حينها أن المدينة بكل ما فيها لا تختلف كثيرا عن الشقة الموحشة التي يسكنها، ليس فيها إلا كل ما هو خانق كئيب.

وصل إلى الشقة، فدخل على الفور إلى حجرته، وبدّل ملابسه على عجل، ثم تمدد على السرير وغاب في نوم طويل على الرغم من قذارة السرير ورائحة الحجرة.

***

في المساء، عندما استيقظ «ناصف»، خرج من حجرته فوجد رفيقيه كل منهما في حجرته، فذهب إلى المطبخ، وما أن همّ بتحضير بعض الطعام لنفسه، حتى وجد طعامه قد نقص الشيء

الكثير، وبينما هو يقف في المطبخ متعجبًا شعر بحركة عند باب المطبخ، فنظر إلى مصدر الحركة فرأى «سيد» واقفًا يضحك بسماجة وهو يقول:

– هو أكلك إنتَ؟.. كنت بحسبه أكل «عماد»..

فابتسم «ناصف» ولم يعلق.

في اليوم التالي كان الحِمل الدراسي خفيفًا، فعاد «ناصف» و«عماد» إلى الشقة بعد الظهر بقليل، وأخبر «عماد» «ناصف» بأن عليه أن يستريح لأنه سيعرّفه بشخص رائع بعد صلاة العصر، فدخل «ناصف» إلى حجرته، ونال قسطًا من الراحة.

بعدما أتمّا صلاة العصر بالمسجد القريب، وبينما كانا يسيران سويًا بالطريق، أخبر «عماد» «ناصف» بأن الشخص الذي يريد أن يعرفه عليه، يدعى الشيخ «عبدالله». كان «عماد» قد تعرّف عليه عندما كان يصلي ذات مرة بأحد المساجد القريبة، حيث ألقى الشيخ على الحاضرين درسًا فقهيًا بعد الصلاة. أحب «عماد» طريقة الشيخ في توصيل المعلومة ببساطة وتمكنه من العلم الشرعي، فتعرّف عليه بعد الدرس، ثم أصبح من يومها يحضر كل الدروس التي يلقيها بالمسجد بعد الصلاة.

وصل «ناصف» بصحبة «عماد» إلى المسجد الذي يقصدانه، فخلعا نعليهما ودخلا، كان المسجد شبه مظلم، يغطي أرضيّته فرش متواضع خشن، وعلى يمين الداخل من الباب توجد دورة مياه تفوح منها رائحة العطن.

وبينما كان «ناصف» و«عماد» يتحسسان طريقهما بإتجاه بقعة النور الوحيدة بالمسجد التي صنعها ضوء الشمس الواهن المتسلل من إحدى النوافذ ويجلس في وسطها الحاضرون لحلقة الدرس، سمع «ناصف» صوتًا هادئًا آسرًا له نبرة مميزة، كلما سمعت منه أحببت لو تسمع أكثر، كان الصوت يقول:

– قال النبيّ صلى الله عليه وسلم «حُفت الجنة بالمكاره».. «وحُفت النار بالشهوات».. صدق رسول الله،.. وسلعة الله غالية يا أحباب.. ألا أن سلعة الله غالية، ألا أن سلعة الله الجنة.. إياك أن تظن يا حبيب أن الطريق للجنة مفروش بالحرير، إنما طريق الجنة محفوف بالابتلاءات، والتمحيص....

كان ذلك الصوت، هو صوت الشيخ «عبدالله» نفسه، ذلك الذي كان يجلس على الأرض متربعًا بينما يجلس أمامه عدد قليل من الناس، صاروا سبعة بعدما انضم إليهم «ناصف» و«عماد».

كان الشيخ «عبدالله» في أواخر الثلاثينات من العمر، له ملامح مريحة، يرتدي نظارة طبية سميكة العدسات، تظهر من خلفها عيناه كنقطتين صغيرتين، مما أعطاه منظرًا لطيفًا مضحكًا، خصوصا مع ابتسامته الودود الدائمة التي تكشف عن أسنانه الطفولية المتباعدة.

التقت عينا «الشيخ» بعيني «عماد» - أثناء الدرس - فابتسم، ثم التقت عيناه بعيني «ناصف» فضحك ضحكة طفولية واسعة، تعجّب منها «ناصف»، كانت ضحكة من يعرف الشخص منذ زمن بعيد.

كان يكسوه الهدوء والتعقل، يصمت بين الحين والآخر ليضبط الكلام قبل أن يلقيه، ولم يكد يمضي بعض الوقت حتى تيقن «ناصف» من صحة ما قاله «عماد» بشأن الرجل، من أنه متمكن من العلم، ومن أنه شخص رائع.

بعد الدرس انصرف الحاضرون، وقام الشيخ «عبدالله» من مجلسه فسلّم على «عماد»، و«ناصف» بحفاوة وابتسامة واسعة.

- ده «ناصف» يا شيخ «عبدالله».. زميلي في الكلية.. وفي السكن..

- يا أهلًا يا أهلًا.. بالحبايب..

قالها الشيخ ثم احتضن «ناصف»، فازداد عجب «ناصف» من

حفاوة الرجل وترحابه.

تأبط «عبدالله» ذراعي «عماد» و«ناصف» واتجه بهما إلى باب المسجد فخرجوا جميعا، حين شعر «ناصف» بحركة خلفه تأتي من داخل المسجد، فالتفت ونظر ورائه فرأى رجلًا كبيرًا في السن، له وجه مليء بالتجاعيد، ولحية بيضاء طويلة غير مهذبة يهرول ناحيتهم محني الظهر.

أدرك حينها «ناصف» أن الرجل كان بالمسجد طوال الوقت، إلا أنه كان يختلي بنفسه في أحد الأركان المظلمة فلم يره وقت الدرس. نادى الرجلُ الشيخ وسأله إذا كان سيغادر إلى بيته.

قدّم الشيخ الرجل العجوز إلى «ناصف» قائلًا:

– ده عم الشيخ «صديق» يا شيخ «ناصف».. عمّنا كلنا..

ابتسم «صديق» خجلًا ثم صافح «ناصف» بيدٍ نحيلة. لاحظ «ناصف» رقة حال العم «صديق» التي تظهر من ضعف جسده وقِدم ملابسه.

نظر العم «صديق» إلى الشيخ وهو يبتسم ابتسامة واسعة ثم همس سائلًا بلهفة:

– عملتوا القــُرَص؟..

فضحك «الشيخ» وقال له بصوت خفيض:

– سبت أم «أحمد» بتعمل فيهم قبل ما أنزل.. بإذن الله أجيبلك ع المغرب..

انفرجت أسارير «عم صديق» وبَـشّ.

سار «ناصف» مع «عماد» والشيخ الذي لا يزال متأبطا ذراعيهما، باتجاه منزل الشيخ الذي أصر أن يستضيف «ناصف» في منزله ويرحب به.

قال الشيخ مخاطبا «ناصف»:

– عمّ «صديق» ده يا شيخ «ناصف» راجل طيب.. بتاع ربنا.. نحسبه على خير والله حسيبه، بيأذّن في المسجد وينظفه، و يقضي أغلب يومه فيه.. مكنش له غير مراته رحمها الله.. كانت كبيرة في السن برضه، يمكن أكبر منه، وكانت مريضة.. فضل يخدمها لحد ما توفاها الله.. وبقى عايش لوحده..

– يعني مش بيشتغل؟..

– هو كبير في السن، صحته مش مساعدة.. وله معاش بسيط..

شعر «ناصف» بإرتياح كبير تجاه الشيخ «عبدالله» منذ الوهلة الأولى، حتى إذا ما وصلوا جميعًا إلى بيت الشيخ شعر «ناصف»

بأن البيت يشبه صاحبه كثيرا. كان البيت عبارة عن شقة تقع في الدور الأرضي من بناية متواضعة، وكان باب الشقة مفتوحًا.

أول ما شد انتباه «ناصف» كانت رائحة المخبوزات الشهية الطازجة التي تخرج من الشقة وتملأ أرجاء البناية ومدخل البيت. وقف «ناصف» و«عماد» أمام باب الشقة بالخارج وأفسحا المجال للشيخ ليدخل وينبه أهل الدار بأن معه ضيوف.

استطلع الشيخ الطريق ثم دعا الشابين للدخول، فدخلا حيث أشار لهما في أول حجرة على يمين الداخل من باب الشقة الخارجي. كانت حجرة ذات أثاث بسيط مريح، على الأرض بساطًا يدوي الصنع وفي الأركان أريكتين خشبيتين، أما عن حوائط الحجرة فكانت جميعها مغطاة بالكتب من الأرض وحتى قرب السقف. هال «ناصف» كمية الكتب الموجودة بالحجرة، وسأل نفسه هل قرأ الشيخ كل هذه الكتب؟..

وكأنما كان الشيخ يقرأ أفكاره، قال له مبتسمًا:

– أيوة يا عم انا قريت الكتب دي كلها.. أنا جاوبتك أهه قبل ما تسأل السؤال اللي كل اللي شافوا المكتبة سألوه..

ثم استأذن منهما قبل أن يغادر الحجرة قائلا:

– البيت بيتكم يا شباب.. انا لحظة وجاي.. خد راحتك يا «ناصف» وبص على الكتب.. ممكن كمان تستعير منها اللي يعجبك..

كان «ناصف» ينتظر هذه الدعوة على أحر من الجمر، فقام من فوره إلى الكتب يتفحصها، وقام معه «عماد» ليساعده. لاحظ «ناصف» أن الكتب مصنّفة لمجموعات حسب الموضوع، وكل مجموعة من الكتب تنتمي لنفس الفرع من الثقافة كانت مرتبة أبجديًا حسب العنوان.

دخل الشيخ «عبدالله» الحجرة بعد قليل حاملا صينية عليها أكواب الشاي وطبق كبير به العديد من أشكال المخبوزات الطازجة زكية الرائحة، ومن خلفه دخل طفل صغير لطيف. قال الشيخ مخاطبا الشابين:

– يلا يا شباب.. بسم الله.. إنتم محظوظين إنكم شرفتونا في وقت خروج القُرص من الفرن،.. الأستاذة أم «أحمد» زوجتي أشطر واحدة بتعمل المخبوزات في العالم.

ثم وجه حديثه إلى الطفل قائلا:

– سلم يا «أحمد» على أعمامك..

سلم الطفل على الشابين بأدب، ثم تناول كل من الشابين كوبًا

من الشاي وبعضا من المخبوزات. كانت المخبوزات رائعة فعلا.

– لقيت كتب تعجبك يا «ناصف»؟..

رد «ناصف» وهو يقلب بين كفيه كتابًا:

– لقيت كتير.. انا هستعير المكتبة كلها..

– المكتبة كلها تحت أمرك بس انت سِد..

– انا كمان لقيت روايات ودواوين شِعر..

ابتسم الشيخ «عبدالله» وقال لـ «ناصف» واصفًا نفسه:

– أخوك غاوي..

– أنا كمان غاوي شِعر..

– بصرة يعني.. بتكتب بقى و الا بتقرأ بس؟..

تلعثم «ناصف» وأجابه كاذبًا بدافع الخجل:

– بقرأ بس..

شعر «ناصف» بالراحة في بيت الشيخ للمرة الأولى منذ وطأت قدماه أرض المدينة الكبيرة، وأحس بطاقة محبة تجذبه ناحية البيت الدافئ وصاحبه.

***

في اليوم التالي، جلس «ناصف» مع «عماد» و«سيد» في السكن يتناولون غداءًا متأخرا، قبل غروب الشمس بقليل، كانت كراهية «ناصف» لـ «سيد» قد ازدادت كثيرا حتى أنه لم يعد يطيق رؤيته، خصوصًا بعدما أصبح حقد «سيد» عليه ظاهرًا بفجاجة، ذلك الحقد الذي كان يطلقه في شكل مزاح سمج لم يرحب به «ناصف»، إلا أن «عماد» ظلّ يصر دومًا على أن يتناولوا الطعام معًا ليشعر أن الأمور بينهم جميعا تسير على ما يرام.

كان طعام «عماد» قد نفذ تقريبا، وأغلب ما كان على الأرض أمامهم من طعام كان من الأكل الذي جلبه معه «ناصف» من القرية.

قال «سيد» بفم مليء بالطعام وهو يفسخ دجاجة إلى نصفين:

– بس من امتى العِز ده كله يا «عماد».. أكل معتبر وكل يوم ظَفَر..

رد عليه «عماد»:

– أنا الأكل اللي جبته خلص، العِز ده من عند «ناصف»..

نظر «سيد» إلى «ناصف» بسماجة وقال وهو يلوك الطعام:

– طبعا ما انت أبوك شيخ البلد.. واكلينها والعة يا ولاد الغوازي..

توقف «ناصف» عن الأكل مصدومًا، ونظر إلى «سيد» نظرة نارية وقد استبد به الغضب، كانت تلك هي المرة الأولى التي يتجاوز فيها «سيد» في مزاحه السخيف لدرجة أن يذكر والديّ «ناصف» بالسوء.

وقبل أن يفهم «سيد» ما يجرى، كان ظهر كف «ناصف» قد صفعه صفعة عاتية أطارت الأكل من فمه، وقبل أن يتخذ أي رد فعل، وجد «ناصف» يطير بإتجاهه ويبرك فوقه، ويكيل إليه اللكمات، ويمسك برأسه يضربه بالأرض بعنف.

ظل «عماد» متسمرًا في مكانه والطعام في فمه لا يعي ما يجري أمامه ولا يعرف كيف تطورت الأمور بهذه السرعة، حتى رأى الدم يتطاير من وجه «سيد» ورأسه، ورأى إمارات الشر على وجه «ناصف» الذي كان قد خرج تمامًا عن سيطرة نفسه ولا يدرى بما يفعله.

قام «عماد» إليهما بسرعة وحاول أن يبعد «ناصف» عن «سيد»، إلا أن كل محاولاته باءت بالفشل، فقد كان «ناصف» مصمما كالموت، حتى شعر «عماد» بأن «ناصف» على وشك قتل «سيد» بالفعل، فحشر نفسه بين «ناصف» و«سيد» وأخذ يدفع «ناصف» بكل ما أوتي من قوة، حتى استطاع أخيرًا أن يبعده قليلًا.

ما أن وجد «سيد» مجالًا للهرب، حتى جرى إلى باب الشقة وخرج راكضًا وهو يسب ويلعن غير مصدق أنه قد نجا من غضبة «ناصف» العاتية تلك.

استلقى «عماد» على الأرض وقلبه يكاد يتوقف من فرط الإنفعال والمجهود المفاجئ، بينما جلس «ناصف» على مسافة منه و عيناه تتحركان بجنون وأنفاسه تضطرب، بينما يحاول أن يستوعب ما جرى ويلملم شتات نفسه.

قال «عماد» بأنفاس متقطعة:

– في ايه يا «ناصف».. كنت هتموته.. إنت مستحيل تكون طبيعي.. انت راكبك عفريت..

نظر إليه «ناصف» نظرة نارية، ولم يرد.

وبينما هما جالسان على الأرض يلتقطان أنفاسهما، عبر «سيد» إلى الشقة راكضًا وهو لا يزال ينزف من وجهه ورأسه، ومعه جنديان استقدمهما من نقطة الشرطة القريبة من الشقة، فما أن دخلوا إلى الشقة، حتى أشار «سيد» إلى «ناصف» وهو يصرخ:

– هو ده.. هو ده اللي كان عاوز يموتني..

انقض الجنديان على «ناصف» وقيّدا يديه، ثم اقتاداه إلى

القسم، وهو لا يزال مذهولًا لا يكاد يعي بما يجري.

***

جلس «ناصف» في حجرة التحقيق بنقطة الشرطة على دكة خشبية، ويداه مقيدتان بالأصفاد الحديدية وقد عاد إليه روعه، وأدرك جسامة ما فعل. كانت أفكار كثيرة تصطرع في رأسه، وكل فكرة أسود من أختها. هل سيوضع في الزنزانة مع المجرمين بعد التحقيق؟.. هل سيُسجن لعدة سنوات؟.. ماذا يكون وقع ما يجري له على والديه؟.. هل يمكنه أن يتصل بهما بأي شكل؟.. هل يخبرهما أصلا بما يجري؟..

كان يفكر في ذلك عندما دخل إلى حجرة التحقيق «عماد» مهرولًا ومعه الشيخ «عبدالله». نظرا حولهما حتى وجدا «ناصف» فأسرعا إليه وجلسا إلى جواره.

قال له الشيخ بسرعة:

– اطمئن يا «ناصف» انا جبت الأستاذ «فرج» المحامي.. وبأمر الله يقدر يعمل حاجة..

نظر إليه «ناصف» للحظات ثم سالت دموعه على وجنتيه، فاحتضنه الشيخ وهدّأ من روعه.

ظل «ناصف» لعدة ساعات في غرفة التحقيق لم يفارقه خلالها الشيخ أو «عماد»، ولم يحقق معه أحد، حتى جائهم الأستاذ «فرج» المحامي فقاموا جميعًا إليه بلهفة، فأخبرهم بأنه قد استطاع بعد الكثير من الضغط والمحاولات أن يثني «سيد» عن فكرة ترجمة شكواه الشفهية إلى محضر رسمي بالتعدي، وأنه أخبر الضابط المسئول أنها كانت مجرد مشاجرة متبادلة بين الشابين، بدأها «سيد» بنفسه بسباب والديّ «ناصف» والتعدي عليه. ثم أخبرهم بأنه سيستكمل محاولاته للإفراج عن «ناصف» في أسرع وقت.

بعد منتصف الليل بقليل جاء أحد الجنود واصطحب «ناصف» إلى حجرة الضابط، الذي وجه لـ «ناصف» بعض عبارات اللوم والتأنيب في وجود الأستاذ «فرج» المحامي، وأخبره بأنه قد رأف بحالته لحداثة سنه وحرصا على مستقبله، و لأن «سيد» كان قد استفزه هو الآخر، ثم هدده وهدد «سيد» بالحبس وإتخاذ الأمر بشكل رسمي إذا ما تكرر الأمر.

ثم أمر أحد الجنود بفك الأصفاد الحديدية عن يدي «ناصف» وإطلاق سراحه.

خرج «ناصف» من القسم صامتا مكتئبا مع الشيخ «عبدالله»

و«عماد»، ولم يفارقه الشيخ حتى أوصله إلى الشقة، وترجاه ألا يحتك بـ «سيد»، فأومأ «ناصف» برأسه صامتًا.

ما أن اختلى «ناصف» بنفسه في حجرته المظلمة، حتى جلس على الأرض مذهولًا يحاول استيعاب كل ما جرى له منذ لحظة قدومه إلى المدينة الكبيرة، وشعر أنه قد مرّ عليه هنا سنين طويلة، لا مجرد بضعة أيام.

مدينة مزدحمة كئيبة، وطعام مغشوش، وشقة قذرة موحشة، وصحبة «سيد» الحاقد الدنئ، واتهامات كاذبة بالتحرش بإمرأة، وأخيرا مشاجرة دامية كادت تتطور لجريمة قتل تنهي مستقبله تمامًا.

استبد بـ «ناصف» شعور مرير بالانهزام والفشل، وشعر بوحشة شديدة واشتياق إلى قريته وبيته وأبيه وأمه وحياته الهادئة الهانئة، قبل أن يعرف طريق تلك المدينة الكئيبة الموحشة.

وقبل الفجر بقليل كان قد حزم أمره، فقام وجمع أغلب ملابسه وكتبه التي جاء بها من بيته في حقيبة كبيرة، ووضع الكتب التي كان قد استعارها من الشيخ «عبدالله» على المنضدة وفوقها خطاب كتبه إلى «عماد»، يودعه فيه ويطلب منه أن يعيد الكتب إلى الشيخ.

ثم ترك خطابًا آخر مع الكتب، كتب عليه من الخارج «يُسلم إلى

يد الشيخ عبدالله».. كتب فيه:

«شيخي الحبيب..

بعد التحية،

أعتذر لك عما سببته لك من متاعب، واعتذر لك عن عدم قدرتي على الاستمرار في تلك المدينة الكئيبة الموحشة، وعن أني قد خيبت ظنك الطيب بي..

يعلم الله أني ما تمنيت يومًا خسارة صحبتك، لكن ذلك كله كان أكبر مني.. اذكرني في دعائك.. و لتجمعنا المحبة.

تلميذك المحب،

ناصف سليم»

ترك الكتب والخطابين، وحمل حقيبته الكبيرة وحقيبته الصغيرة التي جاء بها من قريته حاملًا إياها في يده، ثم خرج من حجرته دون جلبة. كانت الحجرتان الأخرتان مغلقتين على رفيقي سكنه فخرج من الشقة وأغلق الباب خلفه في هدوء.

ومع أول شعاع شمس في اليوم الجديد، كان «ناصف» قد استقل الحافلة عائدًا إلى قريته.

كان يجلس في مقعد خلف سائق الحافلة مباشرة محتضنا

حقيبته الصغيرة، بعدما ربط السائق حقيبته الكبيرة إلى سقف الحافلة، وبجواره نافذة زجاجية تظهر من خلفها – في ضوء النهار الطفل – الحقول والأشجار وهي تتسابق على جانب الطريق.

بعدما استرخى جسده في المقعد قليلًا، بدأ التعب والإرهاق يستبدان به، فأخذ يغيب في النوم للحظات ثم يفيق فيتابع الأشجار على جانب الطريق من النافذة، ثم يغيب ويفيق، وبينما هو على هذه الحال، بين نوم وإفاقة، وبين حلم ويقظة، رأى الشيخ «عبدالله» يرتدي رداءًا أبيض ويمتطي جوادًا بنفس اللون يسابق به الريح في الحقل البعيد، يجري في نفس اتجاه سير الحافلة باتجاه قرية «ناصف». أخذ الجواد يجرى ويجرى، حتى سبق السيارة واختفى بالشيخ في الأفق البعيد.

* * *

-٦-

وصل «ناصف» إلى قريته في الصباح، فتوجه إلى بيته مباشرة. وجد باب الدار مفتوحًا كعادتهم في النهار، فدخل إلى صحن الدار يحمل حقيبتيه، فما أن رأته أمه حتى قامت إليه جريًا، فألقى حقيبتيه على الأرض واحتضنها وقبّل يديها.

لمح دموعًا في عيني أمه على غير العادة، ما لبثت أن دارتها بسرعة.

– ايه يا وله إجازة بسرعة كده؟..

قالتها أمه، فابتسم ولم يعلق.

دخل إلى حجرته فوضع حقيبتيه وخرج، وسأل أمه عن أبيه، فأخبرته أنه في «الغيط».

– هاروح أسلّم على أبويا..

– طب اقعد كل لقمة تلاقيك مش فطرت..

– هاروح له الغيط أجيبه ونيجي ناكل سوا..

خرج «ناصف» من الدار متجهًا إلى الحقل وهو يشعر بتحسن نفسي كبير. بدأ هذا التحسن منذ وطأت قدماه أرض القرية من جديد. وصل إلى أطراف الحقل، فرأى أباه من بعيد يقف مع رجلين من العاملين بالحقل، فأصابته دهشة كبيرة وهو يلاحظ التغيرات التي طرأت على أبيه، تلك التغيرات التي حدثت ببطء في سنوات عديدة إلا أن «ناصف» لم يلاحظها من قبل عندما كان يعيش مع أبيه وأمه، ويراهما كل يوم.

لاحظ نحول أبيه، صحيح أن أباه كان دائمًا زاهدا في الطعام يأكل أقل القليل، إلا إنه قد ازداد نحولًا. كتفاه أيضا أصابهما وهن وانحناء، كذلك ظهره. لاحظ «ناصف» أيضًا أن أباه أصبح أكثر تشبثا بعصاه كأنه يحتاجها حقًا ليستند عليها ويقف، لا يحملها في يده كنوع من الوجاهة كما كان في الماضي.

لمحه أبوه قادما إليه، فترك الرجلين وأسرع نحوه، ألقى «ناصف» بنفسه بين ذراعي أبيه، فاحتضنه أبوه وبكى.

- إيه المفاجأة الحلوة دي يا وَله..

- إيه رأيك بقى يا حج «سليم»؟..

ضحك أبوه وأجابه قائلًا:

- لا دي حركات سيما دي..

نظر «ناصف» إلى وجه أبيه مليًا بينما كان أبوه يكفكف دمعه في خجل ويحاول أن يتظاهر بالتماسك. لاحظ «ناصف» التجاعيد التي غزت وجه أبيه الحبيب بكثافة، إلا أنه على الرغم من القلق الذي زاره عندما لاحظ كِبَر أبيه، ملأت الراحة قلبه عندما رأى ابتسامة أبيه من جديد، ووجهه الطيب المشرق، الذي يحيط به شعره الأبيض المصفف بعناية كعادته ولحيته البيضاء الخفيفة كأنهما يصنعان هالة من نور تحيط بوجهه.

بينما كان يسير مع أبيه متأبطًا ذراعه بإتجاه الدار، استكمل «ناصف» استكشافه لأبيه من جديد، فلاحظ أن لأبيه رائحة مميزة، رائحة هي خليط من المسك الذي يجلبه خصيصًا من حيّ الحسين بالقاهرة، ورائحة الشمس، إن كان للشمس رائحة.

في المساء، وبعدما تناولت الأسرة طعام العشاء، وبينما لازالوا جميعا جالسين على الأرض حول «الطبلية»، قال «ناصف» ما أراد قوله لأبيه وأمه منذ عاد إلى القرية، لم أستطع التأقلم بالمدينة، لن أعود إلى هناك ثانية.

حلّ الوجوم بأبيه وأمه، إلا أن أمه كانت الأسرع في الرد

فانفجرت فيه قائلة:

– جرى ايه يا ناصف.. هو انت لحقت؟.. دول أربع.. خمس تيام.. إيه اللي جرى يعني!..

حاول «ناصف» التعبير عن الشعور الذي تولّد لديه بسبب ما جرى له خلال الأيام التي قضاها بالمدينة، ويسوق التبريرات، إلا أن أمه لم يكن لديها استعدادًا لقبول أي تبرير.

– مش تضحـّك علينا اللي يسوى واللي ميسواش يا «ناصف».. مش إبن «نرجس» اللي يقول غُلُبت..

قالتها وهي تقوم وتحمل الأطباق إلى الداخل، ثم وجهت حديثها لأبيه الصامت حتى الآن وقالت:

– آخرة دلعك فيه ياخويا.. طالع خِرع أهه..

أخذه أبوه من يده فجلسا على أريكة عالية، ثم نظر إليه بحنو وقال:

– احكي لي يا «ناصف» إيه اللي جرى؟..

حكى له ناصف بعضًا من الأحداث المؤسفة التي جرت له بالمدينة الكبيرة، إلا أنه خجل أن يحكي قصة الاتهام بالتحرش، فقال «مشاجرة بالحافلة» ولم يذكر السبب.

ابتسم أبوه وقال:

– طب ده الوحش.. مش حكيت لي ع الحلو.. مش كان في أي حاجة حلوة؟..

حكى له «ناصف» عن شغفه بمواد الكلية، وعن «عماد» وعن الشيخ «عبدالله» و بيته ومكتبته والمخبوزات التي تصنعها زوجته، وطفله الجميل «أحمد»، و«عم صديق» الطيب، بينما كان أبوه يسمعه باهتمام حتى أنهى حديثه، فقال له أبوه:

– سبحان الله.. ربنا له في الدنيا دي موازين.. كل ما يزيد الشر لازم يزيد الخير.. زي ما قابلتك شدايد.. قابلك ناس طيبين ومعارف خير.. ربك دايما يحادي باللطف. أنا قلبي كان حاسس بيك انك مش مرتاح.. وشوفت في الرؤيا إنك في كرب.. وكنت هاموت واطمن عليك. عموما مش في حد هيجبرك على حاجة انت مش عاوزها. انا بس ليا غرض.. إنسى كل حاجة وريّحلك يومين.. ولما تهدى وتعرف تفكر برواقة إبقى شوف اللي يريحك.

قالها ثم ربّت على كتف «ناصف» وقام إلى حجرته وهو يقول بصوتٍ عالٍ:

– يا أنوار الله..

جلس «ناصف» وحيدًا بصحن الدار لبعض الوقت، ثم قام إلى حجرته هو الآخر.

❋❋❋

مكث «ناصف» بالقرية ثلاثة أيام مارس خلالهم روتينه القديم الذي اعتاد عليه قبل السفر إلى المدينة الكبيرة، فشعر خلال تلك الأيام بتحسن نفسي كبير، واستقر في نفسه أنه لن يعود إلى المدينة ثانية مهما تكلف الأمر.

وفي اليوم الرابع، وبعدما أدى صلاة الظهر، جلس بالمسجد يختم الصلاة، ويسبح الله ويحمده، عندما شعر بيدٍ توضع على كتفه. التفت لذلك الآتي وهو لا يزال جالسا، فوجده «عماد».

اعترته دهشة كبيرة وهو يقوم من مكانه ويسلم على «عماد» الذي كان يبتسم له كعادته، ثم احتضنه.

– جيت البلد ازاي يا «عماد»؟.. تعبت نفسك..

– ما انت كنت قايلي على اسم البلد، واللي يسأل ما يتوهش.. انا مجتش لوحدي..

وأشـار بإتجاه بقعة من المسجد، فرأى «ناصف» الشيخ «عبدالله» والعم «صديق» وهما يصليان الظهر في جماعة، فذهب

إلى جوارهما مع «عماد»، فلما أتمّا صلاتهما، سلّم عليهما بحفاوة كبيرة، ثم أخذ ضيوفه وذهب إلى أبيه الجالس يقرأ القرآن ببقعة نائية من المسجد.

ما أن رأى «سليم» ولده قادمًا إليه ومعه ضيوفه، حتى قام إليهم مسرعًا رغم صعوبة حركته، فسلّم على الضيوف ثم قال:

– طبعا ده «عماد».. اني عارفـُه.. وده الشيخ «عبدالله».. وده «صديق» الراجل الطيب..

ابتسم الشيخ وقال:

– ما شاء الله عرفتنا ازاي؟..

– «ناصف» حكى لي عنكم.. الناس الطيبين.. أهل الله..

خرج الجمع مع «ناصف» والحاج «سليم» بإتجاه «دوار» الحاج «سليم».

قال «عم صديق» لـ«ناصف» وهو يسير بصعوبة منحنيا كالعادة:

– قوام كده زهقت مننا يا شيخ «ناصف»؟..

فقال «ناصف» بسرعة:

– أبدا والله يا عم «صديق»، ربنا يعلم محبتكم عندي..

مال الشيخ «عبدالله» على أذن «ناصف» وقال بصوت خفيض:

– ابوك شكله راجل واصل.. بينه وبين ربنا عمار.. له مهابة ومحبة ربنا وضعها له بين الناس، فيدخل القلوب بلا استئذان.

❋❋❋

بعدما استراح الضيوف من عناء السفر، أقام لهم الحاج «سليم» وليمة عظيمة، تكفي قبيلة من البشر. فجلسوا جميعا على الأرض حول عدد من «الطبالي» المتلاصقة. على رأس الموائد جلس الحاج «سليم» وعلى يمينه «ناصف»، ثم «عماد»، وعلى يساره الشيخ «عبدالله» ثم العم «صديق».

أكل «ناصف» بشهيّة خصوصا مع وجود «عماد» صديقه، كذلك أكل العم «صديق» بأقصى ما سمحت له حالة أسنانه المتهالكة وبدا عليه الفرح والنشوة بتلك الوليمة المعتبرة التي ضمّت من أصناف الأكل ما كاد ينساه، وما لم يتذوقه قط. أما «عبدالله» فكان يأكل على استحياء ويتبادل أطراف الحديث مع الحاج «سليم».

بعد الغداء، رُفعت الصحاف بما تبقى عليها من طعام، وجلس الجميع على الأرائك، وجيئت بالمشروبات الساخنة، فتناول كل منهم كوبًا مما يشتهيه من المشروبات.

أثناء تناول المشروبات وتبادل أطراف الحديث، أخبر «الحاج

سليم» الجمع بأن هناك فرمانًا منه هو شخصيًا أن يقيم الضيوف معهم بالقرية لعدة أيام، وعليهم أن ينسوا فكرة العودة للمدينة الكبيرة في هذا اليوم تمامًا.

حاول الضيوف بدافع الخجل والمشاغل إقناع الحاج «سليم» بإطلاق سراحهم، إلا أنه كان مصممًا على ما قرر، فلم يقبل في هذا الأمر أي نقاش.

وكي يكون ضيوف «ناصف» على راحتهم، قرر الحاج ألا تكون إقامتهم في حجرة المسافرين بالدوّار، وإنما بالإستراحة التي كان قد بناها منذ فترة وجيزة على أطراف البلدة تحت ضغط من زوجته المصون المُحبة للتفاخر.

كانت الاستراحة عبارة عن بيت فسيح من طابقين. الأرضي به العديد من الحجرات، بينما تحتل أغلب مساحة الطابق العلوي مساحة مسقوفة مفتوحة على شرفة واسعة، تطل على حديقة الاستراحة. بينما يحيط بالإستراحة ككل سور أنيق. كانت الإستراحة تطل على الترعة الكبيرة التي تمر على أطراف القرية ومن خلف الترعة تظهر الحقول والمساحات الزراعية المفتوحة.

عندما خرج الضيوف من «مندرة» الدوّار مع الحاج «سليم»

و«ناصف» الذي قرر أن يقيم معهم بالإستراحة طوال فترة إقامتهم بالقرية، انفرد الحاج «سليم» بالشيخ «عبدالله» وتحدثا بصوت خفيض أثناء إتجاه الجمع للاستراحة، فتناقشا في أمر رغبة «ناصف» في البقاء بالقرية وعدم استكمال دراسته بالكلية.

فطمأن الشيخُ الحاج «سليم» أنه فور أن تسلّم خطاب «ناصف» الذي تركه له، بحث له عن سكن آخر حتى يبتعد عن الذكريات والأشخاص الذين مثّلوا سببًا كبيرًا في كراهية «ناصف» لحياة المدينة ونفوره منها، وبالفعل نجح في العثور على سكن مناسب بالقرب من منزله، ليكون «ناصف» في كنفه، حتى أن «عماد» قرر أن ينتقل مع «ناصف» ويترك الشقة لـ «سيد».

ثم طمأنه أنه قد عزم على عدم العودة إلى المدينة إلا و«ناصف» معه.

عندما حانت صلاة المغرب بمسجد القرية، قدّم الحاجُ «سليم» الشيخ «عبدالله» ليصلي بالناس إمامًا، فصلى الشيخ حتى أتمّ الصلاة، فانتقل الحاج من الصف الأول إلى جواره وقدّم الشيخ لجموع الحاضرين بالمسجد من أهل القرية بصفته عالم رباني، منحه الله من العلم والمعرفة ما شاء، وأخبر أهل القرية بأن الشيخ ضيفه، وأنه سيمكث معهم بالقرية لعدة أيام، فمن كان له في الدين

مسألة فليتقدم بها للشيخ.

مكث الشيخ بالفعل من بعد صلاة المغرب إلى وقت صلاة العشاء بالمسجد يجيب على أسئلة الحاضرين، حتى صلى العشاء بالناس إمامًا، ثم توجه الضيوف بصحبة «ناصف» وأبيه إلى الإستراحة، فما أن وصلوا واستقروا بها، حتى دعاهم الحاج للصعود إلى شرفة الدور العلوي الفسيحة، فلما صعدوا واستقروا وُضع طعام العَشاء، وبعد العَشاء كانت جلسة سمر طويلة، حكى لهم خلالها الحاج الكثير من تاريخ القرية والعائلات بها، والكثير عن حياته واستمع لهم، حتى قارب الليل على الانتصاف، فودعهم الحاج بعد أن اطمئن على استقرار كل فرد منهم بحجرة من حجرات الإستراحة، عدا «عماد» الذي قرر «ناصف» أن يبيت معه بنفس الحجرة ليستكملا السهر والدردشة.

عند باب الإستراحة الخارجي وقف الشيخ «عبدالله» وحيدا يودع الحاج «سليم» ويشكر له حسن الضيافة والكرم البالغ، فقال له «الحاج»:

– مش هوصيك بقى، «ناصف» عايزين نلين دماغه..

– اطمن يا عمي الحاج، اعتبر الأمر منتهي بإذن الله..

– ربنا يطمن قلبك يا «عبدالله» يابني.. انت تعرف ان لو ربنا كان كتب لي الذرية من المرحومة الحاجة «فوزية»، مراتي الأولانية، كان زمان عندي إبن قدك كده؟..

ابتسم الشيخ في مودة، وقال:

– ربنا العالم بمحبتك في قلبي والله يا عمي من ساعة ما قابلتك.. انا يشرفني تكون والدي..

ابتسم الحاج بدوره وقال:

– القلوب عند بعضها يا حبيبي.. ابقى ادعي لي دايما.. وانا هدعيلك.. تحب ادعيلك بإيه؟..

– ادعيلي ربنا يأذن لي بالحج، بقالي سنين بأسعى إني أحج وماتوفقتش..

– يا سيدي يارب تحج.. بس إبقى ادعيلي وانت هناك..

ابتسم الشيخ وقال:

– اكيد طبعا.. ربنا يتقبل منك يا عمي ويزيدك من فضله.

ربّت الحاج على كتف الشيخ، ثم استدار متجهًا إلى بيته، فوقف الشيخ يتابعه بنظره حتى غاب، فاستدار داخلًا إلى الإستراحة.

***

كان الكثير من البشر يطوفون بملابس الإحرام حول الكعبة المشرفة ملبيين، وصوت التلبية يصل إلى أذن الشيخ «عبدالله» متناغما رخيما ثم يعبر منها إلى روحه فترتفع إلى سماوات رحيبة. كان الشيخ يطوف مع الطائفين حول الكعبة مرتديا زي الإحرام، وهو يضع كفه على كتف أبيه الذي يسبقه في الطواف حتى لا يفقدا أثر بعضهما البعض في الزحام.

وبينما هو يطوف تذكر الشيخ أن أباه كان قد مات منذ زمن طويل فتعجب!. من ذلك الذي يسبقه إذا في الطواف، والذي استقر في وجدانه أنه أبوه؟. ربّت الشيخ برفق على كتف ذلك الذي يسبقه، فالتفت الرجل إليه ببطء، فوجده الحاج «سليم»، كان ينظر إليه ويبتسم.

استيقظ الشيخ من نومه عند تلك اللحظة، فجلس في سريره ونظر حوله مستغربا المكان للحظات، ثم بدأ يستعيد ذكريات اليوم الماضي ويعي وجوده بإحدى حجرات الإستراحة بقرية «ناصف».

تذكر تفاصيل الرؤيا التي رآها للتوّ أثناء نومه، وصوت التلبية لا يزال يتردد في وجدانه متناغما رخيما، فتمتم بصوت خفيض:

– لا إله إلا الله.. يا بركة الله.. اللهم صلِ على سيدنا محمد..

***

في الصباح اصطحب «ناصف» الضيوف في جولة بالأرض الزراعية المملوكة لأبيه، ومزرعة الفواكة كذلك، تلك المزرعة التي تعتبر درة أملاك أبيه وأملاك القرية؛ إذ لم يكن لها مثيلًا لا في قريتهم ولا في القرى المجاورة من حيث مساحتها وإنتاجيتها وجمالها.

وبينما كان الجمع بالحقل، جذب الشيخ «عبدالله» «ناصف» برفق وسارا بخطوات وئيدة بعيدا عن مرافقيهما. ففاتح الشيخُ «ناصف» في أمر العودة إلى المدينة ليستكمل دراسته. بدأ بأن سأله برفق عما ينتوي عمله في ذلك الأمر، فتنهد «ناصف» ولم يرد، فقال الشيخ:

– أنا عارف أن الأمور كانت صعبة، وأي حد في مكانك هينفر من البلد والجو وهيبعد.. بس انت مش أي حد. لو انت مكملتش في الجامعة مين يكمل يا «ناصف»؟.. معلش كل شيء في أوله صعب.. وبعدين احنا كلنا معاك ومش هنسيبك.. زي ما انت شايف.. جينا وراك البلد.. ولو روحت المريخ هنجيبك..

قالها وضحك، فابتسم «ناصف» فاستكمل الشيخ قائلًا:

– وبعدين انا عاملك مفاجأة.. انا لقيت لك سكن جنبي.. و«عماد» كمان هينقل معاك.. وهتبقى معايا طول الوقت.. إلا بقى لو كنت مش عاوز تصاحبني..

فرد «ناصف» على الفور:

– العفو يا سيدنا.. إزاي بقى.. ده غاية أملي أكون معاك واتعلم منك..

– خلاص يبقى اتفقنا.. ترجع معانا بإذن الله..

– على طول كده؟..

– هتستنى ايه؟.. كفاية اللي ضاع.. نرجع سوا وتبدأ دراستك.. وفي الأجازات تروّح البلد.. اتفقنا يا عمنا؟..

ابتسم «ناصف» وقال:

– اتفقنا يا مولانا..

***

قبل غروب الشمس بساعة، تململ الشيخ «عبدالله» من مكوثه بغرفته بالإستراحة، وأراد أن يصعد للطابق العلوي حيث الشرفة الفسيحة والهواء العليل، إلا أنه تحرّج من الصعود بمفرده دون استئذان، فقرر أن يخرج إلى المسجد مبكرًا ليقرأ القرآن حتى

ميعاد آذان المغرب.

توضأ بالإستراحة ثم خرج إلى المسجد، فلما وصل انتقى سارية فجلس وأسند ظهره إليها، فلما همّ بأن يُخرج مصحفه من جيبه ليقرأ فيه، حانت منه إلتفاتة فرأى الحاج «سليم» يجلس وحيدا ساهمًا، مستندًا بظهره إلى سارية مجاورة وانامله تداعب حبات مسبحته الطويلة، فتعجب من وجود الحاج بالمسجد في هذا التوقيت، بينما كان يظنه ببيته.

أحب أن يتحدث معه، ويعرف عنه ومنه أكثر، فقام إليه وقال وهو يجلس إلى جواره:

- تسمح لي اقعد معاك يا عمي..

تنبّه الحاج لوجود الشيخ، فخرج عن شروده وابتسم مُرحبًا.

- يا أهلا بحبيبي الشيخ «عبدالله».. ده انا يحصل لي الشرف بصحبتك..

ربّت الشيخ على ذراع الحاج وسأله:

- انت دعيت لي بالحج زي ما وعدتني؟..

ابتسم الحاج وقال:

- دعيت لك في ساعتها. .تلاقيك مش أخدت بالك..

– أصلي شوفت في الرؤيا اني بأحج.. وانت كنت معايا..

نظر له الحاج «سليم» طويلا وهو يبتسم، ثم قال:

– ربنا يكتبها لك يا حبيبي.. انا سبقتك من زمان، حجيت وأنا أشدّ من «ناصف»بشوية. أما دلوقتي فخلاص مبقتش الصحة تتحمل.

كان قد استقر في وجدان الشيخ «عبدالله» أنه لم يلتقِ بـ «ناصف» بلا أسباب، وإنما كان مقدرًا له أن يعرفه، ويعرف أباه الحاج «سليم»، بل لعل «ناصف» كان سببًا ليتعرف من خلاله على أبيه.

ظل «عبدالله» والحاج «سليم» يتحدثان بالمسجد كثيرا، فتحدثا عن الدنيا والدين، وعن الرؤى والأحلام، وعن المحبة، حتى ابتسم الحاج «سليم» وقال بإنتشاء:

– تعرف يا «عبدالله» يا بني، أني عشت عمري كله بالمحبة.. اللي كان بيزعل من أخوه كنت أصلح بينهم بالمحبة.. واللي كان بيكره حد أو حاجة.. كنت أقول له ركّز وشوف الحاجة من كل النواحي وانت تلاقي فيها الخير.. وتحبها..

طب مش أني مطلّق الدنيا بالتلاتة اهه؟.. إلا إن حتى الحاجة الوحيدة اللي ربطتني بالدنيا دي كان برضه سببها المحبة..

– ازاي بقى ؟.. احكيلي..

صمت الحاج للحظات وشرد ببصره بعيدا ثم قال بصوت خفيض وكأنه ينتزع الكلام من روحه انتزاعًا:

– «نرجس» حبة عيني وقلبي.. أم «ناصف» هي اللي ربطتني بالدنيا دي.. ومن بعدها «ناصف».. قبلها كنت مطلّق الدنيا. أرمل مليش في الدنيا رجا. وفجأة ظهرت لي، وملت محبتها قلبي. عشت قبلها زاهد في كل شيء، وعشت معاها زاهد في كل شيء إلا هي.. عمري لا اتمنيت غيرها ولا شبعت منها.. الكل عارضني أيامها.. بس أني تحديتهم كلهم.. وغلّبت حكم المحبة.

رغم أننا بنختلف كتير علشان طبايعنا مش واحدة.. إلا أني حبيت كل يوم قضيته معاها.. حتى مناهدتها معايا ومناهدتي معاها في كل مرة نختلف. كنت أصرف من وراها في الخير كتير.. وأوقات تانية غصب عني تحلّفني وتمسك هي ايدي.. تقول لي «طب و اني؟».. «طب والواد؟».. فأمسك ايدي واقول يارب كان نفسي..

ربّت «عبدالله» على كتف الحاج ليهدأ وقال:

– ما يمكن هي جزاء صبرك.. يمكن هي جنتك في الدنيا..

نظر إليه «سليم» بعينين دامعتين لفترة ثم قال بصوت خفيض:

– كانت جنتي.. وفِتنتي.

-٧-

عندما وصل «ناصف» إلى المدينة الكبيرة هذه المرة، لم يكن معه أبوه، وإنما رفاقه الذين ذهبوا لإعادته. الشيخ «عبدالله»، والعم «صديق»، و«عماد». إلا أن السيارة التي أوصلته، كانت هي نفس السيارة التي أوصلته في المرة السابقة والتي يمتلكها ويعمل عليها أحد جيرانهم بالبلدة، وكان على متن السيارة العديد من شتى أنواع الطعام والمؤن كالمرة السابقة وأكثر.

توقفت السيارة حسب تعليمات الشيخ «عبدالله» أمام بناية بسيطة المظهر كبقية البنايات القائمة بالحي، فلاحظ «ناصف» أن الشقة الجديدة قريبة جدا بالفعل من بيت الشيخ «عبدالله» والمسجد الذي يلقي فيه دروسه. ترجّل «ناصف» مع رفاقه من السيارة، وعبروا مدخل البناية إلى الشقة التي سيقيم بها مع «عماد»، والتي تقع بالطابق الأرضي من البناية.

دخل «ناصف» إلى الشقة فلاحظ اختلافا كبيرا بين تلك الشقة وسابقتها التي كان يقيم فيها من قبل. كانت الشقة الجديدة تتكون

من حجرتين فقط، بينما كان مستوى نظافتها جيدا جدا. طلاء حديث، وأثاث نظيف على الرغم من بساطته، ودورة مياه نظيفة، معقولة التأثيث.

قرب الشقة من بيت الشيخ، و نظافتها، وخلوها – في الوقت ذاته – من «سيد» خلفوا شعورا كبيرا بالراحة لدى «ناصف»، الذي دخل إلى حجرته التي سيقيم بها فوجد «عماد» قد نقل ما تبقى له في الشقة القديمة من أغراضه التي لم يستطع اصطحابها معه يوم أن هجر المدينة إلى قريته.

خرج إلى رفاقه فتعاونوا سويا في نقل حاجياته التي أتى بها من القرية إلى داخل الشقة، حتى انتهوا فوقفوا أمام البناية يتحدثون. كان أول المغادرين هو العم «صديق» الذي حمل ما أهداه إليه الحاج «سليم» من طعام ومؤن، واستأذن الجمع في الانصراف. عرض عليه الشيخ أن يقوم بتوصيله معه بالسيارة التي كانت في انتظاره لتقوم بتوصيله إلى بيته، إلا أنه تعلل بقرب بيته، ووعدهم بأن يتقابلوا جميعا بالمسجد وقت صلاة المغرب.

بعد انصراف العم «صديق» بقليل، اطمئن الشيخ على استقرار «ناصف» بمقر إقامته الجديد، وارتياحه له، ثم خرج إلى السيارة

التي كان سائقها في انتظاره بالخارج ليقوم بتوصيله إلى بيته، فخرج معه «ناصف» ليودعه وداعًا مؤقتا لحين التقائهما بالمسجد. ركب الشيخ السيارة وودع «ناصف» الذي ظل واقفا أمام البناية يتابع السيارة وهي تبتعد باتجاه منزل الشيخ.

وبينما همّ «ناصف» بالعودة إلى شقته، لمح من خلال النافذة المواربة للشقة التي تقع بالطابق الأرضي من البناية المقابلة للبناية التي سيقطنها عينين لامعتين تراقبانه في اهتمام، فلما وقف يدقق النظر ليستطلع الأمر، أُغلقت النافذة بسرعة.

***

قبل أذان المغرب بدقائق، خرج «ناصف» مع «عماد» بعدما استراحا وبدّلا ثياب السفر، فمرّا على بيت الشيخ «عبدالله» فدخل «عماد» إلى مدخل البناية ونادى الشيخ، فخرج إليهما، وساروا جميعا باتجاه المسجد والشيخ يتأبط ذراعيهما كعادته.

وصل الجمع إلى المسجد في نفس اللحظة التي أتمّ فيها العم «صديق» رفع الآذان، فما أن دخلوا إلى المسجد، حتى قام أحد الجالسين بالمسجد مهرولًا بإتجاه الشيخ قائلا بلهفة:

– كنت فين يا شيخ «عبدالله».. أنا قالب عليك الدنيا من امبارح..

- كنت في زيارة لجماعة حبايبي.. خير؟..

- اسمك طلع السنة دي في بعثة الحج.. ألف مبروك.. ربنا كتبهالك بعد صبر السنين.

***

ظل «ناصف» طوال فترة مكوثه بالمسجد تلك الليلة يراقب الشيخ «عبدالله» متعجبا، ليس فقط لسعادة الشيخ المفرطة التي ظهرت في ابتسامته الواسعة التي لم تفارقه و خفة حركته داخل المسجد، وإنما أيضا للحفاوة الكبيرة التي ظل الشيخ يعامله بها منذ لحظة سماعه خبر اختياره لبعثة الحج لهذا العام.

عندما سأل «ناصف» الشيخ ضاحكًا عن سر تلك الحفاوة الكبيرة، ضحك الشيخ وقال لـ «ناصف»:

- أبقى اسأل أبويا «سليم» وهو يقولك.. يا بركة يا ابن الراجل البركة..

ازدادت دهشة «ناصف» بتلك الإجابة، فما دخل أبيه بالأمر؟. ثم عزم على أن يسأل أباه عن ذلك فور وصوله للقرية في الزيارة القادمة.

بعدما فرغ الجمع من صلاة العشاء، وانصرف المصلون، جلس الشيخ «عبدالله» مع «ناصف» و«عماد» يتحدثون بصوت خفيض،

وبالقرب منهم جلس العم «صديق» في مكانه المفضل مستندا بظهره إلى أحد الحوائط بالمسجد ممسكًا بمصحفه وقد قرّبه كثيرا من عينيه الشائبتين ليتمكن من التلاوة.

بعدما قضى الشابان الكثير من الوقت يتحدثان مع شيخهما، ويجاريانه في أحلامه بخصوص رحلة الحج التي نالها أخيرا، ويفكران معه فيما ينبغي عليه عمله في الفترة المقبلة، وما ينبغي عليه تجهيزه من أغراض، قام الثلاثة يستعدون لمغادرة المسجد.

قال الشيخ للعم «صديق» الذي كان لا يزال جالسًا يقرأ في مصحفه:

– انت هتبات هنا والا ايه يا عم «صديق»؟.. مش هتروّح تريح شوية لحد الفجر؟..

انتبه «صديق» لسؤال الشيخ بعد ثوانٍ، فنظر إليه وأجاب قائلًا:

– شوية كده.. ربنا ميسر لي الليلادي وحابب اقرا كلام ربنا كمان وكمان.. يظهر الأكل المعتبر اللي أكلناه عند الشيخ «ناصف» مقويني..

ضحك الشيخ والشابان، ثم ودعوا العم «صديق» على وعد منه بالمغادرة إلى بيته بعد قليل ليستريح.

***

على بعد خطوات من الشقة الجديدة التي انتقل «ناصف» للإقامة

بها، وتحديدا في الطابق الأرضي من البناية ذات الطابقين المقابلة للبناية التي تقع بها شقة «ناصف» ولا يفصل بين مدخلي البنايتين سوى مسافة عرض الشارع، جلست «أمينة» في حجرتها تفكر.

كانت «أمينة» في السابعة عشرة من عمرها تحلم ككل الفتيات بفارس الأحلام، وقد استرعى انتباهها ذلك الشاب الذي جاء اليوم ليسكن في العمارة المقابلة، واستحوذ على تفكيرها منذ أن رأته صدفة من خلف خصاص النافذة.

استرعت وسامته انتباهها، وابتسامته، وجبهته العريضة الوضاءة. كان من الواضح أنه سيقيم مع الطالب الجامعي الذي يقيم بالعمارة المقابلة منذ عدة أيام، لعله طالب بالجامعة هو الآخر؟.

كانت «أمينة» تدرس بالسنة الأخيرة من المدرسة الثانوية التجارية، لها وجه مقبول، وبشرة طبيعية لا تنم عن كثير اهتمام، وعينان واسعتان مدهوشتان دومًا.

كانت «أمينة» تقيم بتلك الشقة مع أمها وأبيها وأختها الصغرى، بعد زواج أختها الكبرى وانتقالها لبيت زوجها. لم تكن ظروفهم المادية مريحة جدا، خصوصا بعد إصابة والدها في ساقيه، مما جعله لا يتحرك سوى بمساعدة عصاه وشخص آخر ليستند على

كتفه – غالبا ما يكون هذا الشخص هو «أمينة» نفسها – ، فلم يعد للأسرة أي مصدر دخل سوى معاش الوالد البسيط.

جلست «أمينة» تفكر وهي تفتح عينيها وتغلقهما بكثرة كعادتها التي تنم عن عصبية شديدة، ثم دعت لنفسها بالزوج الصالح، وقامت لتنام، بينما لم يكن في نيتها وهي تدعو لنفسها سوى هذا الشاب الذي رأته عصر اليوم.

***

بعد أن أوصل «ناصف» و«عماد» الشيخ «عبدالله» إلى منزله، سارا معا يتحدثان. عرجا على أحد محال الطعام القريبة فاشتريا بعض الطعام للعشاء، كان «ناصف» قد اشتاق لأقراص الفلافل الساخنة، وبعض الباذنجان المقلي بخلطته السحرية التي تحوله من مجرد باذنجان مقلي إلى «مسقّعة».

في الشقة وبعد أن تناولا عشاءهما، جلسا بحجرة «عماد» يتسامران ويشربان كوبان من الشاي الثقيل. لاحظ «ناصف» وجود كتب لتعلم اللغات الأجنبية لدى «عماد» خصوصا الإنجليزية والفرنسية، فسأله عنها فأجابه «عماد» قائلا:

– انا باحلم اسافر اوروبا بعد التخرج، في منح كتير لاستكمال

الدراسة في الخارج، بس مهم أوي جنب التفوق الدراسي انك تكون عارف لغات، فاكر «عبدالمنعم» اللي عرّفتك عليه في أول يوم دراسة؟..

– ايوة.. هو كان متخرّج، وكان جاي يستكمل أوراق في الكلية على ما أفتكر..

– بالظبط.. يومها بعد ما انت روّحت فضلت اتكلم معاه وعرفت انه تم اختياره لبعثة من البعثات في فرنسا، وهو اللي نصحني بموضوع دراسة اللغات ده، لما عرّفته اني نفسي اسافر اوروبا..

– طب ما أذاكر معاك..

– ياريت والله حتى نشجع بعض.

بعد فترة من التسامر وتبادل أطراف الحديث، قام «ناصف» إلى حجرته لينام، فما أن تمدد على السرير، حتى غلبه إرهاق اليوم الطويل وغاب في نوم عميق. وقبل أن يصحو لصلاة الفجر رأى حلمًا. كان في الحلم يقصد مسجد الشيخ «عبدالله»، فما أن دخل إلى المسجد حتى أحس باختلاف كبير، إذ كان المسجد مضاءً بلون أبيض ناصع شفاف، والأرض يكسوها بساط ناعم له لون أخضر داكن، والجو يعبق برائحة زكية طاغية.

سمع «ناصف» صوت شيخ يتلو القرآن، آية بعد آية، وكلما أتم

تلاوة إحدى الآيات، رددها أطفال خلفه بصوت متناغم، كأنهم يحفظون الآيات على يديه. نظر تجاه مصدر الصوت، فرأى ستارًا أبيض شفافًا يتحرك بهدوء كأن نسيمًا يحركه. كان الصوت يأتي من خلف الستار.

سار «ناصف» تجاه الصوت ورفع الستار بهدوء، فرأى أطفالًا يجلسون حول شيخ كبير يقرأ عليهم القرآن. نظر للشيخ فوجده العم «صديق» إلا أنه كان مختلفًا جدًا؛ كأنه قد عاد شابًا، له وجه مستدير وبشرة نقية نضرة، وعينان لهما لون البحر، ولحية كبيرة ذهبية اللون.

ما أن التقت عينا «ناصف» بعيني العم «صديق»، حتى ابتسم العم وتلا:

- «إن المتقين في جناتٍ ونهر. في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر»..

ثم تلا الأطفال الآيتين من بعده في خشوع.

استيقظ «ناصف» من نومه بنهاية الحلم فنظر في ساعته، فوجد أنه لم يتبقَ على آذان الفجر سوى دقائق معدودات. قام فتوضأ، ثم حاول أن يوقظ «عماد» ليذهب معه إلى المسجد، إلا أن «عماد»

كان مستغرقًا في النوم كأنه لم ينم منذ سنين.

خاف «ناصف» أن تفوته الصلاة بالمسجد، فخرج مسرعًا بمفرده وترك «عماد» نائمًا.

وبينما كان يجد السير بالشوارع ليصل إلى المسجد ويلتقي بالشيخ «عبدالله» والعم «صديق» ليقص عليهما رؤياه التي رآها في المنام، بدأت المساجد في رفع الآذان بالفعل، فجدّ السير أكثر.

ما أن وصل إلى المسجد، حتى وجد بابه مغلقًا، والشيخ «عبدالله» يقف وحيدًا يبدو عليه الحيرة والقلق، فسلم عليه وسأله عن العم «صديق»، فقال له الشيخ:

– مجاش فتح المسجد ولا أدّن،.. غريبة اوي ده عمره ما عملها..

– يمكن راحت عليه نومة علشان سِهر امبارح في المسجد؟..

– مش عارف.. بس ده عمره ما اتأخر عن الآذان..

– طب انت مش معاك مفتاح للمسجد يا شيخ نفتح ونأذن ونصلي؟..

– معايا.. بس انا قلقان على عمّ «صديق» جدا.. خايف يكون عيّان.. تعالى نعدّي عليه بسرعة نطمن ونرجع ع المسجد.

جدّ «ناصف» السير بجوار الشيخ بإتجاه الحجرة التي يسكن بها العم «صديق»، والتي تقع بالطابق الأرضي من أحد البيوت

القريبة من المسجد.

سأل «ناصف» الشيخ بصوت متقطع:

– هو عايش لوحده مش كده؟..

– ايوة.. زوجته متوفية ومعندوش اولاد..

– أنا لسه شايف رؤيا في المنام تخصّه..

وبدأ «ناصف» يقص رؤياه على الشيخ، الذي كلما تقدّم «ناصف» في الحكي كان يزيد من سرعة سيره، حتى تحول السير إلى ركض.

وصل «ناصف» والشيخ إلى البيت الذي يسكن العم «صديق» به، فدخلا إلى مدخل البناية. و بالمدخل خلف السلم الصاعد لأعلى، كان هناك باب خشبي عتيق موصد من الداخل، أخذ الشيخ يطرقه بلهفة وهو ينادي بإسم «عم صديق».

فلما لم تأتيه إجابة حاول الشيخ دفع الباب بالقوة، فأزاحه «ناصف» من أمام الباب برفق، وفتح الباب بضربة واحدة من كتفه القوى، ثم أفسح المجال للشيخ ليدخل أولا.

في الداخل كانت حجرة بسيطة الأثاث مضاءة بإضاءة واهنة تأتي من مصباح شاحب، جال «ناصف» ببصره في الحجرة لثوانٍ، فلاحظ

وجود أريكة بسيطة عليها حشية قديمة، ومنضدة عليها مصحف قديم اهترأت صفحاته لكثرة التلاوة، وبعض الأطباق القديمة. لاحظ كذلك وجود صورة قديمة لسيدة عجوز معلقة في برواز على الحائط فوق المنضدة فخمن أنها لابد زوجة العم «صديق» الراحلة.

وعلى الأرض كان العم «صديق» ساجدًا يصلي.

فما أن رآه الشيخ حتى أسرع إليه ودفعه برفق وهو ينادي عليه، فما أن لمست يد الشيخ جسد العم «صديق» حتى سقط العم على جنبه دون أن تصدر عنه أي استجابة.

زعق الشيخ في «ناصف» بصوت متهدج وقال:

- جري يا «ناصف».. انده الدكتور «جمال» في البيت اللي قصادنا.. في الدور التاني..

خرج «ناصف» راكضًا من البناية، حتى دخل البناية المقابلة فصعد درجات السلم قفزًا، فوجد شقتين بالطابق الثاني، بجوار إحداهما وجد لافتة صغيرة مكتوب عليها «منزل الدكتور جمال عطية».. فطرق الباب بلهفة.

على الرغم من أن معرفة «ناصف» بـ العم «صديق» لم تدم طويلًا، إلا أن موته أحزنه بشدة، وزاد من اقتناعه بضرورة الزهد في الحياة،

فبينما كان أبيه يحدثه دوما عن ضرورة الإستغناء والزهد، إلا أن حياة العم ووفاته كانتا درسًا عمليًا لـ «ناصف»، خصوصا بعد الرؤيا التي رآها في المنام، والتي اعتبرها الجميع من علامات حسن الخاتمة للرجل الذي قضى حياته زاهدًا، خادمًا لبيت الله، ومحبًا لكتابه.

❋❋❋

استكمل الشيخ «عبدالله» إجراءات السفر للحج، وأعد عدته. كان خلال تلك الفترة القصيرة قد زار الحاج «سليم» أكثر من مرة، أو أباه «سليم» كما أصبح يناديه. كانت المرة الأخيرة قبل السفر مباشرة، مكث خلال كل زيارة بضعة أيام بالقرية، صاحب خلالهم أباه «سليم» في سكونه وحركته. تحدث معه كثيرا، وسمع منه كثيرا، وتوطدت علاقتهما بشدة، حتى صار من «سليم» كـ «ناصف» تماما وربما أقرب، فصار بالنسبة له ولده الأكبر العاقل الهادئ المتزن، الذي رباه الله له، وأهداه له بعد أن اكتملت هدايته وتربيته، حتى عد «سليم» رزقه بمعرفة «عبدالله» من أكبر علامات رضا الله عليه، ومكافأة له على صبره قديما ورضاه بكل ما قسمه الله له.

وبمجرد عودة الشيخ من رحلة الحج، بدأ فصل جديد تماما من حياة «ناصف» لا يشبه أبدا ما مر به خلال إقامته الأولى بنفس

المدينة؛ فصحبة الشيخ «عبدالله» وعنايته التي أحاطه بها جعلته يستأنس بحياته الجديدة، ويشعر بالألفة والإطمئنان، و يصب كل تركيزه في الدراسة والقراءة والتعمق في علوم الدين والدنيا.

حتى أنه ألف المنطقة التي تقع بها شقته الجديدة، وتعرف على أصحاب المحلات والجيران، وخصوصا «عم حسن» الذي يسكن بالطابق الأرضي من البيت المقابل. إذ وجده «ناصف» رجلًا طيبًا صابرًا على المرض. عرف كذلك ابنته الشهمة «أمينة» التي كانت تساعد أباها في حله وترحاله، صحيح أنها كانت غريبة الأطوار، يتعجب «ناصف» كثيرا من نظراتها وردود أفعالها، إذ كانت كلما رأته تجهّمت، وتأملت فيه لبرهة ثم صرفت بصرها واختفت من أمام ناظريه في لحظة، إلا أنه ظل يحترمها على كل حال.

بدأت معرفة «ناصف» بـ «عم حسن»، عندما اعتاد أن يراه في أغلب الأيام جالسا على كرسيه أمام باب بيته قبل غروب الشمس بساعة، يتبادل أطراف الحديث مع الجيران والأصدقاء، ولم تتعد المعرفة في تلك الفترة سوى تبادل التحية بينهما.

حتى كان ذلك اليوم الذي كان «ناصف» يهم فيه بالخروج من بيته لقضاء بعض شئونه، فرأى «عم حسن» يخرج من بيته مستندا

على عصاه بيد، وبيده الأخرى على كتف ابنته «أمينة»، التي كانت تحمل في يدها عدة حقائب كبيرة.

انزعج «ناصف» من ثقل حمل الفتاة، فهمّ مسرعًا ليساعدها بحمل الحقائب عنها، إلا أن والدها ابتسم في خجل ثم قال لـ «ناصف» وهو يربت على كتف ابنته بإعتزاز:

– ما تتعبش نفسك يا «ناصف» يا ابني، احنا هناخد تاكسي من على أول الشارع، وبعدين «أمينة» بنتي دي بـ 10 رجالة.

ابتسم «ناصف» ووقف محرجا يتابعهما وهما يبتعدان، و«أمينة» تنظر إليه بملامح جامدة، حتى غابا عن نظره.

في المساء، بعد أن عادت «أمينة» وأبوها إلى بيتهما بعد أن زارا أختها. جلست «أمينة» وحيدة في غرفتها المظلمة، وظلت تتذكر ذلك الموقف العابر الذي جمعها اليوم بـ «ناصف» وكلها سعادة وانتشاء.

نظرت للأعلى وقالت وهي تضحك بخجل:

– طلع شهم كمان يارب.. حلو كده وجدع كمان.. والنبي يارب تكرمه وتحميه.. كان عايز يشيل عني الشنط.. والنبي يارب تحميه..

ثم أضافت بصوت خافت خجلان:

– وتجعله من نصيبي..

-٨-

مرّ على «ناصف» بالمدينة عامان ، نجح خلالهما في السنة الأولى والثانية بالكلية بتفوق، وكذلك نجح «عماد». وتوطدت علاقة «ناصف» بالشيخ «عبدالله» حتى صارا أخوين حقيقة لا مجازًا، حتى صار «عبدالله» يسافر إلى القرية مع «ناصف» في العديد من الإجـازات؛ فيلتقي أباه الروحي «سليم»، ذلك الذي اعتلّت صحته كثيرا خلال السنتين الفائتتين وقلّت حركته، وأصبح أكثر ميلًا للعزلة والاختلاء بنفسه في المسجد أو في غرفته مع مصحفه، حتى أنه لم يعد يحب لقاء أحد من الناس سوى «نرجس»، و«عبدالله»، و«ناصف».

بعد نجاحه في العام الأول بالكلية، ألحت «نرجس» على «ناصف» في الزواج، وأخبرته بأنها قد اختارت له عددًا لا بأس به من بنات أكابر العائلات ليس فقط في القرية وإنما في القرى الكبيرة المحيطة أيضًا ليختار واحدة منهن ليتزوجها، وظلت تحكي له وتشرح أمنيتها بأن يكون زفافه أسطوريًا، يحكي ويتحاكى به أبناء القرية والقرى

الأخرى. إلا أن «ناصف» رفض بأدب، وأخبرها أنه لا يريد حاليا لأي شيء أن يصرف تركيزه عن المذاكرة وتحصيل العلم.

إلا أنه في حقيقة الأمر، كان يرفض لولعه الجديد الذي تمكن من قلبه بأوروبا، ذلك الولع الذي انتقل إليه كالعدوى من «عماد»، فصار يحلم مثله بالسفر إلى هناك بعد إنهاء دراسته. صارت أوروبا بطقسها البارد وطبيعتها الخلابة ومعالمها السياحية، وفتياتها الجميلات هي بلاد الحلم بالنسبة له.

قرر أن يسافر إلى هناك بعد أن يتم دراسته هنا بالجامعة، ليستكمل دراساته ويعمل، ويتزوج، فتاة بيضاء البشرة سمائية العينين كتلك التي كانت صورتها بالمجلة التي لا يزال محتفظًا بها.

في الشهر الأول من دراسته بالسنة الثالثة بالكلية، وبينما كان يتجهز للعودة إلى المدينة بعدما قضى إجازته الأسبوعية بالقرية، ألح أبوه عليه أن يحضر معه «أخيه عبدالله» في الزيارة القادمة، وأخبره أن يبلغ أخاه أن أباه قد اشتاق لرؤيته، ولن يقبل منه أي اعتذارات عن عدم المجيء.

في الزيارة التالية، حضر «عبدالله» بالفعل إلى القرية مع «ناصف» ملبيا دعوة أبيه «سليم»، فما أن استقر «عبدالله» بغرفته

بالإستراحة التي اعتاد أن يسكن بها فترات إقامته بالبلدة، واستراح قليلا، حتى جاءه أحد العاملين لدى الحاج «سليم» يطلبه للقاء الحاج بـ«الدوار» الكبير.

ذهب «عبدالله» إلى أبيه «سليم»، فتناول طعام الغداء معه ومع «ناصف»، وأغدق خلال اللقاء أبوهما من عطفه عليهما، حتى أنه كان يضع الطعام في فم كل واحد منهما بيده، حتى فرغوا من الطعام وجيئ بالمشروبات الساخنة، فطلب «سليم» من «ناصف» أن يتركه بمفرده مع «عبدالله».

خرج «ناصف» من غرفة الطعام وتركهما وذهب إلى غرفته، فما أن اختلى «سليم» بـ «عبدالله» حتى سأله بصوت خفيض:

– خير يا «عبدالله» يا ابني.. ايه الموضوع اللي عايز تكلمني فيه بس خجلان؟..

اندهش «عبدالله» ولم يرد، فابتسم أبوه مشجعا وقال:

– أنا شوفت في الرؤيا، قول مش تتكسف..

نظر له «عبدالله» بانبهار وقال مبتسما:

– بسم الله ما شاء الله.. ربنا يجعل لنا من بركاتك يا ابو «ناصف» و«عبدالله»..

ابتسم «سليم» وقال:

– الأرواح مفيش بينها حواجز يا حبيبي.. واللي مع ربنا بيشوف بنور الله.. قول مش تتكسف.. كنت عاوز ايه؟..

– الصراحة يا ابويا المسجد اللي جنبنا اللي بصلي فيه واقول الدروس، حالته بقت صعبة أوي.. هو كان بسيط من الأساس ومبني بالجهود الذاتية على حتة أرض واهبها راجل طيب لله.. بس مع الوقت وقلة الموارد مبقاش في صيانة تقريبا لحد ما «الميضة» طفحت كذا مرة والرطوبة أكلت الحيطان.. فالحقيقة كنت بدأت أجمع تبرعات علشان نعمل صيانة للمسجد، بس الفلوس مكفتش حاجة.. فكنت عاوز اطلب منك تساعد معانا في مصاريف الصيانة بس اتكسفت.

ظهرت الجدية الشديدة على وجه الحاج «سليم»، وقام من مكانه وأخذ يجوب الحجرة متكئًا على عصاه وهو يفكر، ثم نظر إلى «عبدالله» وقال:

– المسجد محتاج كام؟..

تهلل «عبدالله» وقال:

– اللي ربنا يأذن بيه.. أي مبلغ منك على اللي معايا وربنا ييسر

الأمر..

عاد الحاج «سليم» إلى مكانه وجلس، ثم قال لـ «عبدالله»:

- طب استأذنك تديني كام يوم أجهز فيهم حالي؟..

***

مكث «عبدالله» بالقرية فترة إجازة «ناصف» التي امتدت لثلاثة أيام، ثم عادا معا إلى المدينة، فعاد «عبدالله» إلى حياته، و«ناصف» إلى دراسته. وما هي إلا بضعة أيام، وبينما كان «ناصف» جالسًا مع «عماد» بالشقة يدرسان، سمعا صوت طرقات على باب الشقة.

قام «عماد» ففتح الباب، ثم هتف بدهشة:

- عمي الحاج «سليم»؟..

ما أن سمع «ناصف» اسم أبيه حتى انتفض قائما فعبر ردهة الشقة في قفزتين حتى وصل إلى الباب، فوجد أباه بالفعل مستندا على عصاه، تعلو وجهه ابتسامة مُطمئنة.

سلم «ناصف» عليه وقبّل يديه، وقال في لهفة:

- اتفضل يا با.. خطوة عزيزة.. أمي كويسة؟..

دخل «سليم» إلى الشقة يعاونه «ناصف»، وجلس وقال:

- اطمن يا «ناصف» كلنا كويسين.. انا جاي أطل عليك انت

واخوك «عبدالله»..

ثم نظر إلى «عماد» واستكمل حديثه مبتسمًا:

- و عم «عماد» طبعا..

ابتسم «عماد» في خجل، وقد بدأ يتخلص من تأثير المفاجأة، إذ كانت زيارات الحاج «سليم» لهما بالمدينة نادرة جدا، وقال:

- العفو يا عمي.. ده احنا البركة حلّت بدارنا والله..

ما أن جلس «ناصف» إلى جوار أبيه، حتى مال أبوه على أذنه وقال:

- أنا عاوز أزور اخوك الشيخ «عبدالله».. اجهز ويلا بينا.. العربية مستنية بره..

***

في منزل الشيخ «عبدالله» كانت المفاجأة أكبر، فما أن خرج الشيخ ملبيا نداء «ناصف»، ورأى أباه «سليم» يقف مبتسمًا، حتى هرع إليه واحتضنه، وقاده إلى داخل المنزل وهو يهتف بسعادة:

- ايه المفاجأة الحلوة دي يا والدي.. تعبت نفسك يا حبيبي.. كنت اديني خبر بس وانا اجيلك لحد عندك..

- انا قلت اعملها لك مفاجأة..

- اتفضل يا والدي.. اتفضل.. يا ألف خطوة عزيزة..

دخل الجمع وجلسوا بحجرة الإستقبال، فجال الحاج «سليم» ببصره في الحجرة، وقال مبتسما:

- بيتك ريحه حلو يا «عبدالله».. بيوت الطيبين عمار..

- ربنا يكرمك يا والدي ويبارك لنا فيك.. من بعض ما عندكم..

قالها «عبدالله» وخرج من الحجرة إلى داخل البيت، ثم عاد حاملا صينية كبيرة، حاول أن يجمع فيها كل ما يمكن تقديمه للضيوف من طعام وشراب، وتبعته إلى داخل الحجرة زوجته ثم ابنه «أحمد»، وقال «عبدالله» مقدما إياهما لأبيه «سليم»:

- «أحمد» والأستاذة «أم أحمد» يا والدي..

فما أن رآهما «سليم» حتى قام بأسرع ما سمحت له حالة ساقيه وظهره، وسلم عليهما وهو يقول:

- يادي الهنا.. يادي الهنا.. ده احنا حظنا من السما النهارده..

رحبت زوجة الشيخ بالحاج، ثم غادرت الحجرة، كما أراد «أحمد» أن يغادر معها إلا أن الحاج استبقاه معه وأجلسه إلى جواره، واحتضنه بذراعه اليمنى وظل يتحدث معه مبتهجًا بكل كلمة يقولها الصغير.

بعد فترة من الوقت، مال الحاج «سليم» على أذن «ناصف» وقال:

- اسبقني على العربية انت و«عماد»، علشان عاوز أخوك «عبدالله» في موضوع مهم.

استأذن «ناصف» الشيخ في المغادرة واصطحب معه «عماد»، كذلك أخرج «عبدالله» ولده «أحمد» من الحجرة، فلم يبق بالحجرة سواه هو وأبوه «سليم».

أخرج «سليم» من جيبه شيك و ورقةً مطوية، ومد يده بهما إلى «عبدالله»، الذي أخذهما منه في دهشة وقال:

- ايه ده يا والدي؟..

- شيك يا «عبدالله» بإسمك.. وورقة فيها تفصيل المبلغ..

طالع «عبدالله» الشيك، ثم انتفض قائما وهو يقول:

- ايه ده يا والدي؟.. ايه المبلغ ده كله؟.. انا مش فاهم حاجة..

ابتسم أبوه «سليم» وقال:

- اقعد بس هفهمك..

جلس «عبدالله» مترددا، فقال له «سليم»:

- لما حكيت لي على موضوع الجامع وصيانته، عرفت إن دي

اشارة من ربنا علشان احقق امنيتي اللي بتمناها من سنين..

– أمنية ايه؟..

قال «سليم» بصوت خافت يشوبه الأمل، وهو يسرح بعين خياله في سقف الحجرة:

– انت مش هتصيّن الجامع.. انت هتهد وهتبني.. جامع كبير بتشطيب على أعلى مستوى، وفيه مستوصف خيري يعالج الناس ببلاش، ومكتب لتحفيظ القرآن ومكتبة، وأنت اللى هتشرف على كل ده، ومعاك «ناصف» يساعدك لو احتاجته.. وبإذن الله المبلغ يكفي ويفيض..

قال «عبدالله» وهو لا يزال مترددا:

– بس يا والدي ده مبلغ كبير أوي..

– الورقة اللي معاك فيها تفصيل كل شيء.. متقسمة مبلغ للهدد ومبلغ للبُنا.. ومبلغ للتشطيب والتجهيز.. هتلاقي تفصيل لكل حاجة.. وهتلاقي مبلغ على جنب.. ده هدية مني ليك..

تغيرت ملامح «عبدالله» وقال بأدب يشوبه الحزم:

– اعذرني يا والدي انا مقدرش أقبل أي مبالغ لنفسي..

– بترفض هديتي البسيطة يا «عبدالله»؟..

– العفو يا والدي.. انت عارف مقامك عندي ومحبتك، لكن مقدرش استغل المحبة دي اني اقبل مبلغ مادي منك.. أنت هاديتني كتير.. بمحبتك و عطفك واهتمامك.. إنما سامحني واعفيني من موضوع المبلغ ده.

رجع «سليم» بظهره للوراء فاستند إلى الحائط وتنفس بعمق ثم قال:

– عارف يا «عبدالله».. أني شوفتك في المنام قبل ما اشوفك في الحقيقة. يوم ما جيت لنا البلد أول مرة علشان تصلح «ناصف» وترجعه الكلية، قبلها بكام يوم، يمكن في اليوم اللي جه فيه «ناصف» ع البلد غضبان.. شوفت في الرؤيا اني قاعد في البيت لوحدي.. بعدين الباب خبّط.. فتحت الباب لقيت الحاجة «فوزية».. مراتي الأولانية اللي ربنا مش رزقني منها بالولد.. لقيتها مبسوطة وبتضحك.. فرحت اوي لما شُفتها وقلت لها.. تعالى.. خشي يا فوزية.. قالت لي لأ.. انا بس جايبة لك «عبدالله».. ابنك.. ببص جانبها لقيتك.. هو انت.. نفس الشكل والملامح وحتى الإسم..

نظر «سليم» إلى «عبدالله» الذي كان ينظر إلى الأرض، ثم

استكمل حديثه قائلا:

– إن مكنتش ابني بالدم يا «عبدالله».. فأنت ابني بالروح.. ومن حقي عليك انك تقبل هديتي..

خيم الصمت على الحجرة لدقائق، حتى قال «عبدالله»:

– طب انت جبت المبلغ ده كله منين؟.. انا اعرف انك ما بتخليش معاك سيولة كبيرة كده.. وبتصرف أول بأول..

أشاح الحاج «سليم» بوجهه بعيدًا، وقال بحيادية ودون اكتراث:

– أني بِـعت جنينة الفواكة..

❋❋❋

بعدما مرَّ ثلاثون يوما تقريبا على هذا اليوم، وبعدما تم إزالة المسجد القديم بالفعل، وتم البدء في بناء المسجد الجديد حسب ما كان يتمنى الحاج «سليم»، دخلت «نرجس» مندفعة إلى حجرة النوم الخاصة بها وبزوجها الذي كان يجلس على الأرض يقرأ في مصحفه.

جلست على السرير ونظرت إليه وبراكين الغضب تلقى بحممها من عينيها، ثم قالت بغضب:

– صحيح اللي سمعته ده يا «سليم»؟.. بِعت جنينة الفواكة؟..

لم يرد عليها «سليم»، وظل يقرأ في المصحف في هدوء.

فقالت له بغضب أكبر:

- رد عليا.. أني بكلمك..

- صدق الله العظيم.. فيه إيه يا «نرجس»؟..

- يا لهوي؟؟!!.. انت سمعتني.. رد على سؤالي!!..

- أيوة بعتها..

رغم علمها يقينًا بأن زوجها قد باع المزرعة بالفعل، إلا أنها شعرت بصدمة كبيرة عندما صارحها فسكتت لدقائق، ثم قالت بذهول:

- بعتها ليه؟..

قال «سليم» في هدوء:

- كان عليا دين..

انتفضت واقفة من مكانها بغضب وقالت:

- دين ايه؟.. انت عمرك ما كنت مديون.. انت طول عمرك داين يا شيخ البلد مش مديون..

- اللي حصل..

سكتت «نرجس» لدقائق، ثم قالت بحزم وهي تنظر بوجه جامد لـ «سليم»:

- قصره يا شيخ البلد.. حاجة من اتنين.. يا ترجع في بيعة

الجنينة..

ثم سكتت للحظة، ثم استكملت بنفس الحزم والتصميم:

- يا تطلقني..

قالتها وغادرت الحجرة في هدوء، وتركت «سليم» وحده مصدومًا، بعدما طلبت منه الطلاق لأول مرة منذ تزوجا.

***

عندما استيقظ «سليم» من قيلولته، بحث عن «نرجس» بغرف البيت فلم يجدها، فلما سأل عنها إحدى العاملات بالمنزل، أخبرته بأن «الست نرجس» قد غادرت إلى الإستراحة، وتركت للحاج خبرًا، أنها ستمكث هناك إلى أن يتم الأمر الذي يعرفه، حسبما اتفقا.

بالطبع لم يكن قد اتفق مع «نرجس» على شيء، لكنه فهم من الرسالة التي تركتها له أنها قررت أن تهجر البيت، ولن تعود إليه حتى يرجع في بيعه للمزرعة.

لم يبد الحاج رد فعل معين، وإنما احتفظ بهدوئه، وترك الفتاة العاملة بالمنزل تذهب إلى حال سبيلها وعاد إلى غرفته.

يا لقدرتك يا «نرجس»!..

يا لقدرتك الهائلة على الاحتواء، وعلى الجفاء. كيف تحملين في يديكِ نعيمًا وجحيمًا؟.. ماذا فعلتِ بالشيخ الزاهد منذ عرفك؟.. كيف أذقتيه حلو الحياة، ومرها. فكأنه لم يعش من قبلكِ قط. وكأنه قد ولِدَ فقط على يديكِ!.

مرّ على «سليم» يومان ذاق فيهما من بُعد «نرجس» عنه ما لم يذقه في حياته من عذاب. شعر بقلبه فارغًا، وبروحه تتمرد عليه، وعصف به نفس الشعور الذي فتك به في ذلك اليوم البعيد، عندما رفضت «نرجس» عرضه للزواج منها.

«نرجس» أيتها الجميلة، البهيّة، يا من تجلبين حسن الدنيا وبهاءها إذا أقبلتِ، وتعذبين محبكِ – الزاهد في كل ما في الحياة سواكِ – إذا أدبرتِ.. يا ابنة «سليم»، وروحه، وأمه التي علمته كيف يستمتع بالحياة، ولم تعلمه كيف بدونها يعيش!..

مرّ على «سليم» يومان، وفي عصر اليوم الثالث أحس بروحه تضيق، وقلبه يتفطر بين ضلوعه، فخرج من الدار مندفعًا بأقصى ما تسمح به حالة ساقه. كان الحنين قد عصف به فلم يُبقِ منه شيئًا، حتى لم يعد يبتغي من الحياة سوى بضع دقائق يرى فيها وجه

«نرجس» المليح، ويحتضنها بين ذراعيه.

سيذهب إليها، ويلقي بكبريائه على عتبتها كما علمته، سيعترف لها مجددا بحبه، وعدم قدرته على الحياة بدونها. لتكن غاضبة، لتكن ساخطة، أو حتى قاسية، فلن يدعها حتى ينال نظرة رضا من عينيها وليكن بعدها ما يكون.

وصل إلى الإستراحة، التي بُنيت - بناءً على رغبة «نرجس - في نفس موقع «العشة» التي كانت تسكن فيها قديما مع جدها، فعبر البوابة والحديقة الواقعة أمام الاستراحة مسرعًا، حتى وصل إلى باب مبنى الاستراحة فوجده مفتوحا.

دخل ووقف في الردهة أمام الباب، فرأى «نرجس» تجلس على أريكة في عمق الردهة، وتحت قدميها تجلس إحدى الخادمات. فما أن رأته «نرجس» حتى تجهمت، وقامت من مكانها إلى السلم الصاعد للطابق الثاني، فما أن أولته ظهرها وصعدت أول درجتين من درجات السلم، حتى سمعت صوت ارتطام بالأرض، نظرت خلفها، فوجدته قد سقط مغشيًا عليه.

***

عندما رأت «نرجس» زوجها يتمدد على الأرض مغشيا عليه،

جرت إليه وصرخت في العاملات بالمنزل ليسرعن بطلب المعونة. تم نقل الحاج إلى إحدى حجرات الإستراحة، وجيئ بالطبيب الذي يتابع الحالة الصحية للحاج على وجه السرعة.

استفاق الحاج بعدما حضر الطبيب وأجرى كشفا طبيا عليه، ثم وصف له علاجًا وطالبه بضرورة الإلتزام به لخطورة حالته، وأن يخلد للراحة، وألا ينفعل أبدا.

وقبل مغادرة الطبيب، استطلع الحاج رأيه في العودة إلى داره، لأنه يرتاح هناك في حجرته، فسمح له الطبيب بالعودة، فأمسك «سليم» بيد «نرجس» الواقفة بجوار السرير بقوة كأنه يتشبث بالحياة وقال لها بتوسل بصيغة الجمع:

- نرجع الدار..

ربتت «نرجس» على يده بحنو وقالت:

- نرجع يا حاج..

بعد أن استراح الحاج قليلا، عاد هو و«نرجس» للدوار الكبير، وشدد الحاج على ألا يخبر أحد «ناصف» بمرضه حتى لا ينزعج، وفضّل أن يعرف بنفسه عندما يأتي في إجازته الأسبوعية القادمة في موعد زيارته الطبيعي.

عاد الحاج لداره هو و«نرجس»، فرقد في سريره، وقامت هي على رعايته وتمريضه، ولم يترك هو فرصة واحدة للإنفراد بها، إلا وتوسل إليها فيها ألا تتركه، فكانت تطمئنه وتطلب منه أن يستريح وألا ينفعل.

***

لم يعرف «ناصف» بكل هذه الأحداث التي جرت بين أبيه وأمه في القرية، حيث كان طوال هذه الفترة بالمدينة يتابع دراسته. لم يعلم بتلك الجفوة التي حدثت بينهما، ولا هجر أمه للدار و انتقالها للإقامة بالإستراحة، ولم يعلم حتى أن أباه يرقد مريضًا بالدار منذ يومين.

في اليوم الثالث لمرض أبيه، شعر «ناصف» بانقباض منذ الصباح، حتى أنه لم يستطع استكمال يومه الدراسي وعاد إلى السكن. بعد الغداء حاول أن يستذكر دروسه ففشل، فظل حتى ميعاد نومه يحاول أن يقرأ في غير الكتب الدراسية، حتى غلبه الملل في المساء ونام وهو ممسك بكتاب.

فلما نام رأى حلمًا غريبًا، إذ رأى أنه يقف عند مدخل قريته والوقت صباح، والقرية كلها مزيّنة بالزينات، كأن حفلًا كبيرًا يقام هناك. سار «ناصف» بشوارع القرية يقصد دارهم، بينما كان

يصطف على جانبي الطريق صفّان من رجال يقرعون طبولًا كبيرة بإيقاع مهيب زلزل قلبه، وبجوار كل رجل منهم كان يقف فارس ملثم يمتطي جوادًا أبيض، ويحمل في يده راية بيضاء.

سار «ناصف» متوجسًا بين صفّي الفرسان والرجال الذين يقرعون الطبول حتى وصل إلى دارهم، وهناك وجد مجموعة أخرى من الفرسان الملثمين ذوي الملابس والجياد البيضاء عليهم مهابة كبيرة. كانوا يقفون أمام الدار كأنهم ينتظرون أحدًا.

وقف «ناصف» متوجسًا، وهو غير قادر على استيعاب الأجواء، بينما صوت الطبول يزلزل قلبه. وفجأة سكتت الطبول وابتعد الفرسان من أمام باب الدار الذي انفتح على مصراعيه وعبر من خلاله فارس مهيب يمتطي جوادًا أبيض هو الآخر، فما أن رآه الفرسان حتى اصطفوا خلفه بالجياد، كأنهم كانوا ينتظرونه ليقودهم.

سار الفارس بجواده، يتبعه الفرسان الآخرون حتى أطراف الأرض الزراعية القريبة من الدار، و«ناصف» يسير خلفهم في فضول يريد أن يرى وجه هذا الفارس الذي خرج من الدار للتوّ، فلما وصل الركب إلى أطراف الأرض الزراعية وقف الفارس القائد ومن خلفه وقف الفرسان الآخرون.

مال الفارس القائد بوجهه ببطء تجاه «ناصف»، فرأى «ناصف» وجهه، كان أباه «سليم».

ابتسم له أبوه، وأشار له بيده كأنه يودعه، ثم استكمل سيره بالجواد ومن خلفه الفرسان، غير أنهم هذه المرة لم يكونوا يسيرون على الأرض بل كانوا يرتقون في السماء، كأنهم يسيرون في طريقٍ غير مرئي يمتد من الأرض إلى السماء، فلما ارتقى الموكب لمسافة، تحول الفارس القائد ومن خلفه الفرسان الآخرون إلى طيور بيضاء، ظلت تحلق في السماء لثوانٍ، ثم ارتفعت وارتفعت حتى غابت في الأفق البعيد أمام عيني «ناصف» المبهورتين.

استيقظ «ناصف» من نومه فجأة عند تلك اللحظة، فانتفض جالسا في سريره. كان قلبه يدق بسرعة وعنف. جال بعينيه في الحجرة التي كانت مظلمة بالكامل إلا من شعاع نور ينفذ من خلال ألواح الزجاج بباب الحجرة. نظر إلى ساعته فوجد أنه قد تبقى ساعة على موعد أذان الفجر.

استرجع للحظات أحداث ذلك الحلم الذي رآه، فزاد انقباض قلبه، وتقطّعت أنفاسه. قام من سريره فبدّل بسرعة ثياب النوم بثياب تصلح للخروج، وخرج من السكن يقصد بيت الشيخ «عبدالله».

في الطريق إلى بيت الشيخ، كانت الشوارع مظلمة خالية من العابرين، مما زاد من انقباض «ناصف» وشعوره بالوحشة، وبدأت دموعه تسيل، كان قلقه على أبيه يعتصر قلبه اعتصارًا، بعدما تعلم أن يتخذ أحلامه على محمل الجد.

عندما وصل إلى بيت الشيخ كان القلق قد استبد به، وانتصر على أي شعور بالحرج كان يشعر به لإقدامه على إزعاج الشيخ في هذا الوقت المتأخر جدًا.

كان مدخل البناية التي يسكن بها الشيخ مظلمًا، إلا من ضوء مصباح واهن. وقف «ناصف» أمام باب شقة الشيخ للحظات، ثم طرق الباب، مرة بعد مرة، حتى فتح الشيخ الباب ونظر من خلفه في توجس، يستطلع أمر هذا القادم للزيارة قرب الفجر.

***

في حجرة استقبال الضيوف بشقة الشيخ، جلس «ناصف» شارد الذهن يحدق في كوب الشاي الذي جلبه له الشيخ، وطبق المخبوزات، وعلى أريكة قريبة جلس الشيخ «عبدالله» يغالب رغبته في النوم.

لم يستطع «ناصف» أن يشرح الأمر للشيخ باستفاضة، قال له

كلامًا متقطعًا فهم منه الشيخ أن «ناصف» رأى حلمًا جعله يشعر بالقلق على أبيهما «سليم». و لخبرته بأحلام «ناصف» وسرعة ودقة تحققها على أرض الواقع، لم يطلب الشيخ من «ناصف» أن يستفيض في الحكي، فقط جلس معه بحجرة الإستقبال حتى يحين موعد صلاة الفجر فيذهبان للصلاة معا، ومن ثم يذهبان سويا إلى القرية فيطمئنان على أبيهما «سليم».

وصل «ناصف» ومعه الشيخ «عبدالله» إلى القرية في أول الصباح، فاتجها من فورهما إلى الدوار الكبير. وجدا الباب مفتوحا كالعادة، فدخل «ناصف» إلى صحن الدار يتبعه «عبدالله»، فما أن دخلا حتى جاءهما صوت أبيهما «سليم» من داخل حجرة النوم وهو ينادي باسميهما.

توجها إلى غرفة النوم، فدخل «ناصف» إلى داخل الحجرة بينما وقف «عبدالله» بجوار الباب محرجًا.

كانت «نرجس» تقول لـ «سليم»:

– هما فين «ناصف» و «عبدالله» بس يا حج؟..

فقال لها «ناصف»:

– احنا اهه يا أمي..

نظرت «نرجس» إليه في دهشة، وقالت:

- بسم الله الرحمن الرحيم، انتم جيتوا امتى؟..

- جينا حالا يا أمي.. أبويا ماله؟..

- أبوك كويس مفيش حاجة، شوية تعب بُساط..

كان الحاج «سليم» الآن ما بين إغماءة وإفاقة، يغيب عن الوعي لفترة، ثم يفيق فجأة، ثم يغيب وهكذا.. فلما سمع صوت «ناصف» أفاق وقال بلهفة:

- تعالى يا «ناصف».. تعالى يا «عبدالله» مش تتكسف..

دخل «عبدالله» إلى الحجرة وهو ينظر إلى الأرض، فوقف بجوار السرير على يسار أبيه «سليم»، بينما كان «ناصف» يقف إلى جوار السرير على يمين أبيه، وتراجعت «نرجس» فوقفت بالقرب من الباب من الداخل.

كان الحاج «سليم» قد غاب عن الوعي ثانية، فقال «عبدالله»:

- أنا شايف نجيب الدكتور.

همّ «ناصف» على الفور بالخروج من الحجرة وهو يقول:

- هاروح أجيب الدكتور بسرعة..

إلا أن أباه استفاق ثانية وقال:

- لا يا «ناصف» خليك جنبي هنا، مش تمشي..

خرج «ناصف» من الحجرة للحظة، فنادى أحد العاملين مع أبيه الحاج، وأمره أن يُحضر الطبيب على وجه السرعة، ثم عاد إلى الحجرة ثانية.

كان «سليم» غائبًا عن الوعي، ثم استفاق فجأة، ونادى «نرجس» وطلب منها أن تغسل له وجهه، فأحضرت «نرجس» بعض الماء، وبللت يدها ومسحت وجهه برفق.

ثم طلب منها أن تساعده ليجلس، فساعدته حتى رفع رأسه وكتفيه وأسندهم إلى ظهر السرير.

قال «عبدالله» بصوت خفيض:

- أخبارك ايه يا والدي؟..

نظر إليه «سليم» بحنو وهو يبتسم وقال بصعوبة:

- بخير يا حبيبي..

قالها ثم شرد ببصره قليلا وهو متيقظ، وعلى شفتيه ابتسامة، ثم مدّ يديه إلى «ناصف» و«عبدالله» وقال:

- خدوا بيدي..

سأله «ناصف» وهو يمسك بيده اليمنى، بينما كان «عبدالله»

يمسك بيده اليسرى:

- عاوز تقوم يابا؟..

فرد عليه أبوه قائلا:

- لا لا.. امسكوا بس ايدي..

ظل «ناصف» ممسكًا بيد أبيه اليمنى، بينما ظل «عبدالله» ممسكًا بيده اليسرى..

قال «سليم»:

- قولوا معايا... «يا ودود»..

نظر «ناصف» إلى «عبدالله» مستغربًا الأمر، فضغط «سليم» على يديهما في رفق وكرر:

- قولوا.. «يا ودود»..

فقالا:

- يا ودود..

- يا ودود..

فقالا:

- يا ودود..

- يا ودود..

– يا ودود..

– يا ودود..

– يا ودود..

ظل أبوهما «سليم» يردد إسم الله «الودود».. ومن ورائه يردد «ناصف» و «عبدالله»..

– يا ودود..

– يا ودود..

ظل يكررها، وهما يرددان من خلفه، حتى قالها الكثير من المرات، وفي كل مرة كان ينطقها بإحساس مختلف. فمرة يرددها بحب، ومرة يرددها بخجل، ومرة يرددها برهبة، ومرة يرددها بتوسل، ومرة بخشوع، ومرة برجاء.

– يا ودود..

– يا ودود..

بدأ صوته يضعف، وجبينه ينضح بالعرق، حتى سال على وجهه، فازداد قلق «ناصف» وأراد أن يفلت يد أبيه ليذهب بنفسه ليُحضر الطبيب، ألا أن أبوه تشبث بيده أكثر.

– يا ودود..

- يا ودود..

كانت «نرجس» تراقب الموقف ذاهلة، وهي واقفة مستندة بظهرها إلى الحائط، وعيناها مفتوحتان لا تطرفان إلا قليلا وفيهما تحجرت الدموع.

- يا ودود..

- يا ودود..

- يا ودود..

- يا ودود..

كان شريط حياتها مع «سليم» يمر أمام عينيها، منذ أول يوم التقته فيه بمندرة داره. كل الحنان الذي غمرها به، وكل الحب الذي كانت تكنه له وتتعمد إخفاءه. ذلك الحب الذي كانت تتحكم فيه بكل مهارة فتظهره متى شاءت وتكتمه وتنفيه متى شاءت. سالت دموعها على خديها دون إرادة منها، وهي ترى حبيبها في النزع الأخير.

- يا ودود..

- يا ودود..

صرف «سليم» بصره إلى «نرجس»، وغمرها بنظرة حانية وهو يبتسم. رأت نظرته وابتسامته من وراء دموعها، فابتسمت هي

الأخرى وسط دموعها.

- يا ودود..

- يا ودود..

ثبتت عينا الحاج «سليم» على «نرجس» وهو يبتسم، ثم سكت وثقلت يداه في يدي «ناصف» و«عبدالله»، في نفس اللحظة التي دخل فيها الطبيب إلى الحجرة وبدأ كشفه الطبي عليه فورا، وما هي إلا لحظات حتى أطرق الطبيب وقال في أسف:

- البقاء لله.

سقط «عبدالله» على ركبتيه وهو يبكي وينتحب بصوت عالٍ، بينما اهتاج «ناصف» وظل يضرب الحائط بيديه ويركله بقدميه، وهو يصرخ:

- أبويا.. أبويا..

وفي ركن الحجرة تسمرت «نرجس» لدقائق، ثم سحبت قدميها بصعوبة وخرجت من الحجرة إلى صحن الدار. جاءت إحدى العاملات بالمنزل جريًا إليها وهي تصرخ، وحاولت أن تحتضنها، إلا أن «نرجس» دفعتها عنها بغلظة، ودخلت إلى الحجرة المجاورة لحجرة النوم وأغلقت عليها الباب من الداخل.

ظلت «نرجس» مستندة بظهرها إلى الباب لدقائق ودموعها تسيل بغزارة، ثم سارت إلى إحدى خزانات الثياب وفتحتها، كانت الخزانة تحوي بعضًا من ملابس زوجها «سليم».

ظلت تحدق في الملابس للحظة، ثم أخذت جلبابًا من الخزانة، واشتمت رائحته بشوق.

خذلتها ساقاها، فسقطت على ركبتيها وهي تبكي بغزارة وتحتضن الجلباب وتقول بصوت خفيض:

- يا حبيبي.. يا حبيبي..

ظلت تردد الكلمة وهي تحتضن الجلباب، بينما بدأ صوتها يعلو رغما عنها وهي تبكي وتنتحب وتردد:

- يا حبيبي.. يا حبيبي..

خافت أن يسمعها أحد وهي تصرخ وتنتحب، فتشبثت بكلتا يديها بقوة بالجلباب ووضعته بين أسنانها، وأخذت تعض عليه لتكتم صرخاتها، بينما دموعها تهطل على وجهها مدرارًا. كانت تجاهد لتكتم صراخها، بينما تبكي وتعض على الجلباب وتتشبث به، حتى مزقت الجلباب بين يديها وأسنانها، وعلا صوتها بالصراخ.

-٩-

أصاب رحيل «سليم» «نرجس» في مقتل. صحيح أنه تركها وولدها في منتهى الإستغناء ماديًا؛ فلديهما الـدوار الكبير والاستراحة، والعديد من قطع الأراضي الزراعية ذات المساحات الواسعة، غير المال السائل والمصوغات الذهبية. إلا أن «سليم» كان يمثل الجانب الحلو من الحياة في حياة «نرجس»؛ كان أباها وزوجها وحبيبها وكل ما لها من أهل.

لذلك فقد افتقدت برحيله الكثير من المشاعر؛ افتقدت حنانه وكرمه ورقته في التعامل معها و ابتسامته الواثقة المُطمْئِنة. افتقدت كذلك هيامه بها، واحتضانه لها برفق كأنه يعتذر لها عن كل السوء الذي مر بها بحياتها، أو كأنه يستكثرها على نفسه. اشتاقت لكل ما فيه حتى رائحته، وخشونة صوت سعاله بعدما اعتلّت صحته.

برحيل «سليم» تغيرت «نرجس» كثيرا، فأصبحت أقل اهتماما بالتفاصيل، غير عابئة بالكثير من الأمور، تحب العزلة، وتكره سماع قصص الفتيات العاملات بالمنزل اللواتي كنّ ينقلن لها كل

ما يسمعن بحدوثه بالبلدة والبلاد المجاورة، تلك الحكايات التي كانت تمثل – قبل رحيل «سليم» – فقرة رئيسية في يومها لا تفرط فيها أبدا.

أما عن «عبدالله» فعلى الرغم من أنه لم يكن ابنًا من صلب أبيه الروحي «سليم»، ولم تدم صحبته له سوى سنتين، إلا أنه أصيب بحزن كبير هو الآخر لرحيله، تضاعف هذا الحزن بسبب تعمّد «عبدالله» كتمان حزنه كما هي عادته. كما منعه نضجه، وإيمانه بقدر الله، وتعلق «ناصف» به من الجهر بذلك الحزن، والتصريح بإحساسه بالانهيار بعد رحيل الرجل الذي تغمده برأفته وأبوّته دون حاجة أو مقابل. ذلك الرجل الذي عرف «عبدالله» بوفاته معنى اليتم الحقيقي.

برحيل أبيه «سليم»، أصبح «عبدالله» رجلًا ذا تأملات هو الآخر، فصار يجلس بمفرده كثيرا، فيسبّح الله، ويتأمل كما كان يفعل أبوه الروحي. صار يجلس لساعات مختليًا بنفسه، غارقا في تأملاته، يفكر، ويتذكر كلمات ومواقف أبيه «سليم»، لدرجة أن تأملاته أبحرت به، حتى تأمل في نطق أهل القرية لاسم أبيه «سليم»، وكيف أنهم كانوا – بلهجتهم الريفية – ينطقون اسمه نطقا فصيحا سليما..

الحاج «سـَليم»، وليس «سِـليم»، كما ينطقها أهل المدن.

أما عن «ناصف» فقد فقَدَ اتزانه تماما بعد وفاة والده. إذ ظل لفترة كبيرة غير قادر على استيعاب الأمر، عاجزًا عن تسيير أمور حياته. فأصبح يرجع إلى القرية فيطيل البقاء بها كأنه قد نسي أن عليه إلتزامات دراسية بالجامعة، فيقضي الكثير من الوقت بغرفته بالدوار، ما بين النوم والتحديق في سقف الحجرة غارقًا في أحزانه، بينما يزور قبر أبيه بصورة يومية حيث يشعر إلى جواره بالسلام.

ثم يعود فيذهب إلى المدينة فيطيل البقاء بها هي الأخرى، كأنه لا يربطه بالقرية شيء. يمكث بالسكن، أو ينخرط في جلسات الذكر التي كانت تذكره بأبيه، ولا يذهب إلى الجامعة إلا نادرًا.

لم يتركه «عبدالله» بمفرده طوال تلك الفترة، إلا أنه في الوقت ذاته لم يحاول أن يجبره على الإلتفات لحياته ودراسته جبرًا، خوفا من ردة فعل عكسية تدفع «ناصف» للزهد في الدراسة من جديد، فاكتفى بالعناية بـه بلطف من بعيد.

حتى مرّ أكثر من ثلاثة أشهر على وفاة أبيهما «سليم»، فبدأ «عبدالله» يستدرج «ناصف» بهدوء للعودة للدراسة و الالتفات لمستقبله، فمرة يذكّره بحلمه بالسفر إلى أوروبا، ومرة يذكره بأمنية

أبيه «سليم» باستكمال «ناصف» لدراسته حتى الوصول إلى درجة الأستاذية بالجامعة، إلا أن «ناصف» لم يكن يبدي مرونة كبيرة في العودة إلى حياته، بل ازداد انغماسًا في العزلة وحضور جلسات الذكر.

حتى كانت ليلة سهر فيها «ناصف» في إحدى جلسات الذكر، كانت جلسة ذات حضور كبير، انغمس خلالها «ناصف» في أجواء الجلسة، وصوت المنشد الشجيّ، وأخذ يلهج بالذكر مع الحاضرين بأعلى صوته.

امتدت الجلسة حتى الفجر، وعاد منها «ناصف» ثقيل الرأس، خفيف الروح، يرى تفاصيل روحه بالكامل، ويطالع حزنه الشفاف أمام عينيه، ويشعر كمن خرج للتوّ من نوبة بكاء.

دخل «ناصف» حجرته بالسكن وقت الشروق، فتمدد على سريره وغاب في نومٍ عميق، فرأى حلمًا، رأى فيه أنه يجلس بالسكن يدرس، ثم سمع صوت طرقات هادئة على باب الشقة، قام إلى الباب وفتحه، فوجد أباه يقف مبتسمًا مستبشرًا فاتحًا له ذراعيه على اتساعهما.

ألقى «ناصف» بنفسه بين ذراعي أبيه وأجهش بالبكاء، فظل أبوه يربّت على ظهره ويمسح بكفه على رأسه، ثم أخذه من يده

و خرجا من البناية، ثم عبرا الشارع إلى البناية المقابلة، فدخلا البناية، وطرق أبوه باب «عم حسن».

فتح لهما «عم حسن» الباب وابتهج لدى رؤيتهما، فدخلا إلى الشقة وجلسوا جميعًا.

استيقظ «ناصف» من نومه مبتهجًا، كانت تلك هي المرة الأولى التي يزوره أبوه فيها في المنام منذ وفاته، تعجب «ناصف» من مغزى زيارته وأبيه لـ «عم حسن» في المنام، إلا أنه لم يطل التفكير في الأمر، كان منتشيًا جدا لرؤية أبيه في المنام، ومكتفيًا بذلك جدا.

نظر في ساعته، فوجدها العاشرة صباحًا، فتمدد في سريره ونام ثانيةً.

استيقظ «ناصف» من نومه بعد فترة على هزات خفيفة، فتح عينيه فرأى الشيخ «عبدالله» واقفا إلى جوار السرير يوقظه، جلس «ناصف» في سريره وهو يعتذر للشيخ عن انغماسه في النوم.

طلب منه الشيخ أن يتجهز ليذهبا معا لقضاء أمر هام، فقام «ناصف» واغتسل وارتدى ملابسه وخرج مع الشيخ و«عماد».

أخذهما الشيخ إلى بيته أولًا، فأحضر لهما طعاما، وجلس يأكل

معهما. أكل «ناصف» بشهية، خصوصا مع راحته لوجود الشيخ و«عماد»، وترغيب الشيخ لـ «ناصف» في الطعام.

– دوق البتنجان المخلل ده يا «ناصف» وقول لي رأيك.. ده عمايل ايديا وحياة عينيا..

قالها الشيخ فابتسم «ناصف»، وأكل من الباذنجان وأثنى عليه.

بعد الشاي، خرج «ناصف» مع الشيخ و«عماد»، فأخذهما الشيخ إلى موقع بناء المسجد، الذي لم يكن «ناصف» قد زاره منذ وفاة أبيه.

دهش «ناصف» لجمال المسجد والمستوصف ودار تحفيظ القرآن والمكتبة، وأحس براحة كبيرة في المكان الذي كان العمال يعملون به على قدم وساق، حتى شارف العمل على الاكتمال.

وضع الشيخ يده على كتف «ناصف» المبهور بما أصبح عليه حال المسجد بسرعة، وقال:

– شوفت يا «ناصف».. حلم الحاج «سليم» بيبقى حقيقة.. انا عملت اجراءات جمعية خيرية تشرف على المسجد والمستوصف والدار والمكتبة، سميتها جمعية «قلبٌ سليم» الخيرية.. ايدك بقى معايا ونكبّر الحلم.. ويبقى كمان دار أيتام، ونعمل مساعدات

للمحتاجين، ويكون باب خير وصدقة جارية لأبونا ولينا ولأولادنا من بعدنا.

ابتسم «ناصف» واحتضن الشيخ، فهمس الشيخ في أذنه:

– الإمتحانات ع الأبـواب.. وأنت بقالك كتير منقطع عن الدراسة.. مش ناوي بقى والا إيه يا عم الأول عـ الدفعة؟..

ابتسم «ناصف» وقال بهدوء:

– هاروّح البلد النهارده اطمن على أمي وهاجي بكرة بإذن الله و ألتزم وألمّ اللي فاتني..

وصل «ناصف» للقرية قبل الغروب، دخل الدوار فرأى أمه متربعة على أريكة بصحن الدار ساهمة تدندن بلحن حزين، حتى أنها لم تشعر بوجوده حتى نبهها.

احتضنها «ناصف» وقبّل رأسها ويدها، وقضى معها اليوم، وفي اليوم التالي عاد بالفعل إلى المدينة وبدأ في تحصيل ما فاته بالدراسة.

❋❋❋

بعد بضعة أيام، وبينما كان «ناصف» عائدًا من الجامعة إلى السكن، عرج على أحد المحال بالحي ليشتري بعض اللوازم، حتى لا يضطر للخروج ثانية في المساء فيضيع وقته الذي انتوى أن

يخصصه للدراسة والاستذكار. وبينما التفت «ناصف» لينصرف بعدما اشترى لوازمه، تفاجأ بوجود فتاة شابة كانت آتية للمحل، فكاد أن يصطدم بها.

تفاجئت الفتاة هي الأخرى للحظة، ثم علقت تعليقًا لطيفًا عندما رأت «ناصف» وتأملت فيه بإعجاب، فنظر إليها «ناصف» بخجل. كانت جميلة بالفعل وجذابة. انصرف «ناصف» وهو يبتسم، بينما قالت الفتاة وهي تتظاهر بالتحدث إلى رفيقتها كلمات غزلية من أغنية شهيرة بصوت عال حتى يسمعه «ناصف».

سار «ناصف» مبتعدا وهو ينظر إلى الأرض خجلًا بينما كان منتشيًا في الوقت ذاته من مغازلة الفتاة له، حتى إذا ما رفع عينيه تفاجأ بوقوف «أمينة» أمامه كأنها قد نبتت من الأرض فجأة. كانت تنظر له شذرًا. لم يفهم حينها أنها شاهدت الموقف كله وشعرت بالغيرة، فتعجب «ناصف» بينه وبين نفسه من نظراتها الغاضبة، وابتسم لها محييًا ثم انصرف إلى حال سبيله.

في المساء، جلست «أمينة» وحيدة في حجرتها، وهي لا تزال تشعر بالغيرة والغضب، نظرت للسماء وقالت بانفعال:

- يارب أنت خلقتني مش حلوة.. وأنا راضية.. وهو مش واخد

باله مني.. وانا راضية.. بس انا كنت عايشة وفي حالي.. ايه اللي جابه يسكن قصادنا؟.. مكنش لاقي حتة تانية؟.. ما الدنيا كلها بيوت وشقق.. يعني انا اشوفه كل يوم والبنات تعاكسه كده واسكت؟.. هو حلو.. وهما حلوين وبيعاكسوه.. ليه يجي قصادي طيب؟..

قالتها وأجهشت بالبكاء.

❋❋❋

بعد منتصف الليل بساعة، كان «ناصف» قد غلبه النوم، فغاب في غفوة بينما كان جالسًا إلى مكتبه يستذكر دروسه، حتى استيقظ فزعًا على صوت جلبة كبيرة بالشارع، وأصوات متداخلة من صراخ ونداءات استغاثة.

قام من حجرته مسرعًا، وأيقظ «عماد» بسرعة وخرجا جريًا إلى الشارع يستطلعان الأمر.

فلما خرجا وجدا ألسنه اللهب وخيوط الدخان الكثيف تتصاعد من نوافذ شقة «عم حسن»، بينما كانت «أمينة» وأمها وأختها الصغرى يقفون بالخارج بثياب النوم، وبعض الجيران يحاولون إطفاء النيران بالمياه التي يجلبونها في أوعية كبيرة.

صرخت «أمينة» في الحاضرين، وهي تحاول الدخول إلى

المنزل المحترق:

- بابا جوّه.. مش هيعرف يطلع..

منعها بعض الحاضرات من إلقاء نفسها بين ألسنة اللهب، في نفس اللحظة التي قفز فيها «ناصف» عابرًا مدخل البناية المحترق إلى داخل الشقة، ثم تبعه «عماد».

كان الدخان كثيفًا بالداخل، والأشياء المحترقة في كل مكان، بحث «ناصف» عن «عم حسن» فوجده يقف مستندًا إلى جدار بيد ويمسك ساقه باليد الأخرى محاولًا الحركة دون جدوى.

حمله «ناصف» و«عماد» حملًا إلى الخارج، حتى خرجا به إلى الشارع، ثم عادا إلى الداخل ومعهم بعض الجيران يحاولون إنقاذ ما يمكن انقاذه، حتى وصل رجال الحماية المدنية و تعاملوا مع الموقف.

أثنى الحاضرون على شجاعة «ناصف» و«عماد»، واستضاف بعض الجيران أفراد الأسرة المنكوبة حتى الصباح، عندما قرر «عم حسن» الارتحال بأسرته للإقامة مع أخيه ببيت العائلة لحين ترميم شقتهم المنكوبة وشراء أثاث جديد.

وبعد مرور فترة على تلك الحادثة، وبعد إتمام ترميم الشقة، عادت الأسرة إليها، وأقام «عم حسن» وليمة ابتهاجًا بالنجاة من

الحريق والعودة إلى الشقة من جديد، ودعا الجيران وخصوصا «ناصف» و«عماد».

صادف اليوم الذي أقيمت فيه الوليمة، اليوم الأخير من امتحانات العام الثالث من دراسة «ناصف» و«عماد» بالجامعة. عاد الشابان من الامتحان فاستراحا قليلا، ثم حزم كل منهما حقائبه استعدادًا لسفر كل منهما إلى قريته في اليوم التالي، وفي المساء ذهب الشابان إلى بيت «عم حسن» تلبية لدعوته.

كانت الأجواء مبهجة أثناء الوليمة، حيث حضر الجيران و تمازحوا، وتشاكس الأطفال ونشروا جوًا من السعادة بلعبهم وضحكهم، وبعد الأكل والتهنئة بالعودة للبيت، همّ «ناصف» و«عماد» بالرحيل، إلا أن «عم حسن» طلب الإنفراد بـ «ناصف» لأمر هام.

فلما جلس معه «ناصف» بركن هادئ من الشقة، قال له «عم حسن»:

– ربنا يعلم معزّتك عندي يا «ناصف» يا ابني. انا «أمينة» بنتي عندي بالدنيا كلها، بنت جدعة وطيبة وعارفة ربنا، أنا نفسي أطمن عليها قبل ما اموت واشوفها فرحانة.. هي تستاهل والله تكون فرحانة..

ثم سكت برهة واستكمل حديثه قائلا:

- أنا بخطبها ليك.. هي صحيح بيجيلها عرسان كتير.. لكن انا مش هلاقي ابدا شاب أحسن منك لها.. فلو صادف الموضوع رضاك خير وبركة، ما صادفش أرجوك متحسش بأي خجل إنك ترفض، أنت ابني وهفضل أعزّك أيًا كان قرارك.

❋❋❋

للقدر أساليب عجيبة، تجعل كل ما لم يكن مستساغًا جائزًا، وتجعل ما لم يفكر فيه المرء من قبل إطلاقًا أمرًا مقبولًا. حين فاتح «عم حسن» «ناصف» في أمر زواجه من «أمينة»، تفاجأ «ناصف» وارتبك، إلا أنه بعد قليل، رأى وجاهة في الأمر، وشعر بارتياح.

صحيح أنه لم يفكر من قبل إطلاقًا في الزواج منها، ولم تكن بالنسبة إليه سوى فتاة من جيرانه، يحب أباها ويقدرها لشهامتها وطيب أخلاقها، إلا أنه على الرغم من ذلك أحس بارتياح داخلي لأمر ارتباطه بها.

تذكر كذلك الرؤيا التي رآها في منامه منذ فترة، تلك التي ذهب به أبوه فيها إلى «عم حسن» في بيته وجلسا معه، واعتبرها بشارة من الله. هذا غير أنه بعد وفاة أبيه، وتبدّل أحوال أمه وميلها للعزلة

كان قد كره أن يحقق حلمه القديم بالسفر لأوروبا والعيش بها والزواج من إحدى فتياتها، لأن ذلك كان معناه أن يترك أمه الثكلى بمفردها ويتخلى عنها وهو ما لم يكن يستسيغه أبدًا.

شعر «ناصف» بإرتياح للأمر، وقرر أن يستخير الله عندما يصل إلى القرية، وظل طوال ليلته وخلال الطريق إلى القرية، يفكر في كيفية مفاتحة أمه في الأمر، عالمًا بأنها غالبا سترفض، لرغبتها في اختيار عروسه بنفسها من بنات كبار العائلات بقريتهم أو القرى المجاورة.

وصل «ناصف» إلى قريته، فقضى اليوم مع أمه، وقبل أن يخلد إلى النوم، توضأ وصلى ركعتين واستخار الله في أمر زواجه من «أمينة».

فلما نام، رأى حلمًا، رأى فيه أنه في حديقة كبيرة غنّاء، وهو خفيف الروح والجسد، يجرى ويتنزّه، وبينما هو يجري بالحديقة، وجد قصرًا كبيرًا مفتوح الباب، دخل إلى القصر فرأى سلمين كبيرين يقودان إلى الطابق الثاني، أحدهما في أقصى اليمين، والآخر في أقصى اليسار.

صعد السلم الذي على اليمين وسعادة كبيرة تغمره، فلما وصل إلى قمته، رأى فتاة تقف إلى جوار شجرة خضراء ذات ثمر، فلما اقترب من الفتاة التفتت إليه، فرأى وجهها.

كانت «أمينة»، وكانت تنظر إليه دون تجهم هذه المرة، كانت تنظر له بوجه هادئ، وفي عينيها نظرة شوق وعتاب.

لم تقف بركات هذه الرؤيا التي رآها «ناصف» عند شعوره بالإرتياح والصفاء عندما استيقظ، بل إنه تفاجئ بأن أمه قد وافقت على أن ترى تلك الفتاة التي يرغب في الارتباط بها عندما فاتحها في الأمر. صحيح أنها رفضت الفكرة من الأساس في البداية للأسباب التي كان يعرفها من قبل، إلا أنها ببعض المحايلات من «ناصف» وافقت، مع تشديدها على أنها قد وافقت فقط على أن تراها، ولم توافق بعد على ارتباطه بها.

ابتهج «ناصف»، وعلم في نفسه أن أمه إذا رأت «أمينة» وأهلها ستوافق، فالفتاة تتمتع بأهم صفة تبحث عنها أمه في الفتاة التي سيتزوجها، وهي أنها طيبة مستكينة، لا صاحبة كبر فتتكبر عليهما ببيئتها وكونها مدنية وليست ريفية، ولا صاحبة مكر فتنفرد به وتعزله عن أمه.

وما هي إلا أسابيع حتى كان الأمر قد تمّ بالفعل، وتمت خطبة «أمينة» لـ «ناصف»، واتفقت الأسرتان على أن يتم الزفاف بنهاية العام الدراسي القادم، حيث يكون العريس - ناصف - قد أنهى

دراسته بالجامعة.

تمت الخطبة رغم تعجّب «ناصف» من ارتياحه المفاجئ للأمر وإصراره عليه، ورغم خوف «أمينة» من أم «ناصف» غريبة الأطوار، تلك التي تجهمت في وجهها وأخذت تتفرس فيها عندما اختلت بها أثناء الزيارة الأولى، ثم أمسكت بها فجأة من ذراعيها وقالت لها بصوت كالفحيح:

– «ناصف» ده إبن عمري.. كبدي.. اوعي تفكّري انك في يوم من الأيام ممكن تخطفيه مني..

حتى أجابت «أمينة» بسرعة في فزع:

– لا والله يا حاجّة.. مش هخطفه والا حاجة.. ربنا يخليكم لبعض!..

***

مرّ العام سريعًا، وتخرّج «ناصف» من الجامعة بتفوق. وما هي إلا أيام قليلة حتى تم الزفاف، وأقام «ناصف» و«أمينة» بالدوار الكبير بقرية «ناصف» لأسبوع حسب ما أصرّت عليه أمه، ثم سافر العروسان إلى الإسكندرية لقضاء أيام العسل كما خطط «ناصف»، فأقاما بها لأسبوعين، اختبرا خلالهما نوعًا جديدًا من السعادة لم

يعرفاه من قبل، سعادة اختلاء الإلِف بألفه، حيث لا أحد سواهما والسعادة. حلاوة اللقاء، ونشوة اجتياح الحب لهما، ثم الاستكانة لبعضهما البعض.

جابا طريق البحر كثيرا ذهابًا وإيابًا، حتى عرفهما الطريق والبحر. أكلا معًا وشربا، تحدثا وضحكا، وعرفا عن بعضهما البعض ما لم يعلمانه من قبل؛ فرأى «ناصف» حلاوة قلب «أمينة» عن قرب، وعرف كذلك بضعف أعصابها، وسرعة انفعالها وعصبيتها. وعرفت هي عنه أن هدوءه شبه الدائم لم يكن تكلفًا، بل طبعًا فيه. كذلك ابتسامته الدائمة، وميله للروحانيات وإيمانه الشديد بها، وحبه للشعر والغزل، حيث وجد «ناصف» معها متنفسًا لعواطفه الجياشة، واشتياقه لوجود فتاة بقربه يطربها ليل نهار بأبيات الغزل، وكانت هي تطرب فعلا بأبيات الشعر التي كان يلقيها على مسامعها، حتى ولو لم تفهم معنى أغلبها، كانت تطرب لها وتشعر حينها أنها قد ملكت الدنيا.

كما عرفت أيضا جانبًا من نوبات غضبه الجنونية، عندما تورط في مشاجرة مع بعض الغرباء، وكاد يتطور الأمر بشدة لولا تدخل أهل الخير وفصلهم بين المتعاركين.

وما أن عادا من الأسكندرية، واستقرا بشقتهما التي اختاراها بالقرب من بيت «أمينة»، وبيت الشيخ «عبدالله»، حتى بلغ «ناصف» خبر تعيينه معيدًا بالجامعة.

***

-١٠-

جرت الحياة بالزوجين الشابين، فوهبتهما سريعًا طفلة جميلة جدًا، أطلقت عليها جدتها «نرجس» – بحكم تحكمها في كل ما يخص الأسرة الجديدة – اسم «ولاء». ومنذ اللحظة الأولى لها بهذه الدنيا، ظهر التشابه الكبير بين الطفلة الوليدة و جدتها «نرجس»، بداية من وراثتها لملامح جدتها الجميلة، ونظراتها القوية النفاذة، ثم ما ظهر عليها مع التقدم في العمر من وراثتها لأغلب طباع جدتها أيضا، من حب للسيطرة والتحكم، وقدرة هائلة على التحكم في مشاعرها، فلا يرى منها أحد إلا ما تريده هي أن يراه.

زاد ذلك الشبه الكبير بين الطفلة وجدتها من حب وتعلق الجدة بحفيدتها، فتعهدتها بالعناية والرعاية والدعم، فصارت الفتاة نسخة مصغرة منها، حتى أن أمها «أمينة» كانت تشعر كثيرا وهي تعاملها أنها تعامل حماتها «نرجس»، لا إبنتها «ولاء».

حتى ذلك النذر اليسير الذي ورثته «ولاء» من طيبة أمها،

تعلمت سريعًا أن تخفيه فلا تدفعها تلك الطيبة للتصرف رغما عنها بسلامة نية.

وبعد بضعة سنوات أخرى، رزق الزوجان بطفل ذكر، أجمع الكل على تسميته «سليم». ورث «سليم» الصغير عن أمه ملامحها، فلم يكن وسيمًا للغاية كأفراد عائلة أبيه، وورث عنها كذلك طيبتها الشديدة. بينما ورث عن أبيه هدوءه البالغ، دون أن يرث نوبات غضبه الجنونية.

حتى عندما شبّ، وصار صبيًا، صار صبيًا هادئا رقيقا كالنسيم، يجلس صامتا دائما، وفي عينيه نظرة خاوية، لا يتحدث إلا إذا حدثه أحد. كذلك فمحاولات أبيه وأمه في دفعه للاندماج في النشاطات التي يحبها أقرانه من الصبيان كانت تبوء دائمًا بالفشل، إذ كان يجاريهما لبعض الوقت، ثم سرعان ما ينصرف ثانية إلى انعزاله واستقراره بالمنزل، ظل هكذا حتى عرف طريق جلسات الذكر على يد أبيه، فأحبها حبًا جمًا، وأظهر تعلقًا شديدًا وارتباطًا قويًا بعالم الروحانيات والسمو والزهد.

جرت السنون كذلك بـ «نرجس»، إلا أنها لم تزدها إلا جمالًا وبهاءً، فزاد التقدم في العمر ملامحها فخامة، وشخصيتها نضجًا

وصلابة، فصارت ذات حضور كاسح، وقدرة كبيرة على فرض إرادتها على كل من حولها.

«أمينة» هي الأخرى صارت ربة أسرة عاملة. حيث تمسكت بحقها في العمل منذ جاءها خطاب التعيين بعد زواجها بشهور، بينما لم يقف «ناصف» ضد رغبتها، خصوصا مع اجتهادها الشديد في التوفيق بين واجباتها المنزلية وواجباتها الوظيفية.

زاد أيضا مرور الأيام «أمينة» عصبية، وجعل انفلات أعصابها أكثر سرعة، خصوصا مع كثرة التزاماتها الأسرية والعائلية، حيث كانت زوجة الإبن الوحيد لـ«نرجس»، وظلت الإبنة الشهمة البارة بأسرتها كذلك، وما زاد الأمر صعوبة، كان كرم زوجها البالغ، وكثرة أصدقائه وأحبابه، فلم يكن يمر على بيتهم أسبوع دون عزائم، ولا يمر يوم دون ضيوف وزوار.

إلا أنها على الرغم من ذلك كله، احتفظت بطيبة قلبها، وسرعة رضاها بعد الغضب، وهيامها الشديد بزوجها وابنيها، وصبرها البالغ على تحكمات والدة زوجها، وتدخلها الدائم في شئون أسرتها، ومحاولاتها الدائمة للوقيعة بينها وبين «ناصف» لتظل مستأثرة بولاء «ناصف» الكامل لها.

كبرت «ولاء» سريعا، فتدرجت في المراحل التعليمية، حتى وصلت لشهادة الثانوية العامة فنجحت فيها نجاحًا جيدًا، أهّلها للإلتحاق بكلية الآداب بالجامعة. ومنذ يوم نجاحها بالثانوية، بدأ العديد من الشبان في التقدم لطلب يدها من أبيها للزواج، نظرًا لجمالها الأخاذ وسمعة أبيها الطيبة، إلا أن أباها رفض جميع هذه الطلبات، وأجّل النظر في الموضوع من الأساس إلى بعد تخرجها من الجامعة.

بالتزامن مع تخرجها من الجامعة، وافق أبوها على خطبتها إلى شاب جامعي مهذب، يعمل مع أبيه في إدارة العديد من المشاريع التجارية المملوكة لأسرتهم، خصوصا مع اصرار الشاب على الارتباط بـ «ولاء»، بعد رفض أبيها لإتمام الخطبة أكثر من مرة أثناء فترة دراستها الجامعية.

ما شجع «ناصف» على الموافقة على إتمام الخطبة أيضا، كانت سمعة الشاب ووالده الطيبة، حيث كانا يشتهران بالورع والصلاح والإلتزام الديني، حتى أن الشاب نفسه على صغر سنه، كان مواظبا على الفروض، له لحية منمقة، وطابع هادئ وابتسامة دائمة.

وما هي إلا شهور قليلة، حتى تم الزفاف بواحدة من أكبر قاعات

الزفاف بالمدينة، حسب ما اشترطت «نرجس»، وما وافق هوى أسرة العريس ذائعة الصيت، إلا أنه كان زفافًا إسلاميًا، حسب رغبة أسرة العريس الشهيرة بتدينها، فلم يكن بالحفل موسيقى ولا أغانٍ من تلك التي تذاع بكل حفلات الزفاف، مما لم يعجب «نرجس»، التي قامت من مكانها فجأة أثناء حفل الزفاف وجذبت «أمينة» من يدها، وصعدت بها إلى مسرح قاعة الزفاف فجذبت العروس التي كانت تجلس بالـ «كوشة» إلى جوار عريسها من يدها، وبدأت في الرقص مع العروس وأمها.

مما شجع القائم على تشغيل الأغاني بالحفل على نقض اتفاقه مع أسرة العريس، وقيامه بتشغيل أغانٍ صاخبة مبهجة من تلك التي تذاع في كل حفلات الزفاف، مما دفع أغلب الحاضرين للصعود إلى مسرح القاعة والمشاركة بالرقص، مما جعل والد العريس يستشيط غضبا، بينما وقف «ناصف» بركن القاعة يضحك من أفعال أمه وهو يضرب كفًا بكف.

أما عن «ناصف» نفسه، فقد صار رجلًا ضخم الجثة في غير ترهل. يسير بخطى وئيدة تتناسب مع جسده الضخم، فقد كان فارع الطول كأبيه، إلا أن أباه كان ممشوق القوام طوال عمره، حتى

هزل جسده في أيام عمره الأخيرة. بينما كان «ناصف» على الرغم من محبته للزهد ومحاولته الدائمة لاعتناقه تأسيًا بأبيه، كان كذلك محبًا للطيب من الطعام، خصوصا مع مهارة «أمينة» في الطبخ، وتحريها الإجادة فيما تصنع من أطعمة بعد علمها بحب زوجها للطعام والشراب، مما جعل «ناصف» أضخم جسدًا من أبيه عندما كان في نفس عمره وأوفر صحة.

ظل «ناصف» باسم الثغر دائما كعادته منذ كان صبيا. مجاملًا، جوادًا. متواضعًا يميل للبساطة فيرتدي الجلباب في غير أوقات العمل، ويمسك في يده مسبحة طوال الوقت. كما حافظ على لحيته الخفيفة المنمقة كلحية أبيه والشيخ «عبدالله».

يقسم وقته بين بيته والتدريس بالجامعة، والقيام بشئون الجمعية الخيرية بمشاركة الشيخ «عبدالله»، وإلقاء الدروس كل فترة بالمسجد وإرشاد طلبة العلم مستظلًا بمعرفته بالعلوم الإنسانية التي يقوم بتدريسها بالجامعة و دراساته الدينية التي استكملها بعد تخرجه.

كما ظل على ولعه بالروحانيات وجلسات الذكر، والشعر قراءةً ونظمًا. وعلى الرغم من مرور أكثر من ربع قرن على وفاة أبيه، إلا أن مرور الأيام لم يزده إلا شوقًا لأبيه وحنينًا إليه. كما ازداد

تعلقًا بالشيخ «عبدالله»، حيث صار يعتبره كل أهله، وما بقي له من رائحة أبيه.

استقرت روح «ناصف» كثيرا بمرور السنين، فصار أكثر هدوءًا وأقل صخبًا، وأصبحت نوبات غضبه العارم نادرة الحدوث. كما هدأت وتيرة حياته كثيرًا وازدادت رتابة، خصوصا بعدما شبّ ولده «سليم»، وتزوجت ابنته «ولاء».

حتى صار يستطيع توقع ما سيحدث في الغد دون خطأ يذكر، ولم يعد ينتظر من الحياة سوى قدوم أحفاده، ليربيهم على يديه، وهو لا يزال يتمتع بوافر صحته وقدرته على الحياة.

***

كانت حياة «ناصف» تسير على نفس الوتيرة الرتيبة المعتادة، حتى عصر ذلك اليوم الذي تلى زواج «ولاء» بشهور، وتلى زواجه من «أمينة» بأكثر من أربعة وعشرين عاما، وتلى وفاة والده بأكثر من ربع قرن، وبعد أن تخطى «ناصف» الخامسة والأربعين من عمره بعام، حين حدث ما عصف بكيانه، وقلب حياته رأسًا على عقب.

كان اليوم يمر بطريقة عادية كبقية الأيام، حتى أتمّ «ناصف» صلاة العصر بالناس إمامًا ثم خرج من المسجد بصحبة أحد

معارفه وابتعدا عن المسجد قليلا، ثم وقفا يتحدثان. فإذا بسيارة تتوقف أمام أحد البيوت ثم يترجل منها سائقها ويفتح الباب الخلفي للسيارة، ثم يساعد رجلًا طاعنًا في السن على الخروج من السيارة، ثم يذهب مسرعًا إلى مؤخرة السيارة ويبدأ في إخراج عدد من الحقائب.

لفت المشهد نظر «ناصف»؛ خصوصا أن السائق والرجل الكبير لم يكونا من أهل المنطقة، فآثر أن يظل بالقرب لتقديم العون للقادمين إذا لزم الأمر.

كان ذلك حين خرجت امرأة شابة من الباب الخلفي للسيارة بعد الرجل الطاعن في السن. نظر إليها «ناصف» فكاد حسنها أن يذهب ببصره.

جذب حسن المرأة نظر «ناصف» حتى أنه لم يفكر للحظة في صرف بصره عنها. كانت في ريعان شبابها، لها وجه مستدير، وعينان فيروزيتان، وملامح جميلة متناسقة، وجسد ممتلئ قليلا في غير سمنة.

لاحظت الشابة أن هناك من يتابعها ببصره، فنظرت تجاهه بتأفف، فلما رأت «ناصف» وتأملت في وجهه للحظة، اتسعت عيناها، ثم ابتسمت ابتسامة إعجاب واسعة.

وما هي إلا ثوان، حتى أخذت الشابة بيد الرجل الطاعن في السن ودخلا إلى مدخل البيت الذي وقفت السيارة أمامه، ثم تبعهما السائق وهو يحمل الحقائب إلى داخل البيت.

ظل «ناصف» متسمرًا في مكانه، وعينه تتعلق بمدخل البيت. حتى أنه لم يخرجه عن شروده سوى تنبيه الرجل الذي كان واقفًا معه له. نظر «ناصف» إلى الرجل وتظاهر بالانتباه إليه، إلا أن الرجل لاحظ شرود «ناصف» ثانية، فاستأذن منه في الانصراف، فأذن له على وعد بلقاء قريب.

«لا السيفُ يفعلُ بي ما أنتِ فاعلة

ولا لقيا عـدوّي مثل لقياكِ

لو بات سهمٌ من الأعداءِ في كبدي

ما نال مِنّي ما نالته عيناكِ»

دارت كلمات «المتنبي» تلك في بال «ناصف» وهو لا يزال واقفًا في مكانه يتأمل البيت الذي صعدت إليه الشابة الفريدة منذ قليل. ظل على هذا الحال حتى خرج السائق من مدخل البيت ووقف بجوار السيارة، فذهب «ناصف» إليه وصافحه وهو يبتسم، ثم سأله:

– سكان جداد؟..

– أيوة.. ده الحاج «ابراهيم».. تاجر كبير اوي، بس من محافظة تانية، و اشترى الشقة دي..

– وبنته؟..

قالها «ناصف» وهو ينظر تجاه البيت مبتسمًا، فرد عليه السائق مصححًا:

– و الست بتاعته..

نظر إليه «ناصف» بدهشة و سأله مستنكرًا:

– الست بتاعته!..

– ايوة يا مولانا.. أمر ربنا.. هي يادوب تلاتين.. وهو عدى التمانين. الست «عبير» شامية مش من هنا، وملهاش حد هنا في مصر غيره.. بس الشهادة لله هو راجل طيب.. انا شغال معاه فوق ال 10 سنين مشفتش منه الا كل خير..

حاول «ناصف» أن يتمالك نفسه، ثم قال للسائق بعض كلمات الترحيب قبل أن يستأذنه ويغادر.

أصاب كيان «ناصف» زلزال عنيف منذ رأى «عبير»؛ حتى أنه أخذ يجوب الشوارع على غير هدى، مستغربًا اهتمامه الكبير بها منذ أن رآها، واندفاعه في محاولة جمع المعلومات عنها من

السائق؛ هو الذي اعتاد منذ صغره ألا يرفع عينيه في وجه النساء الغريبات عنه حياءً.

أخذت الأفكار والذكريات تتسارع إلى عقله وكأنها تخرج من سرداب عميق كان ممتلئًا طوال الوقت عن آخره، بينما كان يرفض هو الاعتراف أمام نفسه بوجوده. بداية منذ كان مراهقًا حين قابل فتاة أحلامه على صفحة من صفحات إحدى المجلات، مرورا بزواجه من «أمينة» – دون سابق حب – بناءً على عرض من أبيها، ورؤيا منامية زاره فيها أبوه.

ثم فترة بدايات زواجه عندما كان يتعمد إيهام نفسه بأنه قد نال السعادة، فيضفي على علاقته بـ «أمينة» صبغة رومانسية شاعرية ملفقة؛ ليقنع نفسه بأنه يبادلها حبًا بحب، فيكتب من أجلها الشعر، ويلقي على مسامعها كلمات الغزل، حتى ملّ مع مرور الأيام فكرة تلفيق المشاعر تلك، ورضي بما تمنحه له «أمينة» من اهتمام وحب جارف، بالإضافة لاهتمامها الشديد ببيتهما، وصبرها على رغبته الزوجية المتأججة، حتى جاء الوقت الذي بدأ يشعر فيه بأنها تجبر نفسها على العلاقة حتى لا تشعر بالتقصير في حقه، فاستقل بنفسه في إحدى حجرات المنزل، فأصبح يبيت بمفرده في حجرة، بينما

تبيت هي في حجرة أخرى، مع الإكتفاء بلقاء حميم أسبوعي. مما جعله يدفن رغباته وحاجاته العاطفية والجسدية في نفسه، ويغرق نفسه في عمله واهتمامه بأنشطة الجمعية الخيرية.

حتى اقتحمت «عبير» – تلك المرأة الكاملة – عليه حياته الراكدة فجأة، فأججتْ رؤيتها في نفسه كل رغبات الحياة، واستخرجت ما كان يدفن في نفسه من حاجات عاطفية، و أعادته عاشقًا يحلم بالفتاة التي خرجت لتوّها من صفحات المجلة، وأحلامه.

أفاق «ناصف» من شروده على صوت ابتهالات تصدر من مايكروفون أحد المساجد، فانتبه ونظر لساعته، فوجد أنه لم يتبق على صلاة المغرب إلا دقائق معدودات، تلفّت حوله، فوجد أنه قد ابتعد كثيرا عن الحي الذي يسكن فيه، والذي يقع فيه المسجد والجمعية الخيرية أيضا.

***

في حجرته مساءً بعدما صلى العشاء وحضر الدرس الذي ألقاه الشيخ «عبدالله» بالمسجد بعد الصلاة، وبعدما أغلق المسجد وأوصل الشيخ إلى منزله واطمئن عليه. جلس «ناصف» في سريره يحاول القراءة، إلا أن فكره كان لا يزال مشتتًا ونفسه ضائقة بما

يعتمل فيها؛ فتارة تذكره نفسه بـ«عبير» وجمالها الأخاذ، وتارة يزجره ضميره عن التفكير في امرأة متزوجة، فضلا عن الهيام بها، ثم يعود فيرثى لنفسه ويشفق عليها لكثرة ما كبت فيها من مشاعر ورغبات.

لم يستطع استكمال القراءة، فوضع الكتاب على منضدة بجوار السرير، وأطفأ نور الحجرة ثم تمدد في سريره.

في الظلام، استبد به طيف «عبير» تماما، حتى ظلت اللحظات التي رآها فيها تتكرر في مخيلته بلا انقطاع، نظرتها، وابتسامتها، أسنانها اللامعة المتناسقة، قوامها، ومشيتها، حتى انغمس في أفكاره تماما وكاد أن يشم رائحتها العطرة في صدره.

أخذ ينهر نفسه و يزجرها عن الخوض في تلك الخيالات، حتى صار يتقلب في السرير وهو يقول بصوت خفيض:

- يخرب بيت أمك يا «ناصف».. دي ست متجوزة.. وانت احفادك ع الأبواب.. يخرب بيت أمك!..

ظل على هذه الحال حتى غلبه النوم، فلما نام اختلطت عليه أحلام عديدة متداخلة، كانت كلها تدور حول «عبير».

في اليوم التالي، ظل «ناصف» أسيرًا لسؤال مرير لم يستطع الإجابة عليه، كم تبقى لك من عمر كي تكبت رغبتك في الحياة

في نفسك؟

أدرك «ناصف» كذلك – دون ضجر كبير– أن «عبير» قد احتلت تفكيره ووجدانه بسرعة، فمنذ رآها بالأمس لم يغب طيفها عن خياله، حتى أنه لاحظ أنه – دون إرادة منه – قد مرّ من الشارع الذي تسكن فيه أثناء ذهابه إلى عمله، وأثناء عودته منه.

«أمرُّ على الأبـواب من غير حاجة

لعلّي أراكُـــم أو أرى مَن يراكمُ

سقاني الهوى كأسًا من الحبِ صافيًا

فيـا ليته لمّا سقاني سـقاكمُ»(*)

***

(*) شعر تراثي.

-١١-

في اليوم التالي، بعدما صلى المغرب بالناس إمامًا، جلس «ناصف» يلقي درسا قصير المدة بالمسجد، وبينما هو يدور بعينيه في الجالسين أمامه، لاحظ وجود السائق الذي يعمل لدى الحاج «إبراهيم» بين الجالسين.

أتمّ «ناصف» الدرس، وبدأ الحاضرون في مغادرة المسجد، أو الاستعداد لصلاة العشاء، فقام السائق من مكانه وتربع أمام «ناصف» على الأرض وقال في أدب:

– فاكرني يا مولانا؟.. انا «فوزي» سواق الحاج «ابراهيم»..

– ايوة فاكرك.. يا مرحبا بالطيبين.

– ربنا يكرمك يا شيخنا ويزيدك من نعيمه.. انا الصراحة الحاج كلفني ادوّر على شيخ فاهم علشان عاوز يستشيره في رأي الدين في موضوع يخصّه.. انا سألت في الحتة فكل الناس دلتني عليك..

– أهلا وسهلا.. تحت أمركم..

– الحاج بيستسمحك تتكرم وتزوره بنفسك في الميعاد اللي

يناسبك، علشان ظروفه الصحية.. ممكن؟..

– مفيش مشكلة بإذن الله.. ربنا ييسر الأمر.. أمُر عليكم بعد صلاة العشاء بإذن الله..

– تمام يا مولانا.. ربنا يزيدك من نعيمه.. انا هبلغه في التليفون و استنى معاك اوصلك..

– توكلنا على الله..

***

ارتجف قلب «ناصف» في صدره وهو يعبر بوابة المنزل الذي تقطن به «عبير» ويصعد درجات السلم خلف «فوزي» السائق، الذي أخذ يكيل المديح والدعاء له لموافقته على زيارة الحاج «إبراهيم» بنفسه، ويشكر له ما تكرّم به من وقته الثمين ومجهوده.

كان باب الشقة مواربًا، فطرقه «فوزي» السائق مستئذنًا، ثم دخل إلى الشقة وتبعه «ناصف» الذي كان ينظر إلى الأرض.

سار «ناصف» خلف «فوزي» بين أثاث الشقة الثمين، حتى جلس على أحد مقاعد ردهة الاستقبال الفسيحة، قبل أن يستأذنه «فوزي» في الانصراف، وهو يخبره بأنه سينتظر بالأسفل بجوار السيارة، ليوصله إلى المكان الذي يريد بعد أن ينتهي من لقائه

بالحاج «إبراهيم».

خرج «فوزي» من الشقة، وترك «ناصف» وحيدًا ينظر إلى الأرض. كانت الشقة مضاءة بإضاءات خافتة، كما كانت تعبق برائحة جذابة، فتذكر «ناصف» ولع أمه بالروائح والعطور والبخور جذاب الرائحة.

تجول «ناصف» بطرف عينه في أرجاء الشقة، كان كل ما في الشقة يدل على الفخامة والثراء، كما كان الهدوء يلف المنزل، فخمّن «ناصف» أن الزوجين لم يرزقا بالأطفال، وهو ما وجده أقرب للمنطق، خصوصا مع تقدم الزوج في العمر بشدة.

سمع «ناصف» صوت انفتاح أحد الأبواب بهدوء، ثم أشرقت «عبير» أمامه من فرجة الباب الذي انفتح، فما أن رأته حتى اعترتها دهشة، وضيّقت عينيها لبرهة وهي تنظر إليه، كأنها تحاول أن تتذكر أين تقابلا من قبل، أو تسأل نفسها عن تلك الصدفة التي جمعتهما ثانية بعد أن تلاقت عيونهما صدفة وقت وصولها مع زوجها للشقة الجديدة.

ابتسم «ناصف» بخجل وهو يقوم من مكانه ترحيبا بها، ثم نظر إلى الأرض وتوترت أصابعه وهو يداعب حبات مسبحته.

بعد لحظات من الصمت، قالت «عبير» بصوت هادئ جذاب

لا يقل جمالا عن جمالها الشكلي:

- اتفضل يا شيخ..

تبعها «ناصف» إلى الحجرة التي خرجت منها منذ قليل وهو ينظر إلى الأرض ويحاول أن يسيطر على انفعالاته، فلما دخل الحجرة بعدها، وجد الحاج «ابراهيم» يتمدد على سرير وثير، وقد أسند رأسه العاري إلى ظهر السرير، فاستطاع «ناصف» أن يراه بشكل أفضل من تلك اللحظات التي رآه فيها من قبل.

كان الحاج - بالفعل - طاعنًا في السن، قد تخطى الثمانين من عمره بعدة سنوات، وأظهرت ثياب المنزل نحول جسده؛ إذ كان يرتدي عباءة وثيرة فوق جلبابه في المرة الأولى. استطاع «ناصف» أيضا دون جهد أن يخمن أن حالته الصحية متدهورة بالفعل.

حاول الحاج جاهدًا الجلوس ليرحب بـ «ناصف»، إلا أن «ناصف» أسرع إليه - شفقة به - فصافحه، ثم جلس على كرسي بجوار السرير.

خرجت «عبير» ثم عادت ومعها واجب الضيافة، فوضعت ما تحمل على منضدة صغيرة أمام «ناصف» ثم غادرت الحجرة.

بدأ الحاج «ابراهيم» حديثه بصوت ضعيف، فرحب بـ «ناصف»

كثيرا، وشكر له وقته ومجهوده اللذيْن خصصهما لزيارته، ثم أخبره بأنه يريد أن يخصص بعضًا من ممتلكاته لزوجته «عبير» وهو حي عن طريق البيع والشراء، كي لا ينازعها أحد في تلك الممتلكات بعد وفاته، فهل يجوز له ذلك دينيًا؟.

أجابه «ناصف» بأن للإنسان حق التصرف في ممتلكاته بالكامل أثناء حياته، طالما كان واعيًا وفي كامل قواه العقلية ويفعل ذلك بمحض إرادته، فممتلكات الحيّ في نظر الدين هي ممتلكات وليست «تركة» يحق لأحد فيها شيء، فليس من حقٍ في مال المسلم الحي، سوى زكاة ماله، فما عدا ذلك فله كل الحق في التصرف فيه كيفما يشاء.

فسأله الحاج «ابراهيم» عن بعض الأسئلة الأخرى وبعض الخواطر التي ترد على باله كثيرًا، فأجابه «ناصف» مستمتعًا بحديثه؛ فقد كان الرجل محبًا للتأمل والتفكر، مما أعجب «ناصف» وجعله يأنس بصحبته، ويغير نظرته إليه، بعد أن كان يعتبره عجوزا شهوانيًا، يشتري بماله الجميلات المحتاجات بعقود زواج.

تحرّج «ناصف» من طول بقائه في ضيافة الحاج، فاستأذن في الانصراف، إن كان الحاج قد أنهى أسئلته، فأذن له الحاج في

الانصراف، بعد أن استحلفه بتكرار الزيارة كلما استطاع، ثم انهى الحاج حديثه معه واصفا نفسه بـالعجوز الوحيد الذي ليس له أبناءً ولا أصدقاء؛ مما يجعل من زيارة «ناصف» له عمل برٍ يثاب عليه.

فوعده «ناصف» بتكرار الزيارة كلما سنحت له الفرصة، وخرج من الحجرة خلف «عبير»، بعدما استقدمها الحاج لتصطحب «ناصف» إلى باب الشقة.

عند باب الشقة، ابتسمت «عبير» وقالت لـ «ناصف»:

- بابا «ابراهيم» أخد من وقتك كتير، معلش تعبناك..

اندهش «ناصف» وتلعثم وهو يحاول أن يسألها بطريقة مهذبة عن صلة قرابتها بالحاج، بعدما سمعها تناديه كأنه أبوها، فقال:

- مفيش تعب ولا حاجة.. انا حصل لي البركة.. ربنا يخلي لك الوالد..

صمتت «عبير» للحظة، وشردت ببصرها بعيدًا، ثم قالت:

- شكرا جزيلا.. تصبح على خير..

هبط «ناصف» السلم متعجبًا، بعدما لم يفهم من إجابتها شيئًا.

عند بوابة المنزل، كان «فوزي» السائق يقف في انتظاره ليقوم

بتوصيله حيث يشاء، إلا أن «ناصف» شكره وأخبره بأنه يفضل التمشية بمفرده ليشتري بعض اللوازم قبل أن يعود إلى المنزل.

ظل «ناصف» يجوب الشوارع على غير هدى، بعدما ترك «فوزي» السائق. كانت نفسه راضيةً لرؤيته «عبير» وتبادله بضعة كلمات معها. كانت نفسه راضية و مرهقة من فرط الانفعال والتفكير طوال الفترة الماضية، حتى تسرب هذا الإرهاق إلى جسده، فعاد إلى منزله، ودخل حجرته ونام من فوره.

في الأيام التالية، ظل «ناصف» – دون إرادة منه – يمر جيئةً وذهابًا عبر شارع «عبير»، ونفسه تحدثه بزيارة الحاج «ابراهيم»، ليراها، إلا أنه زجر نفسه، وكبت رغبته تلك بكل ما استطاع، وحدّث نفسه كثيرًا عن وجوب نسيان تلك المرأة الكاملة، رغم كل ما تملكه من فتنة، ورغم هيامه البالغ بها.

بعدما مرّ أسبوع على زيارته للحاج «إبراهيم»، وبعدما أتمّ صلاة المغرب بالناس إمامًا، واستدار ليلقي درسه المعتاد بالمسجد، رأى «ناصف» «فوزي» السائق بين الحضور، فما أن تلاقت عيناهما، حتى أشار له «فوزي» بترحاب كبير، فبادله «ناصف» التحية.

بعد الدرس، جاء «فوزي» إلى «ناصف» فتربع على الأرض

أمامه في أدب، ثم قال:

- ازي حضرتك يا مولانا؟..

- الحمد لله، في نعمة..

- الحاج «إبراهيم» بيقولك متنسهوش.. هو بيحب يتآنس بصحبتك..

- والله يا سيدي القلوب عند بعضها، انا بس خايف اتقّل عليه..

- بالعكس.. ده نفسه يشوفك، وقال لي اسألك لو ممكن تعدي عليه ولو النهارده..

- ربنا ييسر الأمر، بإذن الله أمُر عليه بعد صلاة العشاء..

- ربنا يبارك لك يا مولانا.. هستنى معاك اوصلك..

عندما خرجت «عبير» إلى «ناصف» هذه المرة لتصطحبه إلى حجرة الحاج «ابراهيم»، لاحظ أنها تبدو حزينة. لم تكن - رغم فتنتها الطاغية - متوهجة كالزيارة السابقة.

وعلى العكس كان الحاج «إبراهيم» سعيدًا، يبدو في حال أفضل، فما أن اختلى بـ «ناصف»، حتى أخبره بسعادة أنه قد أتم بالفعل نقل ملكية بعض من ممتلكاته لـ زوجته «عبير»، رغم تعففها عن ذلك، ورفضها، إلا أنه صمم على ما انتواه؛ لأن ذلك

سيريحه نفسيا، ويجعله أكثر اطمئنانا عليها.

كان الحاج أيضا أكثر حميمية مع «ناصف» هذه المرة، وأكثر حماسًا للنقاش، فناقشه في العديد من الأمور، وحكي له الكثير عن حياته، وطلب منه أن يحدثه عن نفسه.

ظلا كذلك حتى أحس «ناصف» بأن الإرهاق قد أصاب الحاج، خاصة مع ظروفه الصحية، فاستأذن في الانصراف، فلم يفلته «الحاج» حتى وعده «ناصف» بزيارة تالية بعد أسبوع على الأكثر.

قبل باب الشقة بخطوة، قالت «عبير» فجأة لـ «ناصف» بصوت خفيض، بينما كانت تقوم بتوصيله كالعادة:

- ربنا بيعوّض اللي بيصبر يا شيخ؟..

ارتبك «ناصف» إثر سؤالها المفاجئ، فصمت لثوانٍ، ثم قال:

- إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب..

وقفت بجوار باب الشقة المفتوح، وسألته برجاء:

- ليه الدنيا فيها مآسي يا شيخ؟.. ليه لازم نحزن ونتغرّب ونتحمّل؟..

التقت عينا «ناصف» بعينيها لثوانٍ، فارتج وجدانه وتلعثم قليلا ثم قال:

– لأنها دنيا، مش جنة.. مفيش شيء كامل في الدنيا، لازم حاجة ناقصة..

ظلا صامتين لفترة، وهي تنظر إليه وتتفرّس في وجهه، دون أن يجسر هو على النظر إليها.

ابتسمت وقالت بهدوء:

– بابا «ابراهيم» عطّلك برضه؟.. معلش هو حبك كتير..

تجرأ «ناصف» وسألها:

– هو والدك و الا زوجك؟..

نظرت له بدهشة، فقال متلعثمًا:

– الحاج قالي انك زوجته، وانتي بتقولي عنه «بابا»...

قالها وسكت محرجًا، فابتسمت هي بصعوبة وقالت بهدوء:

– هو جوزي، بس هو طلب مني أناديه كده..لأني لما اتجوزته كنت باتكسف اناديه بإسمه، هو قالي متكسفش.. قالي انه «بابا».. وإن الجواز بس علشان اقدر أخدمه بحرّية..

ثم قالت بسرعة كأنها تواسي نفسها:

– هو بيحبني.. بيحب يشوفني.. وأكون حواليه.. هو طيب معايا أوي.. وكريم.. وانقذني من مصير مجهول..

ثم تحدّرت دمعتان من عينيها وهي تقول:

- بس انا مش خدامة، مـ.. مكنتش خدامة، هي.. هي.. الظروف..

قالت الجملة الأخيرة بحزن كبير.

كان «ناصف» يسمعها دون أن يتفوه بكلمة؛ لأنه كان سعيدا بحديثها معه، واحتراما لعصف المشاعر الذي كانت تمر به كذلك.

- أنت عندك أولاد؟..

سألته «عبير» فجأة، فأجاب «ناصف»:

- «سليم»،.. و«ولاء» اتجوزت من كام شهر..

نظرت إليه بدهشة كبيرة وقالت:

- ماشاء الله.. شكلك أصغر كتير..

ابتسم «ناصف» وقال:

- انا اتجوزت اول ما اتخرجت من الجامعة، وبنتي كده برضه..

- جميل.. كان نفسي اعيش التجربة دي مثل باقي البنات..

نظر لها «ناصف» بدهشة، فابتسمت بمرارة وأكملت:

- انا الدنيا اهدتني أفضل أب، في الوقت اللي كنت اتمنى تهديني زوج.. أسرة، وأطفال، حياة كاملة..

ظلت صامتة لثوانٍ، ثم ابتسمت بصعوبة وهي تقول بحرج:

- انا دوشتك أنا كمان.. آسفة.. انت لطيف اوي يا شيخ.. تصبح على خير..

***

بعد زيارتين تاليتين لمنزل الحاج «إبراهيم»، ولقائين قصيرين خلال الزيارتين مع «عبير»، فقدَ «ناصف» كل قدرته على الصبر، وخرجت نفسه عن زمام سيطرته، خصوصا مع ما لمس من ارتياح «عبير» له، واهتمامها بالحديث معه في كل زيارة لدقائق قبل أن يغادر.

احتلت «عبير» وجدانه بالكامل، وسيطرت على قلبه وعقله، فصار لا شاغل له في يقظته ومنامه سواها. صار يتلهف لقاءها، ويتذكر في فترات ابتعاده عنها كل كلمة قالتها، وكل نظرة، وكل إيماءة صدرت عنها، حتى بدأ صراعه المستعر مع نفسه يظهر في العلن.

كانت «أمينة» هي أول من لمس التغير الكبير الذي طرأ عليه؛ إذ لاحظت بعده عنها، وزهده فيها، ومعاملته الجافة معها، حتى أنه صار يتجنب النظر إليها وهو يحدثها أغلب الوقت. حديثه معها نفسه أصبح شحيحًا جدًا لدرجة أنه لم يعد يبدأ معها حديثًا أبدًا. صار إذا حدثته أجاب إجابة قصيرة مقتضبة، وإذا لم تحدثه لم يبدأ

معها حديثا.

صار يعود إلى منزله في المساء، فيدخل إلى غرفته مباشرة، ويغلق الباب من الداخل، بل ويتهرب كثيرا من البيت، لدرجة انتقاله للإقامة بالمسجد في بعض الليالي بحجة حاجته للخلوة والعبادة.

حاولت أن تواجهه أكثر من مرة، خصوصا انها لمحت في عينيه – بحاستها الأنثوية – إمرأة أخرى، إلا أنه تهرّب أيضًا، ولم يصارحها بشيء.

ومع بداية تهربه من زيارة «الحاج إبراهيم»؛ خوفًا من لقائه بـ «عبير»، بدأ «ناصف» يهمل مظهره وهندامه، رغم اهتمامه الشديد بهما طوال حياته، فصار لا يهتم بتناسق ملابسه وجاهزيتها للارتداء من كيّ وخلافه، وترك لحيته دون تهذيب.

ظل «ناصف» على هذا الحال، حتى كان ذلك اليوم الذي كان يلقي فيه درسًا بالمسجد، عندما تناهى إلى سمعه صوت جلبة كبيرة وشجار أمام المسجد، حاول تجاهل الأمر في البداية، ثم ما لبث – مع علو صوت الشجار – أن استأذن الحاضرين للدرس، وخرج لاستطلاع الأمر.

تفاجأ «ناصف» مع خروجه من المسجد، أن صوت الشجار والعراك،

كان يصدر عن ما يقرب من عشرة رجال يحاولون الفتك بولده «سليم» الذي كان يحاول الهرب منهم، حتى قادته قدماه للمسجد.

في أقل من ثانية، كان قد اختفى الشيخ «ناصف» الهادئ الوقور أستاذ الجامعة، الذي كان يلقي درسًا بالمسجد منذ لحظات، وظهر «ناصف» الإندفاعيّ، الذي لا يوقف غضبته أحد.

قفز «ناصف» فورًا في وسط المتعاركين، دون أن ينتظر ليفهم للعراك سببًا، فسحب ولده من بينهم ودفعه تجاه باب المسجد، ثم أطلق ليديه وقدميه العنان ضربًا وركلًا وصفعًا في كل الإتجاهات، حتى صار يحمل ما أمام المسجد من دكك خشبية ويلقيه على المهاجمين، بل ويحمل بعض المهاجمين ويلقي بهم على زملائهم.

لم تفلح كل جهود أهالي المنطقة والمارين بالمشاجرة في منع «ناصف» من الفتك بمن أرادوا بابنه الأذى، فلم تهدأ غضبته إلا بعد فرار الرجال المهاجمين بأنفسهم من بين يديه قبل أن يفتك بهم، وتأكده من نجاة ولده وسلامته.

في طريقهما للمنزل، حكى «سليم» - بأنفاس متقطعة من فرط الانفعال - لأبيه عن سبب المشاجرة، فأخبره أنه بينما كان يجلس بالمنزل في وجود أمه وجدّته «نرجس»، وصلت «ولاء» إلى

المنزل تحمل حقيبة ملابسها وهي في حالة يرثى لها؛ كانت مصابة بالعديد من الجروح والكدمات وكأنها قد سقطت من شرفة منزلها، وبسؤالها أخبرتهم بأن زوجها هو من تعدى عليها بالضرب المبرح.

مما أخرج «سليم» الهادئ الساكن أغلب الوقت عن سيطرة نفسه، فلم ينتظر عودة أبيه، ولا معرفة أسباب ما حدث، فانطلق يبحث عن زوج أخته حتى وجده في أحد المحال الكبيرة التي يمتلكها، فعاتبه بشدة، فتجرأ عليه زوج أخته وسبّه، فتبادلا الشتائم، حتى ترك كل العاملين بالمكان عملهم وأرادوا الفتك بـ «سليم» إرضاءً لصاحب عملهم وولي نعمتهم، فهرب منهم «سليم»، فتبعوه حتى المسجد.

ألجم الغضب لسان «ناصف» حتى وصل إلى منزله.

في المنزل وجد «ناصف» ابنته «ولاء» تتمدد بسرير حجرتها التي لا زالت على حالها منذ زواجها، حيث كانت تقيم بها خلال زياراتها لبيت أبيها، بينما أمها «أمينة» تنوح وتولول بعد أن فقدت أعصابها تماما، بينما كانت جدّتها «نرجس» تجلس إلى جوارها بالسرير تضع قطعًا من الثلج على كدماتها.

ما أن رأت «أمينة» «ناصف» حتى انفجرت فيه صائحة:

- أدي ياخويا اللي سهلت عليه ومخليتهوش يكتب قايمة لبنتك.. آدي اللي قلت عليه شيخ وخليته يجيب اللي يجيبه.. رخّصت بنتك.. أهو ضربها علقة موت وطردها..

نظر إليها «ناصف» بغضب ولم يرد، ثم نظر إلى «ولاء» التي كانت لا تزال تبكي، فسألها بصوت خفيض:

- ايه اللي حصل؟..

لم ترد «ولاء»، وإنما ناولته هاتفها المحمول.

نظر «ناصف» لشاشة هاتفها، فوجد الهاتف يعرض فيديو مسجل بكاميرا خفيّة، يعرض لقاءا جنسيًا كاملًا لزوج ابنته، مع امرأة بغرفة نوم.

اتسعت عينا «ناصف» ذهولًا، واغلق الهاتف بسرعة، وسأل ابنته عن كيفية وصول هذا المحتوى إليها، فقالت له منهارة:

- جاني على النت.. واحدة معرفهاش بعتتهولي.. بتقولي علشان تعرفي حقيقة جوزك يا غلبانة.. واجهته وزعقت فيه، قالي انا اعمل اللي يعجبني وشتمنى و ضربني وطردني زي ما انت شايف..

ولولت «أمينة» قائلة:

– آدي اخرتها ياخويا.. آدي اخرتها..

قالت «نرجس» بابتسامة هادئة وهي تضع الثلج على كدمات «ولاء»:

– الواد ده تسيبيهولي.. ديّته عودين بخور أولعهم واجيبهولك تحت رجليكي راكع..

انقضّت عليها «أمينة» صائحة:

– انتي عاوزة مننا ايه يا ست انتي؟.. سيبينا في حالنا بقى بعفاريتك وشيطنتك.. طول عمرك مخسراني جوزي ودلوقتي عاوزة تخسريني بنتي..

دفع «ناصف» «أمينة» بعيدا عن أمه بكل ما فيه من غضب، وهو يقول:

– ما كفاية يا ست بقى..

طارت «أمينة» بعيدًا إثر دفع «ناصف» لها حتى سقطت على إحدى الأرائك، فأمسكت ظهرها بألم وهي تئن.

جلس «ناصف» للحظات وغطى وجهه بكفيه. كانت تلك هي المرة الأولى في حياته التي يعتدي فيها على «أمينة».

خيّم الصمت على الجميع، حتى قام «ناصف» من مكانه وخرج

من البيت وأغلق الباب خلفه في هدوء.

***

بعدما غادر «ناصف» البيت، وسار بمفرده لفترة، تسرب الهدوء إلى نفسه رويدا رويدا، فبدأ يحاول أن يستوعب أحداث اليوم المتلاحقة. قادته قدماه إلى المسجد الذي كان قد أغلقت أبوابه بعد أداء كافة الصلوات، فجلس وحيدًا على مصطبة عالية بجوار باب المسجد، وأخرج من جيبه هاتفه المحمول، وطلب رقم صديقه «عماد».

كان «عماد» قد صار رجل أعمال مجهولة. يمتلك مكتبًا لأعمال السمسرة والإستيراد والتصدير والوساطة وما شابه ذلك. كان قد افتتح مكتبه هذا بعدما عاد من رحلته الطويلة إلى أوروبا.

فبينما تجاهل «ناصف» قديما حلم السفر إلى أوروبا بالتدريج، ظل «عماد» متمسكًا بالحلم؛ فلم يتزوج، وظل يسعى جاهدًا لنيل بعثة من بعثات السفر إلى أوروبا، حتى تم اختياره بالفعل – بعد تخرجه ببضع سنين – للسفر ضمن إحدى البعثات، فسافر.

ما أن وطأت قدماه أرض الدولة الغربية التي سافر إليها، حتى سلب كل ما فيها لبّه، وأَسرته الدولة الجميلة بأضوائها المبهرة،

ومفاتنها المتعددة، فقضى أعوام البعثة بطريقة طبيعية، ثم لم يرجع إلى البلاد بعد انتهاء فترة ابتعاثه. ظل يهرب من دولة أوروبية إلى أخرى، حتى مكث فترة بإحدى الدول، واستطاع أن يوقع فتاة في حبه، فتزوجها، وصار له أحقية الإقامة بتلك الدولة.

أقام «عماد» بتلك الدولة مع زوجته لسنوات، وشاركها في إقامة مشروع تجاري بمالها، بينما تولى هو مساعدتها في إدارة المشروع، حتى اكتشفت زوجته ذات مرة أنه يسرق من حقها في مكاسب المشروع، فتشاجرت معه، وانفصلا. تكبّد في ذلك خسارة مالية فادحة، كلفته كل ما كان يدخره من أموال، فقرر بعد فترة صعبة تلت الانفصال أن يعود إلى مصر وينهي مغامرته الكبيرة في أوروبا.

عندما عاد «عماد» إلى مصر، كان قد تم فصله من عمله نظرًا لتغيبه لفترة طويلة دون سبب قانوني، فلجأ إلى «ناصف» فاقترض منه مبلغًا من المال، ساعده على افتتاح مكتب صغير، ثم استطاع مع الوقت تنميته، حتى صار له شهرة معقولة.

عندما تأكد «ناصف» من وجود «عماد» بمنزله الذي يقيم فيه بمفرده منذ عاد من أوروبا، ذهب إليه على الفور. أحس «عماد»

بالضيق الذي استبد بـ «ناصف»، فقرر أن يخرجه من حالته تلك، فصمم أن يتناول «ناصف» معه طعام العشاء قبل أي حديث، فلما فرغا من الأكل، بدءا حديثهما مع كوبين من الشاي الثقيل أعدهما «عماد» كأيام إقامتهما معا أثناء فترة دراستهما الجامعية.

حكى «ناصف» لـ «عماد»، ما جرى من زوج «ولاء»، وأعرب له عن ندمه الشديد وإحساسه بالذنب بعدما قصّر في حق ابنته، وسهّل الأمور لزوجها المخادع؛ إذ لم يلزمه بمطالبات مادية كما يفعل الآباء، ولم يقيده بقيود تضمن لابنته حقها في حالة خيانته كما حدث، ثم ختم حديثه قائلا بتأثر شديد:

– انا ضيعت بنتي يا «عماد»، وبخست حقها..

ابتسم «عماد» الذي لم يعد يبذل جهدًا ليظهر بحقيقة غير حقيقته، وكفّ عن مجاراة كل شخص ليظهر أمامه كما يحب الشخص أن يراه كما كان يفعل في شبابه، ثم قال بثقة:

– ولا تشيل همّ.. سيب لي الموضوع ده، وأنا هخلصهولك بطريقتي..

– هتكلم محامي يرفع قضية؟.. معناش ورق ينصفنا..

– لا ما احنا هيبقى معانا ورق..

- ازاي فهّمني؟..

استرخى «عماد» في مقعده وقال:

- هرمي للواد طُعم من اللي بيحبه، وأجرّه لحتة مقطوعة وأخطفه.. واللي ممضاش عليه زمان، هيمضي عليه دلوقتي بالعافية.. قايمة بقى وشيكات وكل اللي يرضيك.. واجيب لك رقبته تحت رجلك..

قال «ناصف» بصوت كالفحيح وقد بدأت شياطين غضبه في النشاط:

- هتعمل ده ازاي؟.. مين هينفذ؟..

- عندي ناسي.. دي شغلتهم وبياخدوا حسنتهم..

لمعت عينا «ناصف» ببريق الإنتقام، وهو يقول بـغِلٍ:

- لما تصطاده، انا عايز أربيه بإيدي..

انتفض «عماد» من مكانه وقال:

- لا يا عم ابوس ايدك.. انا عارفك في ساعة الشر، هتخلّص عليه، العيال هيخوّفوه لحد ما يمضي بس مش هيأذوه، لكن انت هتموته..

نظر «ناصف» إليه بجدية، وقال:

- متخافش مش هموّته.. بس يتربّى..

فردّ «عماد» بسرعة:

– كمان مش عاوزك تظهر في الصورة، لا انا ولا انت نظهر في الصورة.. الناس اللي هتنفّذ دي لعبتهم وبيعرفوا يداروا نفسهم ازاى..

قال «ناصف» بتصميم وغضب عارم:

– انا مستعد لأي حاجة يا «عماد»، انا عاوزه لوحده في الحتة اللي هتخطفه فيها مهما كلفني الموضوع، هوريه «ناصف» اللي مشافهوش قبل كده.. «ناصف» اللي ما ينضربش على قفاه..

تنهد «عماد» وقال بصوت خفيض:

– ربنا يستر..

***

انتقل «ناصف» للإقامة مع «عماد» بمنزله منذ ذلك اليوم، مستغلًا الموقف العدائي الذي جرى بينه وبين «أمينة» كسبب كاف لهجرِ البيت؛ إلا أنه في الحقيقة كان يهرب من كل ما يربطه بـ«أمينة» نفسها، كان يريد أن يختلي بنفسه بعدما فقد كل سيطرة على أعصابه، منذ مسّ سِحر «عبير» روحه.

هجره لـ «أمينة»، إضافة إلى انقطاعه عن زيارة الحاج «إبراهيم» منذ فترة وفرا لـ «ناصف» بعض الهدوء النفسي، مما شجعه على الإمعان في عزلته، فانقطع عن زيارة المسجد والجمعية الخيرية أيضا.

بعد مرور يومين من حالة العزلة تلك، وبينما كان نائمًا ليلًا، حلم «ناصف» بأنه قد عاد صغيرًا يلعب في صحن دارهم بالبلدة، وبينما هو يلعب، رأى باب إحدى الغرف يهتز بهدوء مصدرًا صريرًا، فترك ما في يديه من ألعاب وسار خائفًا باتجاه الحجرة يستطلع الأمر.

عبر «ناصف» باب الغرفة الموارب، فرأى أمه تجلس متربعة على الأرض وأمامها إناء فخاري كبير به أعواد خشبية تحترق، بينما يتصاعد منه دخان رقيق.

وقف أمام الإنـاء ونظر إلى أمه مستفهمًا، فرفعت عينيها الواسعتين ونظرت إليه نظرة فاحصة لفترة، ثم بدأت تنفخ في الإناء وهي تنظر إليه، فزاد الدخان كثافة، حتى أحاط بـ «ناصف» الذي تفاجئ بأن جسده يكبر، ويكبر، وكلما نفخت أمه في الإناء زادت كثافة الدخان وزاد هو ضخامة، حتى صار ماردًا عملاقًا، وصار يرى أمه بعيدًا جدًا، جالسة عند قدميه، تنظر إليه وتنفخ الدخان.

عندما استيقظ «ناصف» في الصباح جلس في السرير قليلا يفكر، ولم يحاول - على غير العادة - أن يدقق في تفسير تلك الرؤيا التي رآها.

غادر حجرته فوجد نفسه وحيدا بالبيت بعدما غادر «عماد» باكرًا لقضاء بعض شئونه، فسار إلى المطبخ وأعد لنفسه بعض الشاي، وجلس بردهة الشقة يفكر.

كان يشعر – خلال الأيام الأخيرة – بشيءٍ ما يتغير بداخله، وكان مرتاحًا لهذا التغيير. فبعد التفكير العميق الذي استغرق فيه طوال الفترة الماضية، استقر في وجدانه أن طيبته البالغة، وتحريه للزهد والتعفف طوال حياته السابقة، كانوا أسبابًا مباشرة في كل ما أصابه من شرور.

فمثلا تساهله البالغ مع زوج ابنته، دفع ذلك الوغد ليتجرأ عليها وعلى أخيها، وجعله لا يقيم لأي منهم أي حساب.

ثم ماذا في حبه لـ «عبير»؟.. ماذا عليه لو أحبها واشتهاها؟.. أليس إنسانًا له قلبًا وعينين؟.. ماذا يضر الناس لو طلب لنفسه بعض المتعة والتنعّم كبقية البشر؟.. لماذا عليه أن يقضي ما تبقى من عمره مع «أمينة»، تلك التي لم ترزق شيئًا من ملاحة الوجه، ودلال النساء؟.. تلك التي لا تبذل أي مجهود لتجميل صورتها، أو الاهتمام بنفسها؟.. لماذا يكبت في نفسه توقه للحب والعاطفة؟.. ويدفن رغبات جسده المتأججة؟

أجاب صوت خفيض بداخله على تلك الأسئلة مذكرًا إياه بأن «عبير» تلك هي إمرأة متزوجة، وزوجها رجل طيب غمره بمحبته، حتى ولو كان زواجًا مع وقف التنفيذ، فهذا ليس من شأنه.

انتفض «ناصف» واقفًا بعدما وصل به التفكير إلى ذلك الحد، وأخذ يروح ويجئ بعصبية، ثم حاول أن يتلهى بالتفكير في أمر الانتقام من زوج «ولاء».

***

في المساء، زاره ولده «سليم»، وطمأنه على أحوال أمه وأخته، إلا أنه لم يزره بمفرده، إذ كان معه «فوزي» سائق الحاج «إبراهيم»، الذي ظل يبحث عن «ناصف» طوال الأيام الماضية في كل مكان فلم يعثر عليه، حتى سأل عن بيته وألتمسه هناك، فاصطحبه «سليم» ليقابل أباه بعد أن رأى إصراره على مقابلته.

بعدما اطمأن «فوزي» على «ناصف» نقل إليه رغبة الحاج الملحّة في زيارته له، فاعتذر «ناصف» بلطف وتعلل بظروف صحية مختلقة، وأصر على اعتذاره رغم إلحاح «فوزي» الشديد.

عندما اختلى بنفسه في الحجرة التي خصصها له «عماد» ببيته، جلس «ناصف» على سريره في الظلام يفكر. ذكّرته جلسته تلك

بأول ليلة قضاها بالمدينة، عندما أتى إليها يطلب العلم بالجامعة، عندما جلس وحده بحجرته في الشقة الحقيرة التي كان يسكنها مع «عماد»، و«سيد».

شعر بنفس الوحشة التي اعترته ليلتها، والحنين إلى أبيه، إلا أنه طرد عن نفسه تلك الخواطر بسرعة، بعدما صار - في الفترة الأخيرة - يعتريه السخط على كل ما زرعه فيه أبوه من تعاليم التسامح والمحبة.

«الناس لا تؤمن سوى بالقوة يا أبي، القوي يفرض إرادته، ثم الناس يتقبلون إرادته مرغمين»، كان يفكر في ذلك.

طافت بذهنه صورة أبيه، بابتسامته الوقور، ووجهه الطيب، وتذكر كيف أنه لم يكن يجرؤ إنسان على أن ينتقص منه، أو حتى أن يقاطعه أثناء حديثه، وتسائل بينه وبين نفسه عن الفرق بينه وبين أبيه.

كيف كان لأبيه أن يجمع بين هذا الخليط العجيب، من الحنان والقوة؟.. ومن التواضع والهيبة؟.. ما الذي كان يميز أباه عنه؟.. تفكّر قليلا فلم يصل إلى إجابة.

عادت إليه ذكريات الماضي، وحنينه إليه مرة أخرى، فتذكر عندما كان لا يزال شابًا يحب الحياة، ويحلم. تذكر أحلامه القديمة

بالسفر إلى أوروبا، وفتاة المجلة، وتمنى لو يرجع شابًا مرة أخرى، عندها كان سيستوعب نفسه أكثر، ولن يتقمص دور أبيه؛ هو ليس أباه، فهو لا يملك طاقة الصبر والرضا التي كان يملكها أبوه.

لو عاد به الزمن، فسيطلق لروحه العنان. لن يتقيد بخط السير الذي كان يتبعه أبوه. سيصير نفسه، بكل ما فيها من عنفوان ومحبة للحياة، وسيحيا الحياة كما ينبغي لها أن تُعاش.

في اللحظات الأخيرة قبل أن يغفو، رأى التغيير الذي اعتراه في الفترة الأخيرة واضحًا جليًا أمام عينيه. لقد انزوى الشيخ «ناصف» الزاهد المحب في ركن ضيق جدا من مساحة روحه، وطفا على السطح «ناصف» الجرئ الذي لا يؤمن سوى بالقوة. ذلك الذي لا يتنازل عن حقه أبدًا بل يرد الصاع صاعين لمن يعتدي عليه. رأى ذلك التغيير أمام عينيه، ولم يكن حزينًا له أبدًا.

***

صباح اليوم التالي، ذلك اليوم الذي اعتزم - هو و«عماد» - تنفيذ ما خططا له فيه، استيقظ «ناصف» مضطربا غاضبا متعكر المزاج. كان «عماد» قد خرج مبكرا، بينما ظل هو بالبيت ينتظر مكالمة هاتفية منه تفيد بنجاح أولى خطوات المخطط بخطف

زوج «ولاء» إلى مكان غير مأهول. ثم يتحرك هو من البيت إلى المكان المتفق عليه، ليؤدب ذلك الوغد المنافق بنفسه كما أصر.

فعل الانتظار بـ «ناصف» الأفاعيل، وزاد من غضبه واضطرابه، مما جعل تفكيره في أي أمر ينتهي به إلى اليأس وتوقع الأسوأ، حتى زهد في كل شيء غير الانتقام من ذلك الوغد الذي غرر به وأهان ابنته، حتى أنه قرر في قرارة نفسه، ألا يكبح نفسه عند الانتقام، حتى ولو انتهى الأمر بقتله للفتى، بل إنه صار يرى فكرة قتل الفتى فكرة وجيهة؛ إذ لماذا يعيش مثل ذلك الوغد؟.. ذلك المنافق الذي يغرر بمن أحسنوا إليه ويخدعهم ويتطاول عليهم، أليس في قتل ذلك الثعبان راحة للبشر من سمومه وألاعيبه القذرة؟، كان يفكر بذلك.

ظلت الأفكار تتلاعب بـ «ناصف»، بينما غضبه واضطرابه يزدادان، حتى جاءته المكالمة المنتظرة من «عماد» بعد العصر بقليل، تخبره بأن الأمر قد تمّ على ما يرام، وأن الفتى قد صار في أيديهم بالفعل.

بعدما أنهى «ناصف» المكالمة مع «عماد»، ظل جالسا في مكانه لفترة، وقلبه يدق بعنف، بينما أحداث الأيام السابقة تجري أمام عينيه بسرعة، حتى أخذ غضبه يزداد ويزداد، وشعر برأسه

يغلي، وأن لهيبًا يجري في عروقه بدل الدماء، فانتفض من مكانه قائمًا، ووضع هاتفه في جيب جلبابه، ثم خرج من الشقة مندفعًا يقصد المكان الذي يحتفظ فيه «عماد» بزوج «ولاء».

وبينما كان يعبر باب البناية الخارجي إلى الشارع، وجد «ناصف» شخصًا يقف أمامه ويسد عليه الطريق، حتى كاد من فرط تعجله ولهفته أن يصطدم بذلك الواقف بطريقه، إلا أنه منع جسده من الاصطدام به وتفاداه بصعوبة، ثم نظر إلى وجهه، فوجده الشيخ «عبدالله»، كان يقف مبتسمًا، وهو يستند على عصاه التي صار يتوكأ عليها إذ يمشي لتحميه من خذلان ساقه له.

بـُهت «ناصف» وألجمت المفاجأة لسانه، وشعر كأن ماءًا باردًا قد انسكب عليه فجأة فأطفأ لهيب روحه.

ابتسم الشيخ «عبدالله» وقال لـ «ناصف» بنبرة عتاب هادئة:

- خلاص نسيتنا يا عم «ناصف»؟..

تلعثم «ناصف» وقال بصوت خافت:

- العفو يا مولانا.. لا عِشت ولا كنت..

- أومال فينك كده بقالك كذا يوم؟.. لا بتسأل عليا ولا حتى بتعتّب المسجد..

- أنا آسف يا مولانا.. ظروف.. ظروف أكبر مني..

تأبط الشيخ «عبدالله» ذراع «ناصف» كعادته القديمة، وسار معه بخطى وئيدة، وقال:

- كنت رايح فين؟..

صمت «ناصف» لبرهة ثم قال كاذبًا:

- كنت رايح أزور راجل طيّب، طلب مني زيارة..

- راجل طيّب؟..

- أيوة..

- طيّب..

قالها الشيخ «عبدالله» بعد لحظات من الصمت، ثم قال برفق:

- طب بعد اذنك كلّمه يا «ناصف» واعتذر له.. قول له أخويا الكبير محتاجني.. أنا عايزك في كذا موضوع..

وقف «ناصف» وحاول أن يسحب ذراعه من ذراع الشيخ برفق، وهو يقول متلعثمًا:

- أأ.. مينفعش والله يا شيخنا.. لازم أروح له..

تشبث الشيخ «عبدالله» بذراع «ناصف» بقوة أذهلت «ناصف» نفسه، وقال لـ «ناصف» بعتاب غاضب:

– جرى ايه يا «ناصف».. بقولك عاوزك في كذا موضوع.. هتسيبني وتمشي؟..

سار «ناصف» بجوار الشيخ مرغمًا وتمتم:

– معذرةً يا شيخنا.. ماقصدش..

خيم الصمت عليهما لدقائق، بينما تابعا سيرهما البطيء، حتى قال الشيخ «عبدالله» لـ «ناصف» بهدوء:

– انا عرفت باللي حصل بينك وبين «أمينة».. ناوي على إيه؟..

– اللي فيه الخير يقدمه ربنا..

قال الشيخ في هدوء:

– محصلش حاجة تستاهل كل ده يا «ناصف»، الست والدتك تصرفت بحكمة وروّحت بيتها في البلد في نفس يوم المشكلة، وانا كلمتها اعتذر لها بالنيابة عن «أمينة».. قالت لي انها مش زعلانة.. متكبرش انت بقى الموضوع.

لم يرد «ناصف» على الشيخ؛ إذ شعر بخجل منعه من مفاتحة الشيخ في أمر كراهيته الحالية لـ «أمينة» من الأساس، وعدم تقبله لها كامرأة، فقطع الشيخ حبل أفكاره فجأة، وقال كأنما كان يقرأ ما يدور برأسه:

– «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون»..

تلعثم «ناصف» وقال:

– ونعمَ بالله..

– بالمناسبة الست والدتك بعافية شوية.. إنت من يوم المشكلة مابتسألش على حد خالص..

أدرك «ناصف» فورًا – لمعرفته بأمه وطريقتها في التفكير – أن والدته تدعي المرض كي ترقق قلبه، وتدفعه لقطع حالة العزلة التي فرضها على نفسه بزيارتها، فقال للشيخ دون اكتراث كبير:

– بإذن الله ازورها قريب..

خيّم الصمت عليهما ثانية وهما يسيران حتى تراءى لهما مبنى المسجد من بعيد يلفه ضوء الغروب بألوانه الدافئة، فسأل الشيخُ «ناصف» بصوت يملؤه الشجن والحنين:

– أبويا «سليم» بيزورك؟..

بُهت «ناصف» للحظات، وتعجب من سؤال الشيخ، ثم ما لبث أن فهم أن الشيخ يسأل إن كان أبوه يزوره في المنام، فأجاب بصوت خافت:

– من زمان مزارنيش.. له فترة كبيرة.. انت بيزورك؟..

ارتج ساعد الشيخ الذي يتأبط به ذراع «ناصف» من شدة التأثر، وهو يغالب دموعه ويقول:

– بيزورني.. دايما بيزورني حبيبي.. والله يا «ناصف» أراه رأي العين ساعات..

نظر «ناصف» للشيخ مستغربًا، بينما الشيخ يستكمل حديثه قائلا:

– ساعات ابقى في المسجد واتخيل بيه داخل من الباب، أبص ع الباب ملاقيهوش، ساعات اشوفه وسط الزحمة من بعيد بيضحك لي، أخد بعضي وأجري على مكان ما لمحته ملاقيهوش.. من شدة اشتياقي له بقيت أتخيل بيه.. ويتهيألي اني شايفه.. كان راجل استثنائي، رحمة الله عليه..

– رحمة الله عليه..

وصل «ناصف» والشيخ إلى المسجد فدخلا، كان قد تبقى على موعد أذان المغرب أقل من ساعة، لذلك كان المسجد خاليا من المصلين، اصطحب الشيخ «عبدالله» «ناصف» إلى الحجرة الملحقة بالمسجد، فما أن فتح الشيخ باب الحجرة حتى اشتم «ناصف» رائحة مخبوزات طازجة شهية.

أضاء الشيخ نور الغرفة، وقال لـ «ناصف»:

– الأستاذة «أم أحمد» ربنا يديها الصحة عملت قُرص طازة، انا جبت كمية هنا، اقعد يا «ناصف» هاعمل شاي وناكل معاه قُرص..

تردد «ناصف» قليلا وفكر في طريقة يتهرب بها من الشيخ دون أن يغضبه، فلم يجد، فقال متلعثمًا:

– العفو يا مولانا، انا هاعمل الشاي..

مقابلة الشيخ، والسير معه والتحدث إليه، وذكرى والدهما الحاج «سليم»، واطلالة المسجد، ورائحة المخبوزات بالحجرة، كل ذلك بعث في قلب «ناصف» بعض الدفء والطمأنينة، بعد كل الإضطراب الذي عصف به خلال الأيام الماضية. إلا أنه ظل يتحين فرصة يغادر فيها الشيخ – دون أن يغضبه – ليذهب لتأديب الوغد المخادع.

أعد «ناصف» كوبين من الشاي، فناول الشيخ كوبًا، واستبقى كوبًا لنفسه. شكره الشيخ وهو يتناول لقمة من إحدى القُرص، فأكلها ورشف معها رشفة من كوب الشاي، ثم قال باستمتاع حقيقي:

– الله.. تسلم ايدك يا «ناصف»..

– ألف هنا يا مولانا..

تناول الشيخ كيسا قماشيا من ركن الحجرة وهو يقول لـ «ناصف» بشغف وحيوية:

– شوف «احمد» ابني بعت لنا ايه من بره؟.. الكتب اللي كنا طلبناها منه.. ومعاهم ديوان «ابن الفارض» بالطبعة اللي انت كنت عاوزها..

قال تلك الجملة وهو يناول «ناصف» كتابًا.

تحسس «ناصف» غلاف الكتاب، فأحس بحنين لنفسه القديمة المُحبّة للشعر والمحبة، واشتاق لمشاعر الاطمئنان وهدوء القلب.

– اقرأ يا «ناصف».. اقرأ وسمّعنا..

تردد «ناصف» للحظة، ثم تربع على الأرض عند قدمي الشيخ الذي منعته حالة ركبتيه من الجلوس على الأرض، ثم فتح الكتاب وبدأ في القراءة. قصيدة تلو قصيدة، ومقطوعة شعرية تلو مقطوعة، حتى وصل لمقطوعة تقول:

«عذّب بما شئت غيرَ البعدِ عنك تجد

أوفى محبٍ بما يرضيك مبتهج

وخذ بقية ما أبقيت من رمق

لا خير في الحب إن أبقى على المُهَجِ

لله أجفانُ عينٍ، فيكَ ساهرةً

شوقًا إليكَ وقلبٌ بالغرامِ شجي

أصبحتُ فيكَ كما أمسيتُ مكتئبًا

ولم أقُل -جزعًا- يا أزمةُ انفَرجي»

مرّ بـ «ناصف» طيف أبيه، وأحس شوقا كبيرا إليه، ثم اهتاجت أحزانه، ورثاؤه لنفسه طوال الفترة الماضية، فارتج صوته وسالت دموعه. ثم استكمل القراءة بصوت متهدج فقال:

«ما بينَ معترَكِ الأحداق والمُهَجِ

أنا القتيلُ بلا إثمٍ ولا حرَجِ

ودّعتُ -قبل الهوى- روحي لمّا نظَرَت

عينايَّ من حسنِ ذاكَ المنظرِ البهجِ

أعوامُ إقباله كاليومِ في قِصر

ويومُ إعراضه في الطولِ كالحججِ

فإن نأى سائرًا يا مُهجتي ارتحلي

وإنْ دنا زائرًا يا مقلتي ابتهجي»

زاد بكاء «ناصف»، ونحيبه، حتى ارتج جسده، ولم يعد قادرًا

على استكمال القراءة.

مدّ الشيخ كفه فربّت بحنوٍ على كتف «ناصف»، وقال بهدوء:

– فيك ايه يا «ناصف»؟.. احكي لي.. انا اخوك «عبدالله»..

حكى «ناصف» – وهو يبكي – للشيخ ما اتفق عليه مع «عماد» من خطف الفتى زوج «ولاء»، ورغبته في تأديب الفتى بيديه. وأخبره بأنه عندما التقاه منذ قليل، كان ذاهبًا لتأديب الفتى، بل وكان ينتوي قتله.

تحامل الشيخ على نفسه حتى انزلق من على الكرسي، وجلس مادًا ساقيه على الأرض، ثم احتضن «ناصف» وربّت على رأسه وتركه يبكي حتى يهدأ، في نفس اللحظة التي علا فيها رنين هاتف «ناصف» المحمول، فنظر إلى الشاشة، ثم نظر إلى الشيخ وقال:

– عماد..

– رُد عليه..

فتح «ناصف» الخط، فأتاه صوت «عماد» عاليا يقول:

– انت فين يا «ناصف»؟.. الناس استنوا كتير لحد ما قلقوا، ومشوا الولد.. هو مضى على اللي احنا عاوزينه.. بس الرجالة مكنش ينفع يخلوه اكتر من كده.. الصراحة انا كمان كنت خايف

من طيشك ومش عاوزك تقابله، فلما كلموني قلت لهم يسيبوه..

جفف «ناصف» دموعه، وتمالك نفسه ثم قال لـ «عماد»:

– تمام يا «عماد».. تمام..

ثم أنهى المكالمة.

ربّت الشيخ على كتف «ناصف» وقال:

– هو بدأ بالشر، فلقى الشر.. و انت بدأت بالحسنى، والحمد لله كملت معاك بالحسنى..

دخل الحجرة مؤذن المسجد في تلك اللحظة، فابتهج لعودة «ناصف» للمسجد بعد انقطاع، ورحب به ترحيبا كبيرا، قبل أن يذهب ويرفع أذان المغرب.

أمّ «ناصف» المصلين في صلاة المغرب، وصلى الشيخ «عبدالله» خلفه، وبعد الصلاة رحب رواد المسجد بالشيخ «ناصف»، وابتهجوا لعودته.

مكث «ناصف» بالمسجد حتى أتم صلاة العشاء، وأوصل الشيخ «عبدالله» إلى منزله، وعند باب بيت الشيخ، سأل الشيخُ «ناصف» عما ينتوي عمله في الأيام القادمة، فأجاب قائلًا:

– انا هاخلي «عماد» يشوف محامي يتصرف مع الولد ده، ويخلص

البنت منه، احنا دلوقتي في موقف قوة وانا كده كده مش عاوز من الواد حاجة، انا هعوض بنتي ماديًا بمعرفتي، أهم حاجة البنت تخلص من التِعبان ده، وأهو قصاد ما ضربها، أخد اللي فيه النصيب..

– طب مش ناوي ترجع بيتك بقى؟

تنهد «ناصف» وصمت قليلا، ثم قال:

– اللي فيه الخير يقدمه ربنا.. انا جت لي فكرة عاوز اخد رأيك فيها..

– قول..

– انا عاوز اغيّر جو.. عاوز اسافر لوحدي كام يوم اي حتة. عاوز أبعد شوية وأتمالك نفسي.

رد الشيخ على الفور:

– عين العقل..

– توكلنا على الله.. بكرة بإذن الله أدبّر الموضوع ده..

– على البركة..

ودّع «ناصف» الشيخ، والتفت ذاهبًا، إلا أنه تذكر شيئًا، فالتفت للشيخ ثانية، وسأله باستغراب:

– إلا صحيح يا عمي الشيخ.. انت اشمعنى جيتلي عند «عماد»

النهارده بالذات؟.. ازاي جيت لي في التوقيت الحاسم ده؟..

ابتسم الشيخ وقال في غموض:

- ابوك زارني.

***

عندما غادر «ناصف» الشيخ «عبدالله»، كان يشعر بدفءٍ طاغٍ يلف روحه، كأنه قد غادر للتوّ حضن أبيه. كما شعر أيضا براحة كبيرة خصوصا بعدما وصل لنتيجة جيدة في أمر رد اعتبار «ولاء» وتأديب زوجها الخائن، خاصة أن هذا قد تم دون أن يورط نفسه في أذى زوجها.

أخذ «ناصف» يتجول بالشوارع دون أن يقصد هدفًا معينًا، وشعور بالنشوة يغمره بعدما عادت روحه خفيفة، راضية كما يعرفها. حتى أنه طاف بالشارع الذي تقطنه «عبير» أكثر من مرة جيئة وذهابًا، وملأ عينيه من شكل البيت الذي تسكنه من الخارج، وتنعّم بالشعور بقربها، وأنه لا يفصله عنها سوى بضع خطوات.

ظل على هذه الحال، حتى قادته قدماه لمطعم «حاتي» يتعامل معه باستمرار، فابتاع منه عشاءًا معتبرا له ولـ «عماد»، ثم اتخذ طريقه عائدا إلى بيت «عماد».

-١٢-

صباح اليوم التالي، غادر «ناصف» شقة «عماد» متوجهًا إلى محطة القطارات، فاستقل القطار المتجه إلى «الإسكندرية». كان قد قرر في المساء تنفيذ ما وافقه عليه الشيخ «عبدالله» من ضرورة اعتزاله بنفسه لفترة؛ ليبتعد عن كل المشكلات التي أرقته طوال الفترة الماضية؛ سعيًا لاستعادة صفاء روحه، وهدوء أعصابه.

اختار المدينة الأحب إلى قلبه، «الإسكندرية»، تلك التي احتضنت قديمًا ذكريات شبابه، ولا تزال مسكنًا للعديد من أحبابه وأصدقائه، حيث أنه لم ينقطع عن زيارتها أبدًا منذ وقع في حبها أثناء قضائه لأيام العسل مع «أمينة» بها.

زياراته المتتالية للمدينة الجميلة، جعلته يحفظ معالمها عن ظهر قلب، وأتاحت له كذلك استكشاف جوانب الجمال العديدة فيها. فأحب في المدينة قدرته على الإنعزال والتأمل، هناك أمام البحر الصاخب أحيانًا، والهادئ جدًا أحيانًا أخرى، أحب مساجدها العريقة المتعددة، وأنماط العمارة المختلفة فيها، واتساع قلب المدينة لشتى صنوف الثقافات والبشر.

أحب مطاعمها كذلك، وتنوع ما تقدمه تلك المطاعم من أصناف الطعام، فكان زبونًا مستديمًا للعديد من تلك المطاعم، فلا تخلو زيارة من زياراته للمدينة، من صولات وجولات له بالمطاعم التي أحب ما تقدمه من أطعمة، و أدمنه.

لم يكن «ناصف» قد أخذ كفايته من النوم ليلة أمس، لسهره بالخارج لفترة، ثم سهره مع «عماد» بعد وجبة العشاء الدسمة بالشقة، ثم استيقاظه لصلاة الفجر بالمسجد، ثم العودة وتجهيز حقيبة سفره، وانطلاقه مبكرًا إلى محطة القطارات.

لذلك ظل يغفو ويفيق بالقطار، ويغفو ويفيق، حتى استفاق على نداء بائع «الشاي» بالقطار، فابتاع منه كوبا كبيرا، واخرج من حقيبته بعض «القُرص» التي منحها له الشيخ «عبدالله» بالأمس، فأخذ يقضم من القرص ويرتشف رشفات من كوب الشاي مع كل قضمة.

جذب منظر الحقول والأشجار بمحاذاة شريط القطار والسماء الصافية الواسعة بصر «ناصف»، فسرح بتأملاته بعيدًا. ولفّه شعور بالصفاء، جعله قادرًا على أن يشعر بنفسه جدًا، ويرى كامل تفاصيل روحه بوضوح شديد.

أدرك – دون ضيق – أنه منذ تحرر مؤقتًا من ذلك الكرب الذي أصابه بسبب ما أصاب ابنته، عاد هيامه بـ «عبير» ليحتل كل تفكيره

ووجدانه؛ إذ تمشّى بالأمس - مرورًا ببيتها - وهو يفكر فيها، وابتاع طعام العشاء وهو يفكر فيها، وتناول العشاء، وتضاحك مع «عماد» وهو مشغول بها، ثم استبد طيفها به - طوال الليل - منذ اختلى بنفسه في حجرته.

حتى أثناء جلسته تلك في القطار، كان لا يزال يراها في كل شيء، ويسمع صدى صوتها يتردد في وجدانه، ويطغى في نفسه صوت حفيف ثوبها وهو يحتك بالأرض ببيتها على ضجيج القطار وهدير حركته.

ظل على هيامه، حتى جال بخاطره مطلع مقطوعة شعرية غزلية باللهجة العامية، من وحي هيامه بـ «عبير» ظل يدندن بالمطلع حتى نظم هذه الأبيات..

«كام ألف فارس شاف عيونِك فاتغلَب؟..

سلّم سلاحه، ومجّدِك، حاله اتقلب..

شاف العجب كله بـ عينيه، شاف العجب..

حتى التراب دوستي عليه.. أصبح دهب!»

وصل «ناصف» إلى الإسكندرية، فاستهل رحلته بزيارة ذلك الفندق الصغير الذي اعتاد أن يقيم فيه بحي «الشاطبي» كلما زار

المدينة، ذلك الفندق الذي أحب «ناصف» فيه نظافته وبساطته وقربه من البحر، كما أن اعتياده للإقامة بهذا الفندق دون غيره ربط بينه وبين أصحاب الفندق والعاملين به بعلاقة مودة.

وضع حقيبة سفره بغرفته بالفندق، ثم انطلق، فزار أحد المطاعم وتناول غداءًا شهيًا، ثم خرج من المطعم فجلس أمام البحر، وسبح بعيدًا مع خواطره.

***

مرت سبعة أيام على «ناصف» في عزلته تلك، تخلص خلالها من كل شحنات الغضب والقلق التي استبدت به طوال الفترة الماضية، واستقر نفسيا إلى حد كبير، وتوصل إلى حل يرضيه في أمر هيامه بـ «عبير»، حيث قرر أن يصبر، أليس الحب كله في الصبر؟.

سيصبر إذًا، حتى يحكم الله له أو عليه، فإما يقضي الموت على الحاج «ابراهيم»، فيصبح الطريق إلى قربها مفتوحًا أمامه، أو يقضى عليه هو، فيموت محبًا لها، دون أن يدنس ذلك الحب شبهة جزع أو فراغ صبر.

أما عن «أمينة»، فقرر ألا يظلمها هي الأخرى. سيطلقها، و لتتصرف في حياتها من بعده كيفما شاءت.

وفي الليلة السابعة له بالعزلة، وبعدما صلى العشاء ونام نومًا طويلا هادئًا لا قلق فيه، حلم أنه في غرفة مظلمة، يحتضن شخص ما، كان لذلك الشخص - في البداية - بنيانًا قويًا متماسكًا، ثم ما لبث أن ظل يضعف ويضعف، كأنه يُعتصر، ثم ما لبث أن انتهى تمامًا، حتى وجد «ناصف» نفسه يحتضن فراغًا بين يديه.

استيقظ «ناصف» من نومه فجأة، على رنين هاتفه المحمول، نظر حوله للحظات حتى استطاع أن يستعيد وعيه ويدرك أين هو، وما الذي أيقظه، ثم أمسك بهاتفه ونظر إلى شاشته، كان المتصل هو «فوزي» سائق الحاج «ابراهيم».

نظر إلى الساعة في شاشة الهاتف، فوجدها الرابعة فجرًا، فتساءل في دهشة عن سبب اتصال «فوزي» في وقت كهذا، ثم فتح المكالمة بسرعة.

جاءه صوت «فوزي» عاليًا مضطربًا وهو يقول:

- إلحقنا يا دكتور «ناصف»، الحاج «ابراهيم» تعيش أنت!..

***

في الصباح، سمعت «أمينة» صوت طرقات تقرع الباب الخارجي للشقة، ذهبت وفتحت الباب، فتفاجأت بحماتها

«نرجس» تقف مستندة إلى الحائط وقد بدت عليها علامات المرض والإعياء الشديد، وإن ظلت تبتسم بكبرياء، وتنظر لـ «أمينة» بعينيها الواسعتين بنفس النظرة القوية التي لم تفارق عينيها أبدًا.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تقابل فيها «أمينة» حماتها منذ ذلك اليوم العاصف الذي اعتدى فيه «ناصف» عليها ثم هجر البيت.

أفسحت «أمينة» الطريق لحماتها، وهي تقول بفتور:

- أهلا يا حاجّة.. اتفضلي..

عبرت «نرجس» فرجة الباب، وجلست على كرسيها المفضل بردهة الشقة، فتبعتها «أمينة» وجلست على الكرسي المقابل.

- فين «ولاء» و«سليم»؟.. وحشوني عاوزة اشوفهم..

نادت «أمينة» على ولديها، فأقبلا، ورحبا بجدتهما ترحيبًا كبيرًا؛ «ولاء» بسبب حبها لجدتها، و«سليم» بسبب سعادته لخطوة التهدئة التي اتخذتها جدته - بزيارتها تلك - ناحية الصلح مع أمه.

سألت «نرجس» عن ولدها «ناصف» فأجابها «سليم» بأنه لا يزال مختليًا بنفسه بـ «الإسكندرية».

ظلت «نرجس» مع زوجة ابنها وحفيديها نحو ساعة يتحدثون، ثم شردت ببصرها قليلًا، ثم نظرت إليهم وقالت:

– انتم كنتم واحشني، وحبيت اشوفكم، انا هاروّح بقى..

وقبل أن يقاطعها أحدهم، ويدعوها للمكوث معهم لعدة أيام، استطردت قائلة:

– انا بس عاوزة اطلب منكم طلب، عاوزاكم تيجوا معايا كلكم توصلوني للبيت..

اندهشت «أمينة» وولديها للحظات، حتى قطعت «ولاء» حبل الصمت قائلة:

– لا انتي هتباتي معانا كام يوم يا «تيتة» وبعدين هنروح معاكي البلد زي ما تحبي..

– معلش.. خلوني على راحتي..

حاولت «ولاء» استبقاء جدتها، وكذلك فعل «سليم»، إلا أن جدتهما صممت على رأيها، وأمام إصرارها هذا قامت «أمينة» وولديها بالاستعداد للسفر إلى القرية.

أثناء تلك الجلسة، وفي الطريق إلى القرية، كانت «نرجس» تتعامل بودٍ كبير – على غير عادتها – مع «أمينة»، لدرجة أدهشت حتى «ولاء»، و«سليم».

وما أن وصلوا جميعا إلى «الدوار» الكبير بالبلدة، حيث لا زالت

تسكن «نرجس»، حتى طلبت «نرجس» من «أمينة» الانفراد بها بحجرتها، فاستأذن الشابان في الخروج لزيارة القرية والاستراحة، بينما دخلت «أمينة» مع حماتها «نرجس» إلى غرفتها في توجس.

كانت غرفة «نرجس» تعبق برائحة مميزة خلابة كعادتها، جلست «أمينة» على كرسي بجوار السرير، بينما ذهبت «نرجس» إلى ركن الحجرة البعيد فخلعت جلبابها الأسمر وعلقته على المشجب، ثم عادت وجلست على طرف سريرها أمام «أمينة» بجلباب المنزل الذي كانت ترتديه تحت الجلباب الأسمر.

قالت «نرجس» لـ «أمينة» في حنو:

- أنا كنت عاوزة اكلمك في حاجتين، أول حاجة واعتبريني والدتك و اقبليها مني.. مفيش راجل بيتعلق بـ ست متعلقة به.. الراجل دايما بيحب الست التقيلة الصعبة اللي مش بتجيله بالساهل. مش شغلة الست انها تحسس الراجل انها بتحبه وعشقاه، شطارة الست انها تهتم بنفسها وتفضل تقيلة ومطلوبة، انها تعرف تجرّي الراجل وراها بالمشوار وتخليه دايما مشتاق لها ومشتهيها..

الراجل لما بيضمن الست يا «أمينة» بيزهدها، ومش بتملى عينه.. «ناصف» صحيح ابني.. لكن في الاخر راجل.. و راجل عبيط كمان.. أغلب من الغُلب.. اتعززي عليه وهو يرجعلك ندمان.

كانت «أمينة» تستمع لحماتها وهي في قمة الدهشة، بسبب تغير لغة خطاب حماتها معها، وأسلوبها، إلا أن ما قالته لها حماتها، جعلها ترتبك وتفكر فيه بجدية وتنظر له بعين الاعتبار والوجاهة.

تساءلت «أمينة» بارتباك:

- وهو ينفع الست تتعزز على جوزها؟..

قالت «نرجس» بنفاذ صبر:

- اومال اللي ينفع انها تفضل طوعه وتحت أمره لما يزهدها ويهملها ويبعد عنها؟.. أيوة طبعا ينفع.. اللي بقولهولك ده طبع الراجل.. والست الواعية هي اللي تعرف تحافظ على شوق جوزها ليها..

ساد الصمت الحجرة، بينما «أمينة» تفكر فيما قالته لها حماتها، ثم تساءلت بصوت خافت:

- يعني اعمل ايه؟..

ابتسمت «نرجس» وأخذت «أمينة» من يدها إلى المرآة الكبيرة بالغرفة، وفتحت لها الأدراج وهي تقول:

- تهتمي بنفسك حبّة.. شايفة.. كل دي حاجات بستعملها أنا.. وانا حماتك.. وجدة عيالك.. انتي لسه في عز شبابك.. لازم تهتمي

بنفسك وتشوفي نفسك حلوة، علشان جوزك يفضل يشوفك حلوة.. انتي حلوة وزي القمر، بس الرجالة بتحب الأحمر والأخضر.

تساءلت «أمينة» بيأس:

– هو ده يعني اللي هيرجعلي «ناصف»؟..

– لأ.. ده اللي هيخليكي تشوفي نفسك حلوة.. لما تشوفي نفسك حلوة.. هتعرفي قيمتك كويس، لما انتي تعرفي قيمتك.. الدنيا كلها هتعرف قيمتك..

تحركت «نرجس» ببطء إلى سريرها، فتمددت عليه وهي تقول:

– اعذريني يا «أمينة» انتي زي بنتي.. انا تعبانة فـ همدد ع السرير..

قامت «أمينة» إليها، فساعدتها على التمدد بالسرير، وغطت لها ساقيها بالغطاء، ثم عاودت الجلوس على الكرسي المجاور للسرير، وقالت:

– انتي كشفتي؟.. ابعت اجيب دكتور؟..

– كشفت، والدكتور بيعدي عليا كل يوم..

– طب قالك ايه؟..

أشاحت «نرجس» بيدها في ضيق، وقالت:

- كلام دكاترة..

ابتسمت «أمينة» وقالت وهي تشعر ببعض الألفة نحو حماتها للمرة الأولى بحياتها:

- كنتي عاوزة تقوليلي ايه تاني طيب؟..

نظرت «نرجس» إليها بحنان وقالت:

- كنت عاوزاكي تسامحيني.. انا هحكيلك حكاية ولا الحواديت، الحكاية دي أول مرة احكيها في حياتي وافتكر الحكاية دي هتخليكي تسامحيني..

تطلعت «أمينة» لحماتها باهتمام، بينما نظرت «نرجس» لبعيد، وقالت بتأثر كبير وهي تبتسم:

- عاوزة احكيلك عن بنت صغيرة، حلوة زي القمر، كانت حياتها جميلة وهادية، عايشة في بيت صغير مع امها وابوها وجدها، فجأة حياتها انقلبت، لما صحيت في يوم مش لقيت أمها في البيت.. استنّت أمها طول اليوم، بس أمها مش رجعت.. فضلت تعيط.. عايزة امها.. ومش فاهمة أمها سابتها وراحت فين.. مكنتش بتسمع من اللي حواليها غير كلمة «طفشت» وكلمة «فضيحة وعار»..

مش كانت عارفة ليه أمها سابتها، بس اللي فهمته ان امها مشيت ومش راجعة البيت تاني..

فضل أبو البنت و جدها يدوروا على أم البنت لأيام، وبعدين أبو البنت اتخانق مع جدها و زعق جامد.. وقال لجدها.. «بنتك فضحتني.. جابتلي العار لحد ما اموت.. انا مش عارف ارفع عيني في وشوش الناس»..

وتاني يوم.. أبو البنت كمان «طفش».. اختفى هو راخر.. وفضلت البنت مع جدها.

بعد شوية جد البنت أخدها وهجروا بلدهم، راحوا بلد تانية خالص، كان خايف على البنت من فضيحة امها ومن بعدها ابوها. عاشت البنت مع جدها في عشة على أول البلد الجديدة اللي راحوها..

جدها عمل كل اللي يقدر عليه علشان يربيها.. كان بيشتغل على قد ما يقدر طول النهار، وطول الليل يعلمها ويقرأ لها من الكتب بتاعته، علمها القراية والكتابة ونوّرها.. في زمن كان بنت مين اللي تعرف تقرا وتكتب..

فضلت البنت تكبر لحد ما بقت شابة يتمناها أي راجل، بس شابة فقيرة مش ليها حسب ولا نسب، كان كل يوم بيعدي بيزيد

خوف جدها عليها، كان خايف يموت ويسيبها. خايف عليها من الزمن ومن جمالها وعنين الناس اللي يندب فيهم رصاص، فاضطر يجوزها لأول شاب يخبط على الباب.. وبعد ما جوّزها بأيام.. مات.

عاشت البنت كام سنة في مرار وفقر واهانة وقرف مع جوزها النطع، اللي مكنش يعرف من الدنيا غير الكيف والشر.. لحد ما غار في داهية ومات..

فرحت البنت انها خلصت منه في الأول، بس بعد موته بأيام بدأت أيام أوسخ؛ مفيش ست رضيت تشغلها ولو خدامة في بيتها.. كل الستات كانت بتغير من جمالها، وكل الشبان والرجالة كانوا طمعانين فيها..

فضلت شهور بتشوف الموت كل يوم وكل ساعة، اتذلت وجاعت وخافت.. كانت تقضي النهار كله تـدوّر على أي شغلانة.. تجيب منها أي لقمة تتقوّت بيها، وتقضي الليل وهي ميتة من الخوف؛ كان بيتهيأ لها في كل ثانية ان حد هيزق باب العشة ويخش يتهجم عليها، ومحدش هيغيتها.

وفي ليلة، في عز خوفها وذُلها.. جت لها فكرة.. فكرت تنتقم وتجبر كل الناس تحترمها. تخوّفهم منها وتبقى ستهم كلهم..

فكرت تلف على أحسن واحد في البلد كلها.. شيخ البلد وسيدها.. إللي البلد والبلاد كلها بتقف رهن اشارته وبتحلف بسيرته.. قررت تلف عليه وتحببه فيها.. وتخليه يتجوزها على سنة الله ورسوله.. وتبقى ست البلد كلها..

سكتت «نرجس» للحظات لتلتقط أنفاسها، بينما كانت «أمينة» في قمة الترقب والانفعال، بعدما أدركت أن حماتها تحكي لها عن ماضيها، ثم استكملت «نرجس» حكايتها قائلة:

– لفّت على شيخ البلد، وحببته فيها، لحد ما جالها لحد بابها زي ما دبرت وطلب بنفسه يتجوزها.. كل أهل البلد قالوا انها سحرت له، عجبها الكلام أوي.. وحققت لهم كلامهم.. رسمت الدور على الكل حتى جوزها وابنها لما جه، ساقت في سيرة السحر والعفاريت، ووهمت الكل إنها بتسحر بصحيح ومخاوية عفاريت.. فالكل بقى يخاف منها، ويعملها ألف حساب.. وده اللي هي كانت عاوزاه..

سالت الدموع من عيني «نرجس» مدرارًا وهي تستكمل في تأثر شديد:

بس المفاجأة الجميلة اللي حصلت لها، إن الراجل اللي لفت عليه طمعانة في هيبته وجاهه، طلع أحن وأطيب وأكرم راجل

ممكن ست تقابله في الدنيا، عاشت في ضله زي الأميرات، لدرجة انها حست إن الدنيا بتطيب خاطرها بالراجل ده بعد كل اللي شافته في حياتها، عاشت في ضله معززة مكرمة، خلاها ست البلد بصحيح وست كل البلاد كمان، حبها أوي.. وهي كمان عشقته.. وحبت التراب اللي بيخطي عليه..

رغم كده، هي كانت اتعلمت الدرس كويس أوي.. فضلت جامدة وتقيلة حتى مع جوزها حبيبها، وقالت انها لازم تفضل شديدة وجامدة، مش ينفع تضعف ولا يغلبها حبها لا لجوزها ولا حتى لإبنها اللي حيلتها.

أخدتها العِزة، وساقت في الدور، حتى لما ابنها كبر وبقى راجل، واتجوز، صممت إنها لازم تفضل هي اللي متحكمة، وتخلي ابنها دايما في طوعها هي..

نظرت «نرجس» لـ «أمينة» بحنان، واستكملت حكايتها قائلة:

- رغم ان مراته كانت ست البنات، أميرة ومؤدبة ومايطلعش منها العيبة، بس حماتها كانت الأنانية عامية عنيها، وخوفها.. خوفها من الأيام،.. خوفها لترجع تاني وحيدة في آخر أيامها، لو مرات ابنها غيّرت ابنها عليها وأخدته منها..

غطت الدموع وجه «نرجس» بالكامل، بينما شردت ببصرها

بعيدًا، وسكتت، فسكتت «أمينة» هي الأخرى احترامًا لفيض المشاعر الذي تمر به حماتها، حتى استكملت «نرجس» حديثها بعد دقائق - وهي تنظر لبعيد - قائلة:

- رغم انها من بعد موت جوزها، مش كانت عايزة حاجة من الدنيا غير إنها تروح له. إنها تشوف تاني ضحكته وتترمي في حضنه، وتعيط.. تعيط من شوقها له، تروح له وتبقى مش محتاجة تكدب تاني.. لإنها ساعتها مش هتبقى خايفة، ولا وحيدة.

قالت «نرجس» الجملة الأخيرة بصعوبة وهي تبكي وترتجف، وتتشبث بالغطاء.

قامت إليها «أمينة» فجلست على طرف السرير واحكمت الغطاء عليها، وقالت في قلق:

- طب اهدي يا حبيبتي.. انا سمعت وفهمت.. هابعت اجيب الدكتور..

ردت عليها «نرجس» بصعوبة وهي تنتزع الكلمات من حلقها انتزاعًا:

- انا كويسة.. مش عاوزة دكتور.. انا بس عاوزة أنام باين.. عاوزة أرتاح.. هابقى كويسة.

***

خرج «ناصف» – الذي عاد من الإسكندرية على وجه السرعة – من المقابر بعدما حضر مراسم تشييع ودفن جثمان الحاج «إبراهيم»، وقلبه يرتجف بين ضلوعه. كان الأمل يعصف به؛ بعدما زالت العقبة التي كانت تمنعه من الارتباط بـ «عبير»، وراح يكبت رغبة عارمة في نفسه في إظهار السعادة.

ودّع «ناصف» العدد القليل من المشيّعين الذين حضروا الجنازة، وسار مبتعدًا بخطى واسعة، حتى أصبح وحيدًا تمامًا، فأخذ يغالب ابتسامات واسعة راحت تغزو وجهه؛ محاولا إخفاء سعادته العارمة احترامًا لجلال الموت، ولذكرى رجل كان في حياته يحبه بصدق، ويحب صحبته.

زارت مخيلته فجأة صورة «أمينة»، فهدأت خطواته، وخفتت سعادته الغامرة. هل يطلقها فعلا؟.. ماذا سيكون رد فعلها؟.. بالتأكيد سيصيب قلبها حزن كبير حتى وإن لم تبدِ به. هو يعرف أنها تحبه جدًا، وهو أيضا يستصعب أمر تطليقها وإبعادها عنه، لكنها في النهاية امرأة مؤمنة، وهو كما يريد ألا يظلمها، فهو يريد ألا يظلم نفسه، بالتأكيد ستتقبل هي الأمر بقلبٍ مؤمن ونفسٍ راضية بقضاء الله.

هل يطلقها؟.. أم يخيرها بين الطلاق أو البقاء على ذمته مع زواجه من «عبير»؟.. هل يستطيع العدل بين من لم تعد تجمعه بها

أية مشاعر، وبين تلك التي ملكت فؤاده، وصار أمر نفسه بيديها؟..

كان غارقًا في خواطره تلك، عندما رنّ هاتفه بمكالمة من ولده «سليم»، أبلغه فيها بوفاة أمه «نرجس».

***

عندما فقد «ناصف» أباه فقد اتزانه. بينما عندما فقد أمه فقد قوّته.

لم يكن يتخيل «ناصف» في أسوأ كوابيسه، أن تكون نهاية علاقته بأمه بهذا الشكل؛ أن تمرض وتموت وحيدة دون أن يكون هو إلى جوارها. أن تعاني في آخر أيامها بالدنيا، بينما هو غارق في أحلام يقظته تحت قدمي طيف «عبير».

عندما عرف «ناصف» بخبر وفاة أمه، أظلمت الدنيا في عينيه، وجلس على الأرض في مكانه خشية السقوط. بعد مرور وقت طويل، أجرى اتصالين هاتفيين وهو لا يزال جالسًا بمكانه. اتصال بالشيخ «عبدالله»، ثم اتصال بـ «عماد» فأخبرهما بمكانه الذي يجلس فيه، وطلب منهما القدوم إليه؛ لعدم قدرته على الحركة.

اصطحبه الشيخ و«عماد» إلى القرية، ولم يفارقاه طوال الثلاثة أيام الأولى لوفاة أمه، فأقاما معه خلالهم بالقرية، حتى انقضى العزاء، فرجعا إلى المدينة وتركاه مع أسرته على وعد منه بلقائهما

فور عودته للمدينة، أو عودتهما إليه بالقرية إذا لم يلحق بهما بعد فترة وجيزة.

في مساء اليوم الثالث لوفاة أمه، جلس «ناصف» مع أسرته حول مائدة العشاء بالدوار الكبير، شارد البصر، ذاهل العقل، لم يستوعب بعد أن أمه قد رحلت، وبهذه الطريقة التي لا رأفة به فيها ولا وداع.

راحت «ولاء» تلح على والدها أن يتناول شيئًا من الطعام، حتى تناول لقيمات جبرًا لخاطرها، ثم غاب في صمته وذهوله من جديد لدقائق، حتى تنبه فجأة كأنما تذكر شيئًا، فسأل «أمينة»:

– كنتم بتقولوا ايه انتي وهي لما قعدتم لوحدكم؟..

ردت عليه «أمينة» باقتضاب، وعلى وجهها تعبير محايد:

– كنا بنتصافى..

شرد «ناصف» ببصره لبعيد، ثم قال بأسى:

– ماتت لوحدها..

قاطعته «أمينة» سريعًا وقالت بغلظة:

– ماتت في حضني، ربنا يسقيها من حوض النبي..

تعجب «ناصف» في نفسه، من تعامل «أمينة» المحايد معه،

وعدم تلهفها عليه، وتعجب أيضا من الود الكبير الذي صارت «أمينة» تتحدث به فجأة عن أمه، إلا أنه لم يكن رائق البال ليفكر أو ليحلل أي أمر، فغاب في شروده من جديد.

في اليوم التالي، طلب «ناصف» من أسرته أن يعودوا إلى بيتهم بالمدينة، وأخبرهم أنه سيظل بالبلدة لعدة أيام لينهي بعض الشئون، ويحيي ذكرى والدته. فوافقوا بصعوبة وبعد جدال، بعد موافقة «ناصف» على أن يبقى ولده «سليم» معه، حتى يعودا سويًا إلى المدينة.

طوال الأيام التالية، كان «ناصف» يزور قبر أمه وأبيه كل صباح، مصطحبًا معه المقرئون، ليقوموا بتلاوة ما تيسر من آيات القرآن الكريم، ثم يعود إلى مندرة الدوار الكبير، فيقيم جلسات لتلاوة القرآن، ويطعم الحاضرين والمساكين.

ظل «ناصف» على هذا الحال لعدة أيام، و«سليم» لا يزال برفقته، حتى اضطر «سليم» للعودة إلى المدينة لمتابعة دراسته الجامعية، فصار «ناصف» يتبع نفس الروتين اليومي بمفرده بالقرية.

كان أحب الأوقات لـ «ناصف» في تلك الفترة، هو وقت اختلائه بنفسه بالدوار؛ فكان يغلق باب الدوار الخارجي، ثم يجلس على الأرض مستندًا بظهره إلى الباب من الداخل، فيكون

البيت كله مكشوفًا أمامه، ثم يغيب في ذكرياته وأفكاره.

كان يغيب تماما، فلا يدري شيئًا عما يدور بالخارج؛ حتى أنه كان لا يعرف ليلًا من نهار. كان شريط ذكرياته يمر أمام عينيه، حتى يكاد يرى أباه جالسًا على الأريكة بصحن الدار ممسكًا بسبحته الطويلة، وقد رفع ساقًا على الأريكة فاستند عليها بمرفقه، وترك الساق الأخرى على الأرض. ويكاد يرى أمه وهي شابة، تروح وتجيء بالدار وتبتسم له بين الحين والآخر.

كان يبكي، ويضحك، ويحدث نفسه بصوت عالٍ، ويغلبه التعب فينام، ويحلم أحلامًا متداخلة بلا معنى.

ربما انتقل أحيانًا إلى حجرته فنام فيها على سريره، وربما نام بسرير أبيه وأمه بغرفة نومهما، كان مستغرقًا تمامًا في فيض ذكرياته، لا يخرجه من هذا التيه سوى عامل خارجي؛ كعددٍ من المكالمات الهاتفية المتلاحقة من الشيخ «عبدالله»، أو «عماد»، أو «ولاء»، أو زيارة من ولده «سليم».

بعد عدة أيام، بدأ «ناصف» يواسي نفسه بذكر «عبير»، كأنه يختلس بعضًا من سُكّرِ وجهها ليحلّي مرارة أيامه، فكان يسري عن نفسه بذكرها، وباستحضار أبيات الشعر التي تذكره بها.

حتى أنه أقام ليلة بحجرته بالدوار، وفتح خزانة كتبه ودفاتره

القديمة، وأخذ يقرأ ما كان يكتب من شعر رومانسي ركيك في فترة مراهقته وشبابه، ويستحضر طيفها.

ظل على هذا الحال ليلتها لفترة، حتى غلبه النعاس، فقام إلى سريره ونام، فلما نام حلم بـ «عبير»، كانت واقفة أمامه تحمل حقيبة سفر وتنظر إلى الأرض، فانزعج في الحلم بشدة، وجال بخاطره أنها سترحل إلى بلدها وأهلها ولن تعود إليه ثانية، إلا أنها وضعت الحقيبة على الأرض، ونظرت في عينيه مباشرة بعينيها الفيروزيتين الواسعتين، وقالت بصوت كالفحيح وهي تبتسم ابتسامة واسعة مفاجئة:

- مش هسيبك..

ارتج جسد «ناصف» في المنام، وعصف به خوف شديد من نظرتها، ثم اختفت من أمامه فجأة، فرآها تجري بطرقات قريته وهو يجري ورائها، وهي تنظر إليه كل فترة وتضحك. ظل يجري خلفها، حتى دخلت إلى «مندرة» الدوار وأغلقت الباب خلفها، فوقف يطرق الباب بلهفة، حتى فتح الباب من الداخل الشيخ «عبدالله» وقال لـ «ناصف» وهو يبتسم:

- عاوز تتجوز بنتي؟..

أصابت «ناصف» دهشة كبيرة، وقال:

- هي بنتك؟..

أفسح الشيخ الطريق لـ «ناصف» إلى داخل المندرة، وأشار إلى «عبير» التي كانت تجلس على كرسي مرتدية فستان زفاف، وعلى وجهها طرحة العرس، فسار «ناصف» إليها بلهفة، وركع أمامها، ثم رفع عن وجهها الطرحة بسرعة، فوجدها «أمينة»، لا «عبير».

استيقظ «ناصف» فزعًا وقلبه يدق بعنف، وأخذ ينظر حوله لفترة بعينين مسهما الجنون وهو يفكر في تفسير رؤياه التي رآها في المنام، ثم بكى بشدة، وانتحب بصوتٍ عالٍ.

***

بعد الظهر، استيقظ «ناصف» على صوت رنين هاتفه، فاستغرق وقتًا وهو يحاول أن يتذكر متى نام ثانية، فلم يتذكر. كانت المكالمة من أحد أصدقائه القدامى والذي يقيم بقرية قريبة من قريته. دعاه صديقه في المكالمة لحضور جلسة ذكر بمضيفة داره هذا المساء وألح عليه في الحضور. وجد «ناصف» أنها فرصة جيدة ليخرج من حالة عزلته وضياعه تلك، خصوصًا أن صديقه أخبره بأن الجلسة ستحوي نخبة من أفضل قراء القرآن الكريم، والمنشدين المتخصصين في إنشاد مقطوعات الشعر الصوفي العريقة التي

يهواها «ناصف».

بعد غروب الشمس، تحرك «ناصف» من قريته، فوصل للقرية التي يقيم بها صديقه عند أذان العشاء، فصلى مع صديقه وأحبابه العشاء بالمسجد، ثم تجمعوا بمضيفة منزل صديقه، فجلسوا جميعا، وتبادلوا الأحاديث الودية عن الأحوال والأهل، حتى بدأ المقرئون في قراءة آيات القرآن الكريم واحدًا تلو الآخر.

بدأ الليل في التوغل، فأحضرت الأطعمة، وتناول الجميع طعام العشاء، ثم عادوا إلى أماكنهم، وبدأ المنشدون في الإنشاد.

لم يستطع «ناصف» طوال الجلسة أن يندمج مع الحاضرين؛ لانشغال باله، وللكدر الذي أصاب روحه مؤخرًا، فانزوى بنفسه في أحد الأركان، وترك لدموعه العنان لتسيل متى أرادت، واكتفى بترديد بعض كلمات الاستحسان كل فترة تشجيعا للمقرئين والمنشدين.

التمس له الحاضرون العذر؛ لعلمهم جميعًا بظروف وفاة والدته التي وقعت منذ أسابيع قليلة، فتركوه وراحته ولم يفرضوا عليه أي نشاط جماعي.

بدأت فقرة المنشد الأكثر شعبية، والأكثر تمكنًا في إلقاء الشعر الصوفي، فتهلل الحاضرون لحضوره وحيّوه تحية كبيرة، بينما أخذ هو يمتع الحاضرين بإنشاده، ويحاول التجويد بأقصى ما استطاع.

مع الوقت بدأ الحاضرون في الوقوف والتمايل يمينًا ويسارًا وهم يرددون بتناغم.. «الله.. الله..»..

اندمج «ناصف» بشدة، وغاب تماما في الإنشاد، حتى وصل المنشد إلى مقطوعة شعرية كتبها «شهاب الدين السهروردي» وفيها أبيات تقول:

«وا رحمةً للعاشقين تكلفوا

سترَ المحبةِ، والهوى فضّاحُ

بالسرِ إن باحوا، تباحُ دمائهم

وكذا دماءُ البائحين تُباحُ»

فقام «ناصف» من مكانه، واندمج في التمايل والذكر بصوتٍ عالٍ هو الآخر..

«الله.. الله»..

كان المنشد الآن يقدم أفضل ما لديه من إبداع، والحاضرون جميعا يتمايلون و يلهجون بالذكر..

«الله.. الله..»..

شعر «ناصف» بجسده يخف، وروحه تصير أكثر شفافية وصفاءً بينما الأجواء من حوله تحمله إلى آفاق لم يعرفها من قبل، حتى

غاب تدريجيًا عن المكان والزمان، ورأى بين إغماءة واستفاقة، بأنه قد عاد صغيرًا، يرتدي جلبابًا أنيقًا تزينه نقوش حول الرقبة وعلى الجيب، و«طاقية» مزخرفة من نفس لون الجلباب، حتى جاء رجال لا يعرفهم ووضعوا فوقه تنورة مزخرفة الألوان، فصار يدور بداخلها حول نفسه ويدور، بينما الرجال ينشدون وينشدون. كانت التنورة كلما ارتفعت تحول «ناصف» الطفل إلى «ناصف» الرجل الكبير، وإذا انحسرت أثناء دورانه عاد طفلًا، ظل كذلك حتى أصابه التعب، فاستلقى على الأرض بينما تغطيه التنورة بالكامل.

شعر فجأة بأنه يستند برأسه على فخذ شخص ما، فرفع رأسه وهو لا يزال مستلقياً على الأرض فوجد نفسه يستند على فخذ أبيه الذي كان يجلس على الأرض متربعًا، مرتديًا جلبابا أبيض، وعلى رأسه شالٌ من نفس اللون، وحولهما دائرة من الرجال واقفين يتمايلون ويذكرون الله بتناغم.

كان أبوه ينظر إليه ويبتسم ابتسامة واسعة.

شعر «ناصف» بعدها بيدين تنتشلانه فجأة من جوار أبيه، ثم وجد نفسه – وهو لا يزال طفلا – محمولا بين ذراعي امرأة تحمله بقوة وتضمه إلى صدرها، بينما روائح عطورها الطاغية تجذبه، رفع

عينيه يستطلع وجه تلك المرأة التي تحمله، فوجدها أمه «نرجس»، كانت في ريعان شبابها يغطي عينيها طبقة كثيفة من الكحل، بينما شعرها الجميل المتموج يتطاير مع الهواء وينشر عبيرها الطاغي. كانت تسير به بكبرياء بطريق يمر بمنتصف سوق شديد الصخب يحتل الباعة جانبيه وهم ينادون على بضاعتهم بصوت عال.

تعجب «ناصف» الطفل في نفسه من خروج أمه إلى السوق بهيئتها تلك ودون غطاء رأسها.

تعالى صخب السوق وتداخل مع صوت الإنشاد، صراع مرير كان يدور بين الصوتين، حتى صار الصوت المختلط عاليا جدا يكاد يصم أذني «ناصف». فجأة انزلق «ناصف» الطفل من بين ذراعي أمه ووجد نفسه على الأرض عند قدميها الحافيتين المزينتين بالخلاخيل الذهبية، التفت «ناصف» موليًا ظهره لأمه وأخذ يحبو مبتعدًا عن المشهد بالكامل. ظل يحبو ويحبو مبتعدًا والأصوات المتداخلة من خلفه تخفت بالتدريج، حتى صار وحيدًا بأرض فضاء، بينما سكتت الأصوات تمامًا.

شعر «ناصف» بقطرات من ماء تغسل وجهه، وسمع أصواتًا تنادي عليه بلهفة.

عاد «ناصف» للوعي تدريجيًا، فوجد نفسه ممددًا على الأرض بـ«مندرة» بيت صديقه، وحوله من تبقى من أصدقائه بحلقة الذكر، يحاولون إفاقته.

جلس «ناصف» وأمسك رأسه الذي كان يعتريه دوار شديد، فساعده الحاضرون على النهوض والجلوس على إحدى الأرائك. عرض عليه صديقه أن يخصص له حجرة بداره ليبيت فيها حتى يستعيد وعيه، إلا أن «ناصف» رفض، وطلب من صديقه أن يوصله إلى قريته.

أحضر الصديق سيارته، وأوصل «ناصف» حتى الدوار الكبير، فما أن دخل «ناصف» إلى الدوّار، حتى شكر صديقه، ثم ذهب من فوره إلى حجرة نوم أبيه وأمه فنام نومًا طويلًا هادئًا.

بعد الظهر بفترة استيقظ «ناصف» على صوت رنين هاتفه، كان المتصل هو الشيخ «عبدالله»، كان يطمئن عليه ويستعجله في العودة للمدينة لشوقه إليه، وحاجة الجميع إليه بالمدينة، هو، والأسرة، والمسجد، والجمعية. فوعده «ناصف» بالعودة سريعًا.

بعد أن أنهى «ناصف» المكالمة مع الشيخ، جلس قليلًا في السرير يستعيد وعيه، ويفكر، بينما مشهد حبوه مبتعدًا عن الضجيج

في تلك الرؤيا التي رآها لا يفارق خياله.

وضع راحتيه المفتوحتين على السرير وبدأ يدفع جسده حتى أصبح جالسا على الحافة بينما ساقاه تتأرجحان في الفراغ.

نظر إلى قدميه الكبيرتين وشعر بالرثاء لنفسه. طريقًا طويلًا ذلك الذي قطعه منذ كان طفلا حتى صار رجلا ضخم الجثة، طاغي الحضور. طريقًا طويلًا قطعه ونفسه تموج بالصراع، حتى أنهكه ذلك الصراع وقضى عليه تمامًا.

انزلق من على سرير أبيه وأمه نازلًا إلى الأرض، ثم بدأ يحبو على أربع وهو يبتسم مستمتعًا بوحدته، وانعزاله عن عيون المراقبين، بينما كان يشعر بأنه محظوظ جداً لأنه لا يزال يمتلك بيته الذي ولد وتربى فيه، ويستطيع أن يعود إليه وقتما شاء، فيحبو كما كان يفعل وهو لا يزال طفلا، أو يهيم حبًا كما كان يفعل في مراهقته، أو يفكر ويتأمل مثلما اعتاد أن يفعل وهو رجل ناضج.

بيته الذي لا يزال عامرًا بصوت أبيه وهو يذكر الله ويتلو القرآن ويتنحنح في خجل، ولا يزال عامرًا أيضا بخطوات أمه الواثقة ونظراتها التي احتضنت كل ركن من أركان البيت بعينيها الجميلتين القويتين وزرعت فيه عطورها الخلابة.

خرج إلى صحن الدار حبوًا، ثم استلقى على الأرض وفرد ذراعيه وساقيه على اتساعهما، ثم بدأ يخلع ملابسه قطعة بعد قطعة وهو يضحك، لا من سخافة أفعاله تلك، وإنما من سخافة أفكاره السابقة التي وضعته طوال حياته الفائتة رهنًا لصراع لا جدوى منه.

أليس النور نقيًا بهيًا بطبعه؟ أليس الطين ثريًا عفيًا خصبًا بطبعه؟ ألا يحتاج الميلاد لاختراق النور للطين وامتزاجهما معا لتنبت الأزهار وتكون الحياة؟

ماذا عليه لو صار فقط نفسه؟.. هو ابن النور والطين. هو «ناصف» الواقف في منتصف المسافة بين جميع الأشياء. هو نفسه، لا امتدادًا لأبيه، ولا تفسيرًا لطموحات أمه. هو نفسه الحالم العطوف العاشق للشعر والأناشيد، وهو الغضوب كسيلٍ عارمٍ حين يهان.

هو الذي يغضب حد الشروع في القتل، وهو التقي حد ردع نفسه عن إيذاء بعوضة.

تقلب منتشيًا على الأرض لفترة وهو عارٍ، ثم قام إلى الحمام فهذّب لحيته، ثم تحمم.

خرج إلى حجرته فارتدى ملابس نظيفة، وصفف شعره بعناية

كعادته القديمة، ثم تعطّر بعطره الفواح، وأمسك بسبحته التي كانت تتدلى من إطار المرآة ثم نظر إلى نفسه في رضا.

جلس إلى مكتبه وفتح كراسة مذكراته، تلك التي كان يدون بها خواطره منذ كان مراهقًا، فوجدها ممتلئة عن آخرها عدا الصفحة الأخيرة.

أمسك بقلمه وسرح ببصره بعيدًا وهو يفكر في رباعية شعر جديدة تلح عليه ليكتبها من وحي تلك اللحظة الفارقة في حياته. ظل يفكر لفترة ثم كتب:

«يا مُنكِرًا فعلي
ذُب في الهوى مثلي
واتبع نِدا نفسك،
تفهم، وتشفع لي».

قرأ الأبيات التي كتبها وهو يبتسم في رضا، ثم وقّع بخط كبير في كامل الفراغ الذي تبقى من الصفحة، كاتبًا اسمه فقط، «ناصف».

عن الكاتب

محمود سعيد، كاتب مصري فاز بجائزة «سرد الذهب» المقدمة من مركز أبوظبي للغة العربية عن قصته «ابن عروس – المتاهة والخلاص" في دورتها الأولى – فئة القصة القصيرة للأعمال السردية غير المنشورة.

صدر له مجموعة قصصية بعنوان «روح صفية» عن دار مقام للنشر والتوزيع في يونيو 2021 والتي وصلت للقائمة القصيرة لجائزة ساويرس الثقافية لأفضل مجموعة قصصية – فرع شباب الأدباء، في دورتها الثامنة عشرة.